الدكتور عبد الحليم النّدوي

منهج النُّويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب

بحث - ودِراسة مقارنة - ونقد



دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج النُّويري
في كتابه
نهاية الأرب في فنون الأدب

مَنهجُ النُّويري

في كتابه

نِهايةُ الأربِ في فنونِ الأدبِ

بحث - ودِراسة مقارنة - ونقد

تأليف

الدكتور عبد الحليم النَدوي

رئيس قسم اللغة العربية - عميد قسم اللغات الأجنبية

بالمعهد المركزي للغة الإنكليزية واللغات الأجنبية

حيدر آباد (جنوب الهند)

دار الفكر

دمشق - سورية

الكتاب ٧٣٩
الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
الإفشاء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٧/١/٣٠م
عدد النسخ (١٥٠٠)

الإهداء

إليها ...

تلك التي عرفتها في حرمنا الجامعي بالقاهرة ...

فقد ساعدتني كثيراً في إعداد هذا البحث ...

عرفاناً لها بالجميل ...

وتخليداً لذكراها ...

وإيفاءً بالعهد ...

تلك التي لست أعرف عنها سوى أنها ن.م.م.د .

عبد الحليم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين .

وبعد ، فهذه أوراق أتشرف بتقديمها إلى القارئ العربي الكريم . ثمرة أتعابي الشاقة وجهودي المضنية ، التي استغرقت مني سبع سنوات أو تزيد ، قضيتها في دراسة هذه الموسوعة الضخمة الزاخرة التي تُعرف بـ « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، لجامعه شهاب الدين أحمد البكري الكندي النويري . دراسة مسهبة شاملة ، لم أترك فيها صغيرة أو كبيرة ، وخاصة من الأجزاء التي تتعلق بالأدب وأصنافه ، إلا حويتها دراسةً وبحثاً ونقداً على قدر المستطاع . فأتيت بهذا البحث ، وهذه الدراسة النقدية ، في صورة كتاب « منهج النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب ـ بحث ، ودراسة مقارنة ... ونقد » .

وقد انتخبت هذه الأسفار الضخمة لتكون موضوع دراستي أثناء وجودي بجامعة القاهرة ، بمشورة من أستاذتي السيدة الفاضلة الدكتورة سهير القلماوي ، لأن الكتاب لم يزل بكراً ، لم يتناوله أحد دراسةً وبحثاً . ثم إنني وجدت الكتاب يشتمل على شتى المواد والمعلومات من فنون وعلوم مختلفة كثيرة ، ابتداءً من فجر تاريخ الأدب العربي ، إلى مطلع القرن الثامن الهجري ، الذي عاش فيه النويري (٦٧٧ ـ ٧٣٢ هـ) . ولاحظت أن الكتاب فضلاً عن كونه موسوعة تحوي مختلف العلوم والفنون ، تتضمن ثلاثة أرباع أجزائه (وهو ثلاثون جزءاً مخطوطة) مواد

قيمة ومعلومات نادرة ، وموضوعات زاخرة من الأدب الخالص . وكنت مَيالاً إلى الأدب بالطبع ، شغوفاً به منذ عهدي باللغة العربية ، منذ عهد الصبا . فاستقر رأيي أن تكونَ موسوعة النهاية موضوع دراستي مهما كان الأمر شاقاً والدرب وعراً .. فشمرت عن ساق الجد وبدأت العمل ، مستمداً من المصادر والمراجع المتوفرة في مكتبة جامعة القاهرة ، ومكتبة دار الكتب المصرية ، ومكتبة جامعة الدول العربية ، ومكتبة الجامعة الملّية الإسلامية بدلهي الجديدة ، ومكتبة الجامعة الإسلامية بعلي جره . معتمداً على الكتب المطبوعة والمخطوطة معاً . إلى أن هَيّأ الله من أمري يسراً ، ونجحت في المرام ، وأكملت الدراسة والبحث ، في صورة هذا الكتاب الذي رأى النور بفضل دار الفكر ، بدمشق العامرة ، التي قامت بنشره وتوزيعه ، فلها مني جزيل الشكر ، لهذا الإسهام القيّم في إنماء ثروة الأدب واللغة العربية .

وأخص بالشكر صديقي الأستاذ المحقق علي حمد الله ، لما بذله من جهد مخلص في الإشراف على طبعه بدمشق ، بكل ما عُرف عنه من سعة علم ودقة ضبط .

د. عبد الحليم الندوي

دمشق ، سورية
يوم السبت ١٩٨٢/٥/٢٩ م
الموافق لـ ١٤٠٢/٨/٦ هـ

خطة البحث والدراسة

ومن أجل إنجاز البحث وفق المنهج المعين ، قمنا أولاً بدراسة كتاب « نهاية الأرب في فنون الأدب » جزءاً جزءاً . ثم ابتدأنا البحث عن الكتب والمصادر التي اقتبس منها النويري الموضوعات والمواد والمعلومات فلما تحقق ذلك ، قمنا بموازنة نصوصها بمنقولات النويري ، وأشرنا إلى الفرق بين المنقول والمنقول منه ، فإذا كان النويري قد نقل المواد والمعلومات بعينها دون تصرف أو تعديل ، بيّنا السبب في ذلك ، وإن كان قد تصرف أو عدّل ، ألمحنا إلى الباعث له أيضاً . هذا في الموضوعات المختلفة المقتضبة ، فإن كان المرجع أو المصدر كتاباً بعينه ، رأينا هل لخص الكتاب كله أو اختصره ، أو تناول بعض أبوابه اختصاراً وتلخيصاً ، وأشرنا إليه أيضاً ، وبيّنا السبب في قيامه باختصار أو تلخيص كتاب معين في موضوع معين . إما بإشارة إلى قوله في ذلك ، أو بإيجاد الباعث له من نتيجة دراستنا للموضوع . وحاولنا ـ أنى تسنى لنا ذلك ـ التعريف بالكتاب المنقول منه وبصاحبه . وهي كتب كثيرة ، منها المطبوعة ومنها مخطوطة لم تر النور بعد . ثم وضعنا قائمة بجميع الكتب والأسفار التي نقل منها النويري معلوماته في كتابه النهاية ، من نظم ونثر وتاريخ وسيرة وغيرها . وفي الأخير نوّهنا بعمله الجليل هذا ، وعيّنا منزلة الكتاب بين الموسوعات الأخرى المختلفة وأشرنا إلى الأهمية البالغة التي يمتاز بها بين هذه الأسفار الضخمة . ووزعنا منهجنا هذا ، في خمسة أبواب اقتفاءً بالنويري على حسب التفصيل الآتي :

في الباب الأول (نبذة من حياة النويري وبيئته) حاولنا أولاً أن نكمّل حياة النويري من البيانات المقتضبة الموجزة ، التي أدلى بها مترجموه في كتبهم .

فلم نجد مؤلفاً لسيرته قد كتبها كاملة من وقت مولده إلى حين وفاته . بل ذكروها باختصار شديد يصعب على المرء من خلاله نسج مراحل حياته متسلسلة مرتبة في صورة تبرز سيرته وحياته كاملة من جميع النواحي . فهناك زوايا ومراحل من حياته الزاخرة ، ما تزال في ظلام دامس ، لم يلق عليها أي مؤلف الضوء إلى الآن . وإننا من جهتنا حاولنا كل المحاولة أن ننير هذه الزوايا بالتحري حيناً ، وبالاستناد إلى أقوالهم المقتضبة حيناً آخر . وقد نجحنا إلى حد ، في رسم صورة لهذا المؤلف الجليل المظلوم ، ولو كانت ناقصة بعض الشيء ، ولنا العذر فيه . فإن جميع كتب الأعلام والتراجم لا تتكلم ببنت شفة عنه .

وعند الكلام عن بيئة النويري ، سردنا كيف أدت كارثة سقوط بغداد إلى انحلال فكري وتعطل علمي في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي بصفة عامة . وكيف أصبحت القاهرة ـ قاعدة دولة المماليك ـ فيما بعد ، الملجأ الوحيد للعلماء الذين تشردوا بسبب ويلات غارات التتار واكتساحهم البلاد العربية . وكيف شمروا عن ساق الجد ، بعد أن لاحظوا ما تخبئ هذه الفادحة من أثر سيئ ، ينبئ بزوال العلم والعرفان ورصيد قرائح العباقرة والأفذاذ من أُمتنا الخالدة ، ليجمعوا ما كان قد تفرق منه هنا وهناك ، فدوّنوه في أسفار ضخمة تحوي آلاف الصفحات . مثل « لسان العرب لابن منظور » و « النهاية للنويري » و « مسالك الأبصار للعمري » و « صبح الأعشى للقلقشندي » وغيرها . وكيف ظلت هذه الأسفار ـ وخاصة كتاب نهاية الأرب للنويري ـ حقبة طويلة من الزمن رهن غياهب المكتبات العالمية ، حتى عثر عليها بعض محبي العلم ، ومنهم زكي مبارك باشا ، الذي عثر على نسخة خطية من كتاب « نهاية الأرب للنويري » في مكتبة آستانة بتركيا ، فنقل صورة شمسية منها إلى القاهرة ، حيث بدأت عملية ضبطها وتحقيقها التي استمرت زمناً طويلاً ، لتبدأ عملية الطباعة في عام ١٩٢٠ م ، وتستمر إلى اليوم . وقد صدر إلى الآن أكثر من عشرين جزءاً من

المخطوطة التي تحوي ٣٠ جزءاً ، تتضمن نيفاً وأربعة آلاف وأربع مئة صفحة تقريباً . وتقوم بهذه المهمة العلمية التذكارية دار الكتب المصرية ، وقد شكلت لها لجنة من الخبراء ، تقوم بهذه المهمة خير قيام . فجزاها الله عن العلم والأدب خير الجزاء .

وذكرت في الباب الأول هذا ، أن النهاية موسوعة أدبية ، مستدلاً في هذا بأقوال النقاد والعلماء ، وقول النويري نفسه .

أما الباب الثاني من الكتاب فهو يتعلق بتقديم الكتاب بتفصيل وإسهاب . ويعطي صورة واضحة للكتاب من ناحية الموضوعات والفنون والمواد التي حواها واشتمل عليها .

وأما الباب الثالث فإنه خاص بمنهج النويري في كتابه هذا . وهذا الباب من أهم أبواب الكتاب ، إذ هو خلاصة دراستي وبحثي لهذه الأسفار الضخمة . فإنه يحوي دراسة تحليلية لمنهجه في النقل والاختصار والتلخيص على هدي من منقولاته . وقد زيّنت هذا الباب بفهارس للكتب التي نقل منها والكتب التي لخّصها أو اختصرها . وذيّلته بقائمة الكتب والدواوين التي نقل منها الشعر في كتابه .

والباب الرابع الذي عنونته « على هامش الاقتباس والنقل » درست فيه كيفية اختصاره لمخطوطين ، وهما « مقدمة الجواني النسابة في الأنساب » المسماة « أصول الأحساب وفصول الأنساب » وكتاب « ذم الهوى » لابن الجوزي ، في الحب والعشق وأسبابه ومآله وما له وما عليه ، وكلاهما من مخطوطات دار الكتب المصرية ، (وقد طبع ذم الهوى لابن الجوزي مؤخراً) .

وكذلك قمنا بدراسة طريقته في الاختصار والتلخيص لكتابين مطبوعين هما : « مجمع الأمثال للميداني » و « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني . وذلك ختام هذا الباب .

أما الباب الخامس الأخير من الكتاب فهو يتضمن « ديوان النهاية » . وهو باب يبحث في طريقة نقل النويري الشعر ، من مختلف الكتب والدواوين ، ليدلي بها استشهاداً أو تمثيلاً للأمثال أو الأقوال في نهاية كل فن ، مع الأشعار الخاصة التي أوردها استشهاداً للأمثال العربية التي جمعها في كتابه من كتاب « مجمع الأمثال للميداني » وفق حروف المعجم . وأشعار الغزل والنسيب التي أوردها في ختام اختصار « ذم الهوى » . وقد أتينا بمقطوعات منها على سبيل المثال ، إلى جانب بعض المقطوعات الممتعة التي نقلناها في هذا الباب أيضاً .

وأهم عمل قمنا به في هذا الباب ، هو وضع قائمة بأسماء الشعراء الذين نقل النويري كلامهم من غير ترتيب لطبقاتهم ، في مختلف أجزاء كتابه وفي مختلف الأبواب والأقسام منه . فوضعنا هذه القائمة مرتبة بحسب طبقاتهم ؛ طبقة الجاهليين ، فالإسلاميين ، فالمولّدين ، فالْمُحْدَثين . وذلك لكي يسهل معرفة أسماء الشعراء ـ من مختلف الطبقات ـ الذين نقل لهم النويري في كتابه بمختلف المواقع وفي مختلف الموضوعات .

وأنجزنا الكتاب بخاتمة سميناها « نهاية المطاف » أبرزنا فيها أهمية كتاب النهاية من جميع النواحي ، مع الموازنة بينه وبين الموسوعات الأخرى . ثم وضعنا الكتاب على محك النقد ، لِنُنَبّهَ إلى الأغلاط والأخطاء التي اقترفها النويري ، وهي قليلة بسيطة لا يُؤْبَهُ لها ، خاصة في مثل هذا العمل الضخم الذي يشتمل على آلاف الصفحات من القطع الكبير .

وفي الأخير أثبتنا قائمة بكتب المراجع على حروف المعجم واكتفينا فيها بذكر المهم ، ويبلغ تعدادها نيفاً و ١٧٠ كتاباً بين مخطوط ومطبوع .

وبعد ، فهذه هي ثمرة أتعابي قضيت فيها زهاء ثماني سنوات ، كابدنا خلالها من التعب والمشقة ، قدراً كبيراً ، وواجهنا من المصاعب والعراقيل قسطاً لا يعلمه

إلا الله . فكم مرت من شهور وأسابيع تتجافى جنوبي عن المضجع ، وراء عينة أوردها النويري ، أو بحثاً عن اقتباس نقله في كتابه ، أعياني العثور عليه أطراف النهار . ولكن الله أيّدنا بنصره وشملنا بتأييده ، فله الشكر والحمد على ما مهّد لنا من سبيل الرشاد والتوفيق ، حتى أتممنا الكتاب في أحسن صورة ممكنة .

وإن عبرت عن شكري العميق وتقديري القلبي لجميع الأشخاص الذين ساعدوني في إعداد هذا الكتاب فلن أفي بحق أستاذتي الفاضلة الدكتورة سهير القلماوي والبروفسّور مختار الدين أحمد ، رئيس قسم اللغة العربية ، وعميد كلية الآداب بالجامعة الإسلامية في علي جره ، لما أسديا إليّ من إرشادات غالية ، ونصائح قيمة ، ولما مهّدا لي من سُبُلٍ تحقق لي بفضلها أملي في إنجاز البحث وإتمام الكتاب . فلهما مني أجزل الشكر والامتنان مقروناً بتقديري واحترامي لهما بالغين .

ولئن كان لأحد أن يشكر نفسه بنفسه ، شكرت زوجتي ورفيقة عمري ، السيدة واثقة حليم الندوي ، دون علم منها ، لما تحملت من مشاق الوحدة ولوعة الفراق ، والقيام بواجبات الأسرة وحيدة أثناء وجودي بالقاهرة ، ولا أقول لها سوى : رعاك الله يا سلمى رعاك .

ولن أنسى فيما نسيت مدى العمر ، تلك الفتاة الجامعية الطاهرة التي ساعدتني كثيراً ولشهور عديدة ، في نقل الاقتباسات من كتب مختلفة وفي البحث عن مصادر ومراجع النويري ، دون أن تطلب مني جزاءً أو شكوراً . فأشكرها عن ظهر الغيب ، معترفاً لها بهذا الجميل بإهداء الكتاب إليها ، ولو أنني لست أدري أين هي وماذا فعل بها الدهر .

وكذلك يحتم الواجب أن أعترف بكل رحابة صدر لما أسدى إليّ صديقي الحميم الأستاذ مشتاق أحمد (خبير اليونسكو سابقاً) والسيدة حرمه بشرى مشتاق من معروف وحسن ضيافة طول مدة إقامتي ببيتهما العامر ، أثناء إكمال الكتاب ، فلهما شكري الجزيل لما أديا من حق الأخوة والصداقة ، بقدر أقصى .

ولن أنسى بهذه المناسبة أن أنوّه بالمجهود الضخم الذي بذله صديقنا الحميم وأخونا المخلص الأستاذ الفاضل علي حمد الله في إعادة النظر في مسودة الكتاب ، وتجشُّم مصاعب التصحيح والتنقيح ، فأعبر له عن شكري وامتناني البالغين ، لما تحمّل من المشقة والصعوبة في إنجاز هذه المهمة ، فجزاه الله عن الأدب واللغة والعروبة أحسن الجزاء .

فها أنا ذا أقدم هذا الكتاب بضاعة كاسدة وجهداً من مُقل ؛ فلست أدّعي أني استوفيت من البحث والدراسة ما كان الواجب والحق يحتّم عليّ منهما ، ولو أني بذلت أقصى ما كان في الوسع والإمكان . فقد كان من حق هذه الأسفار الضخمة أن يدرس كل فن منها دراسة وافية شاملة ، كل فن على حدة من قبل خبراء في هذه الفنون الخمسة المتنوعة ، فمن المحال على فرد واحد ، مهما أُوتي من العلم والمعرفة ، أن يقوم وحده بدراسة هذه الفنون ويستوفيها ، وذلك لعدم تمكن فرد واحد من التخصص في هذه الفنون كلها والتعمق فيها . فلا تزال هناك كنوز أدبية وعلمية كامنة في طيات هذه الأسفار ، تنتظر من يكشف عنها الغطاء . فهل من مجيب ؟

تلك هي كلمات أثبتها استهلالاً للكتاب ، وأنا أقدمه إلى القارئ العربي ، راجياً أن ينال عنده حظوة وعند الأساتذة والطلبة رضاً ، عافين عن الأخطاء ، وقد تكون كثيرة ، فإن بضاعتي من اللغة العربية ضئيلة جداً . وأدعو الله تبارك وتعالى أن يُوفّقني في هذا العمل العلمي ويسدد خطاي ، ويهيئ لي من أمري رشداً فهو ولي التوفيق والرشاد .

د . عبد الحليم الندوي

الباب الأوّل

نبذة من حياة النويري وبيئته

مظلوم هذا الرجل ـ النويري ـ فلم تتحد كلمة المترجمين لـه على كثرتهم ، فهم نخبة مختارة من أفذاذ العلماء والمتبحرين في شتى العلوم والفنون ، لم تتحـد كلمتهم حتى على اسم جده الصحيح ، ودع عنك الإشادة والتقدير والتقـديم لعملـه الجليل الذي خلده في صورة كتابه (نهايـة الأرب في فنون الأدب) ؛ الـذي سيظل غرة على جبين العلم والفن ، إلى أبد الدهر .

فنجد هذا الرهط من المترجمين له ، متفقين في اسم والـده ، الـذي هو (عبـد الوهاب) . أما اسم جده ، فهنالك اختلاف كبير بين العلماء والمترجمين له .

فأما معاصره وصاحبـه جعفر الأدفوي ، صـاحب (الطـالع السعيـد الجـامع لأسماء نجباء الصعيد) فإنه يقول :

« هو (أي النويري) أحمد بن عبد الوهاب **بن عبد الكريم** » .

أما ابن حجر العسقلاني صاحب (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) فإنه يقول :

« أحمد بن عبد الوهاب **بن محمد** بن عبد الدائم » .

أمـا ابن تغري بردي الأتـابكي صـاحب (النجـوم الـزاهرة في ملـوك مصر والقاهرة) فإنه كتب يقول :

« أحمد بن عبد الوهاب **بن عبادة** البكري » .

وهـذا السيـوطي مـؤلف كتـاب (حسن المحـاضرة في أخبـار ملـوك مصر والقاهرة) فإنه ترجم له قائلاً :

« أحمد بن عبد الوهاب **بن أحمد** البكري » .

أما الزركلي صاحب الأعلام ـ قاموس تراجم ـ فإنه قال في ذكره :

« أحمد بن عبد الوهاب **بن محمد** بن عبد الدائم ، القرشي التيمي » .

أمـا بقيـة المترجمين لـه فلم يهتموا بـذكر جـده إطلاقـاً . حتى (دائرة المعـارف الإسلامية) التي هي أحدث كتاب يتضمن ذكر النويري ، فإنـه أيضـاً لم يهتم بهـذا الرجل فيـذكر اسم جـده ، بل أهملـه كي لا يقـع في ورطـة ، قـد يصعب السبيـل للخروج منها .

وهكذا نجد أن اسم جده كما ورد في كتب المترجمين له المذكورين آنفـاً ، جـاء على الوجه التالي :

« عبد الكريم ، ومحمد ، وعبادة ، وأحمد » .

فأي الأسماء صحيح يا ترى ؟ حيرة وغرابة يلازمان البـاحث ولا يبرحـان . فقد يحار أي الأسماء يختار وأيها يـدع ، وبـأي دليل يرجح هـذا على ذاك ، وذاك على هذا ؟ فلا شبه ولا مماثلـة في الأسماء المـذكورة . فهل عـدم هؤلاء المترجمون ، مرجعاً موثوقاً به ، لإزالة هذا الاشتباه ، والتأكد من اسم جده الصحيح ؟

لا . لقـد كان لهم مرجع . وأي مرجـع ؟ مرجـع لا يـأتيـه البـاطـل من أي جانب ولا يخـامره أدنى شـك من أي وجـه . ألا وهو صـاحب الترجمـة ـ النويري نفسه ـ فأكد هو غير مرة أن اسم جـده هو (محمـد بن عبـد الـدائم) . فلقـد كتب بقلمه في نهاية السفر الأول من مخطوطة كتابه (نهاية الأرب) قال :

« نجز السفر الأول من « كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب » على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب **بن محمد** بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي عرف بالنويري عفا الله عنه ... إلخ »

وكذلك أورد العبارة نفسها مؤكداً اسم جده (محمد بن عبد الدائم) في اختتام السفر الرابع والسفر الخامس من الكتاب والأسفار الأخرى .

وهكذا تحل المشكلة وتنقشع الشبهة وتكتشف الحقيقة . ولكنه من المؤسف حقاً ، أن المترجمين لم يتحملوا مشقة الرجوع إلى كتابه ، وكم كان ذلك أحرى بهم . ليكتشفوا الحقيقة ويثبتوها . ولكنهم أتوا بكلامهم جزافاً من غير تروٍ وتقصٍ . كما فعلوا بكتابه . فيتراءى لي أن أحداً منهم لم يتجشم مهمة مطالعة الكتاب بالتجزئة ودع عنك مطالعته بالتفصيل . ولذلك خبطوا خبط عشواء في وصفه وعملوا عمل حاطب ليل في تعريفه ، فوصفه بعضهم (بالتاريخ) ، وبعضهم (بالأدب) ، وشتان بينهما .

ومهما يكن من شيء ، فإنه استناداً إلى ما كتبه مترجموه وما كتبه هو بنفسه ، تتشكل شجرة نسبه على الوجه الآتي ، فهو :

« أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري (نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه) التيمي القرشي ، المعروف بالنويري ، والمنعوت بشهاب الدين ، والمكنى بأبي العباس ، شافعي المسلك ، الشيخ الإمام الفقيه المؤرخ . المولود في سنة ٦٧٧ ، والمتوفى سنة ٧٣٣ هـ » .

مظلوم هذا الرجل ـ النويري ـ الذي منّ على اللغة العربية وآدابها ، بما جمعه لها ، في هذا السجل الحافل من موسوعته ، من أمثال سائرة ونوادر ومجون فكهة ، وخطب رائعة ومقالات بليغة ، وأحاديث شائقة ، وأخبار غريبة ، وحكايات لطيفة نادرة ، وأشعار ممتعة جذابة ، وكل ما يتعلق بالإنسان في حياته

ومعيشته ومعاشرته ونسبه وتاريخه وحبه وهواه وميوله وأهدافه ، إلى جانب انتقائه ونقله لنماذج متبعة من الإنشاء الديواني والرسائل الرسمية والعهود والمواثيق الحكومية ، مستقاة ومنقولة من شتى المصادر والكتب ، التي لولا هذا الكتاب وجهود المؤلف المضنية في جمعه وتأليفه ، لم نكن لنسمع ببعضها ، ودع عنك الاستفادة منها والرجوع إليها .

فقد زود هذا الرجل المكتبة العربية بمقتطفات ومقتبسات ومختصرات وملخصات من التراث العلمي والفني الضخم الذي تركه لنا آباؤنا القدماء ، في جميع الفنون الأدبية الرائجة إلى عصره ، بالإضافة إلى فن الجغرافية والتاريخ والسيرة ، والنبات والحيوان ، حتى الجنسيات ، إلى جانب فنون أخرى كثيرة ، مما أودعوه كتباً قيمة وأسفاراً حافلة ، لو لم يكن النويري ، لكانت قد أصبحت من حديث الماضي ، لما عانت تلك الأسفار من عنت التتار ، وما لاقت من وحشيتهم بإلقائها في نهر دجلة على يد هولاكو أولاً ، في منتصف القرن السابع الهجري عند سقوط بغداد في يديه عام ٦٥٦ ، ثم تسليمها للهب النيران المضطرمة على أيدي تيمور لنج أخيراً ، وذلك في أواخر القرن نفسه .

« وبذلك ضاعت على الدين ذخائره ، وعلى العلوم والآداب نفائسها ، وفقدت العربية إلى الأبد آلافاً من المؤلفات »[(١)] .

ولكنْ بعث الله من رهط هؤلاء الكتاب صاحبنا النويري ، ليجمع من هذه الكتب ما وصلت إليها يده ، يودعها كتابه (النهاية) ليكون سجلاً حافلاً لهذا التراث الفنّي والعلمي (الذي كانت تتحدث به الركبان وتتغذى به المحافل والمجالس علمياً وثقافياً ، في المجتمع الإسلامي إذ ذاك ، لأنه نتاج أذهان الأفذاذ من العلماء والأدباء ، وفيض من قرائح العباقرة من الحكماء والفلاسفة ، ورشحات

---

(١) مختصر أبي الفداء ١٩٤/٤

لأقلام النابغين من المؤرخين وأصحاب السير ، والمهرة في صنوف المهن والحرف ، والمتضلعين في مختلف العلوم والفنون ، الذين سبروا أغوارها ، وقضوا فيها من عمرهم سنين عدداً . فأتت نتائج أفكارهم وثمار جهودهم معيناً لا ينضب ولا يغيض أبد الدهر) .

ومع هذا فإن النويري مظلوم . لم يظلمه من خلفه من أصحاب التراجم المتأخرين بل معاصروه أيضاً .

وكذلك ظلمه رؤساؤه ممن قرّبوه فأبعدوه ، وقدّروه فأساؤوا إليه وأهانوه . فلقد روى الرواة أن الشخص الذي قربه من السلطان ووفر له سبل العيش الهنيء ، وفتح أمامه أبواب التقدم والرقي ، وضمن له مستقبلاً باهراً ، ألا وهو (ابن عبادة) ـ من أكابر حاشية السلطان الناصر وأقرب رجال البلاط إليه ـ قد ضربه يوماً بالمقارع (وهي السياط)[1] لخلاف لا نعرف كنهه ولا مبعثه . فهل من ظلم أكثر فداحةً وفضيحةً ، من ضرب رجل بالسياط ، مثل النويري الذي كان فقيهاً فاضلاً ومؤرخاً بارعاً له مشاركة جيدة في علوم كثيرة[2] على حد تعبير الأدفوي معاصره .

أما المترجمون له من المتأخرين والمعاصرين ، فإنهم ما أنصفوه ، بذكر مختلف مراحل حياته الحافلة ، ولم يعيروه الاهتمام والتقدير الذي كان يستحقه ، ولا الإشادة بالعمل الجليل الذي قام به ـ هو بنفسه ـ وحيداً ، والذي يتطلب إنجازه جماعة من الخبراء أولي العزم والثبات ذوي العلم والعرفان ، وواسعي الأفق كثيري الاطلاع والمعرفة .

---

(١) الأفودي ، الطالع السعيد ص ٤٦ حرف (اح) رقم ٥١

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٩٩/٩

« فلقد ترجم لحياة النويري كثيرون ، منهم الزركلي في كتابه « الأعلام » ، وعلي باشا مبارك في كتاب « الخطط التوفيقية » وابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » والسيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » .

فكل هؤلاء ذكر النويري ، غير أن هؤلاء جميعاً قد استغنوا بالإشارة الخفيفة عن البحوث المستفيضة في حياة هذا العالم الكبير ، الذي كان خليقاً منهم بعناية أكثر من التي بذلوها . وهذا هو صاحب الدرر الكامنة يكتفي بأن يقول عن صاحب نهاية الأرب : ... وسمع من الشريف موسى بن علي بن أبي طالب ويعقوب الصابوني وغيرهما ، ونسخ البخاري ثماني نسخ وكان يكتب النسخة ويبيعها بألف درهم . وجمع تاريخاً حافلاً بخطه وباعه بألف درهم وهو في ثلاثين مجلدة ، وحصل له عند الملك الناصر حظوة ، ووكله في بعض أموره وباشر نظر الجيش بطرابلس ، وكان حسن الشكل ظريفاً متودداً ... إلخ »[1] .

وقد فات الدكتور حمزة أن يذكر الكثيرين ممن تناولوا ذكره في كتبهم ، بغاية الإيجاز والاختصار .

فنجد مثلاً ابن كثير ، الذي قال وهو يذكره :

« شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب البكري ، نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كان لطيف المعاني ، ناسخاً مطيقاً ، يكتب في اليوم ثلاث كراريس . وكَتَبَ البخاري ثماني مرات ويقابله ويجلده ويبيع النسخة من ذلك بألف ونحوه . وقد جمع تاريخاً في ثلاثين مجلداً ، وكان ينسخه ويبيعه أيضاً بأزيد من ألف . وذكر أن له كتاباً سماه « منتهى الأرب في علم الأدب » في ثلاثين مجلداً أيضاً . وبالجملة كان نادراً في وقته . توفي يوم الجمعة عشرين رمضان

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ٢٠

رحمه الله »[1] .

رأينا أن ابن كثير وهو حديث عهد بالنويري لم يقدم لنا شيئاً ذا غنىً عن حياته الخاصة غير أنه ينتسب إلى أبي بكر الصديق ، وأنه كتب البخاري ثماني مرات ، وجمع تاريخاً في ثلاثين مجلداً . وبالإضافة إلى ذكر هذا الكتاب أفادنا بذكر كتاب آخر هو (منتهى الأرب في علم الأدب) في ثلاثين مجلداً أيضاً .

وإننا بعد التقصي للمصادر والبحث في المراجع والمظان لم نهتد إلى كتابين له اثنين كلاهما في ثلاثين مجلداً ، أحدهما في التاريخ وثانيهما في الأدب . كما يذكر ابن كثير .

وإنما يغلب على ظني أن ابن كثير قد اشتبه عليه الأمر ، فزعم أن له كتابين منفردين والواقع خلاف ذلك ؛ فله كتاب واحد هو (النهاية) الذي نحن بصدده . ومن هنا يتبادر إلى الذهن أن ابن كثير لم ير بنفسه كتاب النويري ، بل كتب عنه سماعاً . والدليل على ذلك أنه يقول : « وذُكر أن له كتاباً سماه منتهى الأرب في علم الأدب » ، هكذا بصيغة المجهول . ومن الجائز جداً أن الذين ذكروا له ذلك قد اختلط عليهم الأمر أيضاً . وذلك أن (نهاية الأرب) يشتمل على الوقائع التاريخية ، بالإضافة إلى العلوم الأدبية وهي قوام هذا الكتاب ، كما سنعرض لهذا فيما بعد . فزعموا أن النويري عالج هذين الفنين في مؤلفين اثنين ، كلاهما في ثلاثين مجلداً ، فنقل عنهم ابن كثير دون أن يحقق في الأمر ، أو يلقي ـ على الأقل ـ نظرة ولو خاطفة على الكتاب ليتبين له الواقع . ومرد ذلك إلى أن ابن كثير لم ينظر إلى النويري وإلى عمله بعين التقدير ـ كما يظهر ـ الذي كنا نتوقع منه ، ولذلك لم يعره من الأهمية والاهتمام قدراً يستحقه الكتاب وصاحبه ،

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٦٤/١٤ ، وهو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) وهو صاحب تفسير ابن كثير أيضاً .

بل بلغ به الإهمال والحطّ من قدر الكتاب أنه لم يبال أن يكتب اسمه الصحيح[1] .

ويأتي بعد ابن كثير يوسف بن تغري بردي صاحب (النجوم الزاهرة) ، فإنه زاد على صاحبه شيئاً وأفصح قليلاً . فقد كتب يقول :

« كان فقيهاً فاضلاً ، ومؤرخاً بارعاً ، له مشاركة جيدة في علوم كثيرة . كتب الخط المنسوب . قيل إنه كتب صحيح البخاري ثماني مرات . كان يبيع كل نسخة من البخاري بخطه بألف درهم ، وكان يكتب كل يوم ثلاث كراريس . وتاريخه سماه (منتهى الأرب في علم الأدب) في ثلاثين مجلداً . رأيته وانتقيته ونقلت منه بعض شيء في هذا التاريخ . ومات وهو من أبناء الخمسين »[2] .

هذا هو كل ما كتبه ابن تغري بردي عن هذا العالم الجليل . فأفصح أنه كان فقيهاً فاضلاً ومؤرخاً بارعاً ... إلخ . إلا أنه أخطأ في ذكر اسم الكتاب كما هو ملاحظ . والغريب في الأمر أنه يعترف بأنه رآه وانتقاه ونقل منه بعض الشيء في تاريخه (النجوم الزاهرة)[3] .

أما السيوطي فإنه بالغ في الإيجاز ؛ فلم يزد على قوله : « النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكري المؤرخ صاحب التاريخ المشهور .

(١) راجع للتفصيل المرجع السابق .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٩٩/٩ . وابن تغري بردي هو جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي ٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ ؛ ١٤١٠ ـ ١٤٦٩ م ، صاحب (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) وغيره . أما تغري بردي فأصلها في التركية (تكري ويردي) بمعنى (عطاء الله) أو (الله أعطى) . وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي أنها تترية بالمعنى الثاني . انظر أيضاً الأعلام للزركلي ١١٧٨/٣

(٣) الجدير بالذكر أنه ذكر النويري في الجزء السابع من كتابه هذا في الصفحات ١٧ ، و ٢٣ ، و ١٧٤ ، و ٣٣٠ ، ولكن ليس في هذه الصفحات عن شخصية النويري شيء . وإنما ورد ذكر النويري عند نقل المؤلف أشياء عن كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) . وذلك في هامش الكتاب وليس في المتن .

مات في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة »[1] .

فقد رأينا أنه لم يذكر شيئاً عن كتابه ، ودع عنك ذكر حياته .

وفي هذا الركب من المتأخرين حاجي خليفة شلبي صاحب « كشف الظنون » فإنه يقول :

« نهاية الأرب في فنون الأدب تاريخ كبير في ثلاثين مجلداً ، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري الكندي المتوفى سنة ٧٣٣ ، ألفه زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون . أوله : الحمد لله رافع السماء وفاتق رتقها ، ومنشئ السحاب ومؤلف ودقها ... إلخ قال (ما أوردتُ فيه إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه) ورتبه على خمسة فنون : الأول في السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلي ، ويشتمل على خمسة أقسام . والثاني في الإنسان وما يتعلق به ، ويشتمل على خمسة أقسام . الثالث في الحيوان الصامت ، ويشتمل على خمسة أقسام . الرابع في النبات ، ويشتمل على أربعة أقسام ، وذيله بقسم خاص من أنواع الطب . الخامس في التاريخ ، ويشتمل على خمسة أقسام »[2] .

وهذه أول مرة بعد هذه الجولة التي إن لم تكن طويلة جداً ، فإنها ليست بقصيرة جداً أيضاً ، نسمع فيها اسم الكتاب صحيحاً ، وأول مرة أيضاً نعرف فيها انقسامه في فنون خمسة ، مقسمة بدورها أقساماً خمسة ، مع عنوان الفنون كلها بدقة وعناية ، ومع ذكر المقدمة التي استهل بها النويري الفن الأول في السماء والآثار العلوية . فبهذه البيانات وإن كانت وجيزة نكوّن فكرة عن الكتاب

---

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ٢١٦/١

(٢) الحاج خليفة شلبي (جلبي) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٦١٩/٢ مادة (ن) .

ومحتوياته . أما صاحب الكتاب ، فإننا لا نسمع عنه شيئاً إطلاقاً ، غير الذي سبق أن ذكره بعض الكتاب من بيان اسمه وكنيته ، ليس غير .

فقد لاحظنا أن شلبياً هذا أهمل ذكر حياة النويري ، وليس ذلك بدعاً منه ، إذ إنَّ تغري بردي الذي يدعي أنه استفاد من كتابه ، يهمله هذا الإهمال الشنيع . وقد رأينا أن الإهمال وصل به إلى أنه لم يذكر اسم كتابه الصحيح ، مع العلم أن اسم الكتاب مكتوب على كل مجلد من المخطوطة . فإذن لماذا نشتكي من إهمال جلبي لذكره ذكراً مفصلاً ، ونحن نعرف أنه مؤلف متأخر جداً ، ومن أصل غير عربي ، ومن بيئة غير عربية في الصميم(١) ؟

وأخيراً نذكر من هذا الركب شخصية عاصرت النويري ، وعدته « صاحباً لها » ، ألا وهو جعفر الأدفوي صاحب (الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد) . وكان من حقه علينا ، أن نذكره في مقدمة المؤلفين الذين تناولوا ذكر النويري ، ولكننا أجلنا ذكره بعض الوقت ، عسانا نعثر عنده على شيء ذي قيمة ، عن حياته الخاصة وعن الكتاب ، لكي يتسنى لنا رسم صورة واضحة لصاحبنا النويري على هدى من بياناته ، وقد أيسنا من المتأخرين . فإذا به يخيب ظننا المعقود عليه . فإنه أيضاً لم يؤد ما كان عليه من الحق للنويري ، بصفته معاصراً له . فلم يبدِ هو الآخر من الاهتمام والانتباه الذي كان يستحقه النويري وحياته وكتابه ، قدراً يطفئ الغلة ويفي بالغرض . فقد كان أحرى به أن يذكر أيام طفولته ومدارجها ، مغاني صباه ومراحلها ومنشأه ومترعرعه ، وأين درس ، وبأي كتاب أو مدرسة التحق ، ثم أن يذكر مهنته وكيف مارسها ، وفي أي الأقطار والمدن تقلب ، ثم يبحث في الأسباب التي أدت إلى تركه لها ،

---

(١) وجلبي هو مصطفى بن عبد الله ، كاتب شلبي أو جلبي ، مؤرخ تركي الأصل ولد وتوفي في الآستانة في سنة ١٠٦٦ هـ الموافقة لـ ١٦٥٦ م .

واتخاذه صناعة الأدب مهنة ، والنقل والاقتباس حرفة ، إلى غير ذلك من الأمور ، التي تختص بشخصية النويري في صميمها وتكشف القناع عما غمض من الأمور في سيرته الشخصية وهذه من شأنها أن تسهم في تقويم وبناء الشخصية وإبراز صلاحياتها ولكنه لم يفعل من هذا شيئاً . وهاكم ما كتبه الأدفوي عنه :

« أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكري ، ينعت بشهاب الدين النويري المحتد ، القوصي المولد والمنشأ ، سمع الحديث على الشريف موسى بن علي بن أبي طالب ، وعلى يعقوب بن أحمد الصابوني ، وأحمد الحجاز ، وزينب بنت منجى ، وقاضي القناة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة[1] وغيرهم . وكتب كثيراً ، كتب البخاري مرات ، وجمع تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً . وحصل له قرب من السلطان الناصر ، ووكله ببعض أموره ثم عمل ضده رافع بن عبادة وهو الذي قربه من السلطان ، فضربه بالمقارع . ثم عفا عنه ابن عبادة . وتقلب في الخدمة الديوانية ، وباشر نظر الجيش بطرابلس الشام وتولى نظر الديوان بالدقهلية والمرتاحية . وكان زكي الفطرة ، حسن الشكل ، وفيه مكرمة وأريحية وود لأصحابه ، وصام رمضان سنة وفاته . وحصل له أنه واظب على القرآن ، فكان كل يوم بعد العصر يستفتح قراءة القرآن إلى قريب المغرب . ثم حصل له وجع في أطراف يديه (أصابع يديه) وكان ذلك سبب وفاته . توفي

---

(١) لم نعثر على ذكر لأساتذة النويري المذكورين غير ابن جماعة ، وهو :
محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي ، قاضٍ من العلماء بالحديث وسائر علوم الدين ، ولد في حماة سنة ٦٣٩ وتوفي سنة ٧٣٣ هـ نفس سنة وفاة النويري . ولي قضاء مصر والشام إلى أن شاخ وعمي . من تصانيفه (المنهل الروي في الحديث النبوي) ، ورسالة في (الأسطرلاب) . انظر الأعلام للزركلي ٨٤١/٣ وفوات الوفيات ٣٥٣/٢ وحسن المحاضرة للسيوطي ١٩٤/١ والدرر الكامنة للعسقلاني ٢٨٠/٣ وشذرات الذهب للعماد الحنبلي ١٠٥/٦ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢٩٨/٩ ونكت الهميان والمستطرف من كل فن مستظرف .

في اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٣٣ هـ ، وله نظم يسير ونثر لابأس به ، وكان صاحبنا رحمه الله »[(١)] .

ذلك هو بيان الأدفوي عن النويري . وهو يرسم صورة وإن كانت مقتضبة لحياته الخاصة . فقد ذكر أنه منعوت بشهاب الدين النويري أما مولده فقد ذكر أنه « القوصي المولد والمنشأ » وهذا على سبيل التعميم ، فقد ولد بقرية من بني سويف اسمها (نويرة) وإليها ينتسب ، فهي في الواقع مولده ومنشؤه في أيام طفولته . وجميع المؤلفين ينسبونه إلى هذه القرية كما لاحظنا . وهذه القرية كانت تخضع إدارياً لمدينة (قوص) « وهي يومئذٍ من أعظم البيئات العلمية بالديار المصرية »[(٢)] .

إذن من هذه النتف اليسيرة التي تلقي ضوءاً خافتاً على حياة النويري نحاول أن نرسم له صورة ، وإن كانت مقتضبة ، ونبرز بعض المعالم من حياته الحافلة التي ظلت في الخفاء ، مستمدين في ذلك من الظن والتخمين حيناً ومن ربط الخيوط المتقطعة بعضها ببعض حيناً آخر ، عسى أن نوفق في تحويل هذا الهيكل المتفتت الأجزاء والمنتشر الأجزاء ، إلى جسد نابض بالحياة والنشاط .

مولده ومنشؤه

وهكذا فإن النويري ولد في قرية (النويرة) في ٢١ من ذي القعدة سنة ٦٧٧ الموافق لـ ٥ نيسان (أبريل) سنة ١٢٧٩ م ، وقضى فيها أيام طفولته ، وفي هذه القرية الهادئة الوادعة درس كعادة أطفال مصر في كتّاب القرية مبادئ اللغة ، وتعلم المسائل الدينية الضرورية ، ثم سافر استزادةً من العلم إلى

---

(١) الأدفوي ، الطالع السعيد حرف (اح) رقم ٥١

(٢) الدكتور عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ٢٠

(قوص) ، وهي يومئذٍ موئل الطلبة من الأريـاف المصريـة المجـاورة . وتربى في هذه القرية تربية علمية قويمة . فهي من أعظم مراكز العلم في تلك الأزمنـة ، لمن كان فيها من أساتذة وشيوخ وعلماء ، قد وقفوا أنفسهم على خدمـة العلم والطلبـة ، دون أن يرجوا منهم جزاءً أو شكوراً .

وفي هذه المدينة المصرية درس العلوم الدينيـة ، من القرآن الكريم والحـديث والفقه وغيره من العلوم الرائجة عصرئذٍ . وسمع الحديث ورواه عن شيوخ ومحدثين مختلفين ، منهم مـوسى بن علي بن أبي طـالب ، ويعقـوب بن أحمـد الصـابوني ، وأحمد الحجاز ، وزينب بنت منجى .

ولـما كانت كتب الأعـلام والترجمـة سـاكتـة عن ذكر جميـع أسـاتـذتـه في فن الحديث ، لكونهم معروفين محلياً محدثين عـاديين يـدرّسون الحـديث في المسـاجـد والجوامع لهذا الرهط من الطلبة ، وللمتـأدبين الـذين لا يجـدون إلى المـدن الكبرى مثل القـاهرة منفـذاً ، ولا يستطيعون إليهـا رحيلاً ، ونظراً لعـدم وضعهم الكتب والمؤلفات في هذا الفن . وبالنظر إلى أن عادة أصحاب التراجم كانت أن يتنـاولوا بالـذكر في كتبهم أولئـك العلمـاء الـذين كانوا إمـا أصحـاب مؤلفـات أو يشغلون مناصب إدارية أو قضائية ، أو امتازوا في الدوائر الحكومية بمزية خاصة أو منزلـة أو جاه ـ ويبدو أن أحـداً من أسـاتـذتـه لم يكن من هـذا الطراز من المحظوظين ـ لذلك كله لم نجد شيئاً في هذه الكتب عن شيوخه .

والغريب في الأمر أن تكون بين شيـوخـه المحـدثين محـدثـة تـدرس الحـديث للطلبة الذكور ، وهي زينب بنت منجى ، فيسمع منها صاحبنا النويري أيضاً . ولكن مع الأسف الشديد أهملها المترجمون أيضاً ، وكانت خليقـة أن تـذكر بكونهـا محدثة أنثى تروي الحديث وتدرّسه .

أما شيخه الأخير ، وهو قاضي القضاة ابن جماعـة ، فـإن المترجمين أفـاضوا في

ذكره ، لكونه رجلاً معروفاً ذائع الصيت في الأوساط الرسمية والدوائر الحكومية ، إذ كان يشغل منصب قاضٍ بمصر ، ثم بالشام ، وينتهي به المطاف بتقليده منصب قاضي القضاة بمصر أخيراً ، حيث شاخ وعمي . ولهذا السبب كان معروفاً بين الأوساط العلمية أيضاً ، فقد قال عنه محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي صاحب فوات الوفيات :

« حدث بالشاطبية عن ابن عبد الوارث صاحب الشاطبي ، وحدث بالكبير [ولعله بالكثير] وتفرد في وقته . وكان قوي المشاركة في الحديث والفقه والأصول والتفسير ، خطيباً تام الشكل ، ذا تعبد وأوراد وله تصانيف ... إلخ[1] .

ولما كان الرواة والمترجمون له على كثرتهم ساكتين عن سفره إلى قوص ، أو وجوده فيها ، ويذكرون تردده بين مصر والشام لتقلد منصب القضاء في هاتين المدينتين المصريتين الهامتين ، كان الغالب على الظن أن النويري إنما سمع الحديث عن ابن جماعة في مصر ، بعد الفراغ من دروسه في قوص على شيوخه المحليين هناك ، فهي قريبة من مولده ومن منشئه العلمي أيضاً . ومهما يكن من شيء فإن النويري تتلمذ على هذا الشيخ الجليل والمحدث الشهير والقاضي المعروف . فطبيعي إذن أن يكون قد تأثر به ونهل من هذا المنهل وشرب منه رياً . وبسبب أنه كان مطبوعاً على الأدب طبيعي أن يكون قد نال منه القسط الأوفر أيضاً ، إما بمحض مطالعته أو بتلمذته على أحد الأدباء في مدرسته الأولى بقوص ، أو في القاهرة أثناء تلمذته على قاضي القضاة ، رغم أن أصحاب الأعلام ممن ذكروه لا يلمحون إلى ذلك إطلاقاً . ولكننا لما نرى من حسن انتخابه ، وجودة اقتباسه في كتابه النهاية ، من الروائع الأدبية ، نثرية كانت أو شعرية ، ومن نبذه مهنة كتابة الرسائل الديوانية ، واشتغاله بمطالعة الكتب ، والأدبية منها بصفة خاصة ،

---

(١) محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ، فوات الوفيات ٣٥٣/٢

كما أشار في مقدمة النهاية ، نصل إلى نتيجة هي : أنه كان ملماً بمختلف الفنون الأدبية أيضاً إلماماً تاماً . وهكذا جمع النويري بين العلوم الدينية والأدبية ، وفاق أقرانه وامتاز بينهم بميزته هذه ، كما امتاز بينهم في مهنة الإنشاء ، وفي قربه من السلطان أثناء أداء أعماله بنظارة الجيش وديوان الإنشاء .

كان أبوه ضابطاً ببلاط السلطان الناصر قلاوون ، فطبيعي إذن أن تكون له علاقات ودية وثيقة مع أقرانه من الموظفين الآخرين ، وصلات طيبة مع الشخصيات البارزة المؤثرة في البلاط السلطاني ، ومنهم ابن عبادة الذي لم نعثر له على ذكر في كتب الأعلام والتراجم ، إلا أنه يبدو رجلاً مقرباً عند السلطان ، معتمداً لديه ، موثوقاً فيه عنده . فمنّ هذا الرجل على النويري بأن قربه من السلطان وشفع له عنده ، وأثنى عليه خيراً . فوكّله السلطان ببعض أموره . ويمضي النويري في أداء واجباته المفوضة إليه ، فترة من الزمن ، فيترافع على ابن عبادة هذا ، على حد تعبير جعفر الأدفوي ، فيحدث بينه وبين المحسن إليه ومساعده ابن عبادة ، خلاف يؤدي إلى شجار فيما يبدو ، ويتضخم هذا الخلاف والشجار ويتفاقم ، حتى يضربه ابن عبادة بالسياط . وصاحبنا النويري لا يجد له من دافع ولا مؤازر ، فيحتمل هذا الذل والهوان خاضعاً للأقدار ، وما يأتي به الدهر من متاعب ومصاعب ، دون أن يئن أو يثور . فهي الظروف والأوضاع ، والمرء رهن إرادتها تصرفه كيف تشاء . وما هي إلا فترة من الزمن قصيرة ، حتى يبدو أن الخلافات القائمة بينهما انتهت ، فيعفو عنه ابن عبادة زلته وتعود المياه إلى مجراها الطبيعي فيما يتعلق بعلاقة الرجلين ، فيترقى النويري بعد ذلك ـ ومن كان يدري أن ابن عبادة ، الذي أذاقه من الذل والهوان ما أذاقه ، يجازيه خيراً ، ويبدل سوء صنيعه حسن صنيعة ـ ومهما يكن من شيء ، فإن النويري يترقى وينخرط في خدمة الديوان ، ومن هنا يظل نجمه في صعود . فيتقلب في هذه الخدمة فترة ، إلى ان تفوض إليه نظارة الجيش بطرابلس الشام ، وهو منصب كان

يعد محترماً وعلى جانب كبير من الأهمية والخطورة . فيبدي صاحبنا في هذا المنصب من الجدارة والصلاحية قدراً كبيراً ، ويمتاز بأداء واجباته والقيام بمسؤولياته خير قيام ، فيعجب به السلطان ، ويجعله موضع ثقة واعتماد منه ، قريباً لديه . وما هي إلا فترة قصيرة حتى نراه يعيّنه في نظارة مدينتين مصريتين كبيرتين هما مدينتا الدقهلية والمرتاحية .

وباشر النويري هذا المنصب ما شاء الله له أن يباشره . وقد سكت المترجمون له ، بعد ذكرهم لاعتلائه هذا المنصب ، عن تزويدنا بمعلومات عن المهام والخدمات أو الأعمال التي باشرها النويري بعد نظارة هاتين المدينتين . وقد حاولنا كثيراً أن نعثر على خبر ، في أي مرجع من المراجع المتوفرة لدينا ، يلقي الضوء على مدة ممارسته لهذا المنصب أو تقليده مهام أخرى ، سواء في الدوائر الرسمية أو غيرها ، ولكن دون جدوى فذهبت جهودنا أدراج الرياح . ويبدو لنا أن النويري أثناء أداء مهامه في نظارة الجيش ، ضاق ذرعاً بهذا العمل الذي يتطلب من المرء جهوداً مضنية ويحمله مسؤوليات جساماً ، دون أن ينال جزاء موفوراً ، أو كلمة شكر وتقدير ، أو يجد في العمل متعة ولذة . وفوق هذا وذاك يجعل المرء عرضةً للاستجواب والاستصواب ، إذا أخطأ ، وغرضاً للإهانة والذلة إذا ما وقع خلاف بين الرئيس والمرؤوس وقد ذاق الرجل مرارة هذا الخلاف الناشب بينه وبين ابن عبادة السالف الذكر ، وأدى ثمنه باهظاً من عزة نفسه وكرامة ذاته ومنزلته الشخصية وقد علمنا أن صاحبنا كان بطبعه ميالاً إلى الأدب والشعر ، محباً للعلم والفن . فقد كانت ثقافته كما هو معلوم ، ثقافة دينية علمية أدبية وأين لمثل هذا المثقف أن يذيب نفسه في طيات السجلات الرسمية ، ويتيه في الملفات الحكومية فليس من الغريب أن تعافها نفسه الطموح ، ويشمئز منها طبعه الهادئ الرزين ويستوحشها . وذلك هو السبب في أن نسمعه يقول في مقدمة الكتاب :

« ثم نبذتها وراء ظهري وعزمت على تركها في سري دون جهري » .

عزم صاحبنا على ترك المهام الحكومية في سره ، ولم يجرؤ أن يجاهر بعزمه هذا علناً ، لأنه كان يتوجس خيفةً من غضب السلطان ، إذا وشى به عنده أحد أذنابه أو رجال حاشيته من الذين تعج صدورهم حقداً عليه ، بما نال من حظوة لدى السلطان ، ومنزلة عالية في الجهاز الحكومي فيذوق وبال أمره . ومع هذا لم يكن ليرضى عن مداومة هذا العمل فكيف السبيل إلى الخلاص منه ، والخروج من هذا المأزق ؟

هنالك يلتجئ الرجل إلى ذلك الملجأ الأبدي الأزلي الوحيد ، الذي يجيب الداعي المضطر إذا دعاه ، ويحيطه برحمته ، ويشمله بنعمه وألطافه . ألا وهو الله سبحانه وتعالى . فيلتجئ صاحبنا إلى مولاه ، ويسأله بديلاً من هذا العمل المل فقد قال : [٣/١]

« وسألت الله تعالى الغنية عنها »

يسأل الغنية عن هذا العمل ، الذي كان يدر عليه أموالاً تكفل حاجاته وتضمن العيشة الكريمة له ولأسرته (إن كانت له أسرة ، فقد سكت عنها المترجمون له) فيهيئ الله تعالى الغنية له ، في عمل اختاره بسبب ثقافته السابقة من تعلم العلوم الدينية ، وتضلعه في علم الحديث فيعمد إلى صحيح البخاري ، فيكتبه بخطه المنسوب إليه . فكتبه ثماني مرات ، وباع كل نسخة منه بألف درهم[١] .

وهكذا استغنى عن العمل الحكومي بهذا العمل العلمي والديني معاً . فقد قال : « تضرعت إليه فيما هو خير منها » . وظل الرجل يمارس هذه المهنة « مهنة

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٣٩٩/٩

الوراقة » التي كانت تعرف بهذا الاسم في ذلك الزمان ، فيقتات منها ويجد فيها لذة العمل ، وينعم براحة البال وطمأنينة النفس والضمير ولكن إلى متى ؟ فقد كانت نفسه تتوق إلى شيء آخر ، إلى شيء يملأ فراغ قلبه مع فراغ جيبه ، مع انسجامه مع نفسه وذوقه ، وتوافقه مع ميله وهدفه . فرغب إلى صناعة الأدب وانخرط فيها ، وطالع فيه ما طاب له أن يطالع ويقرأ ويجمع ويستوعب . ليستأنس به ويروي ظمأه منه ، إلى أن تبادرت إلى ذهنه فكرة جمع نتائج مطالعته وبحثه في المراجع والمصادر والكتب ، في سجل ، ليكون له مرجعاً ، ثم ذكراً وجمعاً لأشتات الفنون والعلوم التي جادت بها المعرفة والثقافة إلى عصره ، والتي كادت تنقرض وتفنى على يد الحدثان في الأوضاع والظروف التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي عصر ذاك . فلما اجتمع لديه من مختاراته ومنتخباته قدر معلوم ، وخاصة العلوم والفنون التي تميل إليها النفوس وتشتمل عليها الخواطر ، ترنحت في ذهنه فكرة وضع كتاب مبسوط يحوي جميع مختاراته . « فذل له مركبها وصفا له مشربها » . فعمد إلى تنسيقها وتنقيحها وتهذيبها ثم تبويبها وتوزيعها في فنون وأقسام وفصول وذيول ، ثم دونها في سجل حافل شامل لتظهر على منصة الشهود ، هذه الأسفار الضخام التي نعرفها اليوم بـ (نهاية الأرب في فنون الأدب) .

تنحيه عن الخدمة :

ولسنا نعرف بالضبط متى تنحى النويري عن الخدمة الحكومية ، لأن المترجمين له ، أهملوا ، مع الأسف الشديد ، ذكر نقطة التحول هذه من حياته أيضاً ، كدأبهم في النقاط الأخرى منها . هذه النقطة الهامة من حياته التي غيرت مجرى حياته أي تغير ، فجعلت منه كاتب ديوان وناظر جيش ومدن ، مؤلفاً شهيراً ، وموسوعياً من أعظم موسوعيّي عصره ، يشار إليه بالبنان ، وتذكره الأجيال على مر الدهور والأزمان ، لما أودع كتابه هذا من عصارة العلوم والفنون

وخلاصة الحكمة والمعرفة ، التي قضت الإنسانية في إبداعها وتفانت نفوس الأفذاذ ، وكلت أذهان العباقرة في تطويرها وإنعاشها إلى قرون وأجيال .

وتدل القرائن أنه اعتزل الخدمة الحكومية في سنة ٧١٥ ، وعمره إذ ذاك ٣٨ سنة . واشتغل بنسخ البخاري ونقله ثماني مرات بعد هذه الفترة ، مع مزاولته للدراسة والمطالعة . وهنا نفترض أنه كان ينقل النسخة الواحدة في ستة شهور ، وأنه أكمل كتابة ثماني النسخ في أربع سنوات أي عندما بلغ من العمر ٤٢ سنة ، وأنه اشتغل في المطالعة العامة لمختلف العلوم والفنون وجمع الكتب المتداولة فيها ، استعداداً لتأليف النهاية سنتين اثنتين . ثم فرغ من المطالعة وعمره ٤٤ سنة ، ثم بدأ بتأليف النهاية في شهر جمادى الثانية سنة ٧٢١ . واختتم الجزء الأول منه في ٢٠ ذي القعدة سنة ٧٢١ ، أي في بحر ستة أشهر . فقد قال في اختتام الجزء :

« نجز في السفر الأول من كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي عرف بالنويري عفا الله عنه ، ووافق الفراغ من كتابته في يوم السبت المبارك لعشر بقيْن من ذي القعدة عام إحدى وعشرين وسبع مئة أحسن الله تقضيه وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى . يتلوه إن شاء الله تعالى في أول السفر الثاني (الفن الثاني في الإنسان وما يتعلق به) والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم آمين وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ثم باشر مهمة التأليف بسرعة أكثر من الجزء الأول لينتهي من تأليف الأجزاء الثلاثين كلها في بحر ١٢ سنة ، أي بكتابة جزئين ونصف جزء في السنة الواحدة تقريباً .

ويبدو لي أنه استمر في تأليف نهاية الأرب إلى نهاية شهر شعبان سنة ٧٣٣ ، حين أكمل الجزء الثلاثين . ثم يدخل شهر رمضان من عام ٧٣٣ ، فنرى أن برنامجه

يتغير شيئاً . فقد كان يصوم ويتلو القرآن الكريم بعد العصر ويستمر فيه إلى قبيل المغرب ، ثم يستعد للإفطار . فقد قال الأدفوي :

وصام رمضان سنة وفاته . وحصل له أنه واظب على القراءة ، فكان كل يوم بعد العصر يستفتح قراءة القرآن إلى قريب المغرب . ثم حصل له وجع في أطراف أصابع يديه وكان (ذلك) سبب وفاته . توفي يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٣٣ هـ[١] .

كذا كانت الحياة الحافلة لهذه الشخصية الفذة الخالدة من تاريخنا في القرون الوسطى ، الشخصية التي ظلت سابرة لأغوار خضم الحياة ، تنافس وتجاهد وتقاوم أمواجه العاتية الجارفة ، حتى بلغت النهاية ، نهايةً محمودة مباركة ، في شهر مبارك محمود ، في أقدس لياليه ، ليالي القدر . رحمه الله رحمات واسعة .

ومن غريب المصادفات أن اليوم الحادي والعشرين من الشهر ، كان له أثر هام في حياة النويري ، وكان نقطة تحول فيها . فقد ولد في ٢١ ذي القعدة عام ٦٧٧ ، وأنجز الجزء الأول من كتابه النهاية في ٢١ من ذي القعدة سنة ٧٢١ ، ووافته المنية في ٢١ من شهر رمضان المبارك عام ٧٣٣ هـ .

علمه وفضله :

نعته بعض مترجميه بأنه « كان فقيهاً فاضلاً ومؤرخاً بارعاً له مشاركة جيدة في علوم كثيرة »[١] ولا غرو فقد درس العلوم الدينية على أكبر علماء عصره ، قاضي القضاة ابن جماعة ، فريد عصره ، ووحيد زمانه كما وصفه مترجموه . وإن من يرجع إلى كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، وخاصة الأبواب التي تتعلق بالعلوم الدينية ، ليبلغ النتيجة حتماً ، وهي أن الرجل كان في الواقع من

---

(١) الأدفوي ، الطالع السعيد ص ٤٦

أكبر فقهاء عصره وأبلغهم نظراً في القرآن والحديث . فهو يبدأ كل فن وكل باب من أبواب كتابه بآيات من القرآن الكريم ، ثم يأتي بالأحاديث النبوية الشريفة ، ثم بأقوال الخلفاء الراشدين والعلماء والفضلاء وهكذا مما يلائم الفنون والأبواب وهي كثيرة (وقد عددناها في باب تعريف الكتاب وتلخيصه) ، ومتنوعة يباين بعضها بعضاً . ومع ذلك نجح في الاحتجاج بالمنقولات ، مما يدل على سعة نظره في علوم القرآن والحديث ومعرفته بموضوعاتها ، وبنعتها الأشياء والأمور ، وبالأحكام المتصلة بها ، في مواضيع معينة . ولم نر إلى عصره علماء وفضلاء أتوا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية على هذه الصورة في موضوعات معينة ، مستدلين بها في كتبهم . وذلك دليل على أن النويري فاق أقرانه ومعاصريه ، في بلوغ النظر ووفرة علمه في القرآن والحديث ، بل في أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .

لقد نقل النويري من عشرات الكتب الهامة في مختلف العلوم والفنون مقتبسات في مختلف الأبواب من كتابه . وكذلك لخص واختصر منها عدداً ملموساً (وقد أثبتنا قائمة بأسماء هذه الكتب في نهاية باب منهج النويري) وكل ذلك في حسن اختيار وفق خطته المنسقة . ولن يتأتى هذا لرجل ما لم يكن واسع الاطلاع في كل هذه الفنون ، ليتمكن من اختيار الحسن الجيد من الغث والسمين ، وما أكثره في كتب القدماء ، ومن هنا يتجلى أن النويري لم يكن ملماً بالعلوم والفنون الرائجة في عصره فحسب ، بل كان يمتاز ببلوغ النظر فيها وسبر غورها والتعمق فيها أيضاً ، بوصفه فاحصاً ومدققاً ومميزاً خبيراً .

تبحر النويري في العلوم والفنون

ولسنا بقائلين ما أسلفناه من كلمتنا ، وما أبديناه من رأي حول تبحر النويري في مختلف العلوم والفنون ، جزافاً ، دون دليل وبرهان عليه . وإنما

اتخذنا رأينا هذا ، لما وجدنا من أمثلة وأدلة على ميزته هذه بين طيات كتابه النهاية ، الذي هو المرجع والمحك الوحيد لاختبار الرجل علمياً وفنياً .

وخير مثال لسعة نظره وتبحره في شعر العرب من حيث الاستدلال به لغوياً في مواضع الاستشهاد ، نقله لشعر من محفوظه ، استدلالاً على كون لفظ « الإنسان » مشتقاً من كلمة « الأنس » الأمر الذي أعيا عالماً كبيراً ولغوياً ماهراً ، مثل ابن الشجري ، أن ينقله ويستشهد به تدعيماً لمذهبه في مسألة اشتقاق هذه الكلمة من كلمة (الأنس) .

فلقد وقع الخلاف بين علماء اللغة حول أشتقاق كلمة (الإنسان) هل هو من (الأنس) الذي هو نقيض الوحشة ، أو (النوس) الذي هو نقيض السكون ، أو (الإيناس) الذي بمعنى الإبصار ، أو (النسيان) الذي هو نقيض الذكر ؟

قال ابن الشجري في أماليه شارحاً قول أعشى تغلب :

وكانوا أناساً ينفحون فأصبحوا وأكثر ما يعطونك النظر الشزرا

« قوله « وكانوا أناساً ينفحون » وزن أُناس فُعال و (ناس) منقوص منه عند أكثر النحويين . فوزنه عال . والنقص والإتمام فيه متساويان في كثرة الاستعمال مادام منكوراً . فإذ أدخلت عليه الألف واللام التزموا فيه الحذف فقالوا (الناس) ولا يكادون يقولون (الأناس) إلا في الشعر كقوله :

إن المنايا يطلعـ ـن على (الأناس) الآمنينا

وحجة هذا المذهب وقوع الأنس على الناس . فاشتقاقه من الأنس نقيض الوحشة ، لأن بعضهم يأنس إلى بعض »[1] .

---

(١) ابن الشجري ، أماليه ، المجلس التاسع عشر وهو يوم السبت سابع عشر رجب سنة ٥٢٤ هـ .

أنهى ابن الشجري كلامه ها هنا ، ولم يدل بشاهد على كون كلمة (الإنسان) مشتقة من (الأنس) .

وهنالك تقدم النويري ببالغ نظره وأتى بشعر استشهاداً لهذا الرأي وتدعيماً له فقال : « وبه (أي الأنس) أخذ بعض الشعراء في قوله :

وما سمي الإنسان إلا (لأنسه) ولا القلب إلا لأنه يتقلب . ورغم أن النويري دعم قول ابن الشجري بذكر هذا الشعر استشهاداً لمذهبه فإنه رجح قول ابن عباس في هذا الموضوع ، الذي كان يرى أن كلمة « الإنسان » إنما هي مشتقة من كلمة (النسيان) وهو مذهب الكوفيين أيضاً . قال ابن عباس : « إنما سمي الإنسان إنساناً لأنه عهد إليه فنسي » فقال النويري : « وهذا هو الأرجح » .

إلا أننا نعتقد بأن كلمة (الإنسان) مشتقة بلا شك من كلمة (الأنس) الذي هو نقيض الوحشة . وذلك أن الإنسان ، حيوان اجتماعي ، لا تطيب له السكنى والحياة في انفراد وعزلة تامة ، ولا يتمكن من مزاولة الحياة فعلاً ما لم يعقد روابط أنس ومحاباة مع أبناء جنسه من الناس . ولن يتأتى عقد الروابط ما لم يأنس بعض ببعضٍ أولاً ، فإن تم هذا الأنس الابتدائي ، أدى فيما بعد إلى اجتماع بعضهم إلى بعض في أمور تعن لهم ، ومشاركة بعضهم في شؤون بعض ، ليتولد من هذا الاجتماع ، المجتمع الذي هو قوام الحياة الإنسانية في الأرض .

وكذا فإن بروز المجتمع الإنساني على أديم الأرض ، إنما تحقق بفضل هذا الأنس الذي أدى فيما بعد إلى عقد الروابط الاجتماعية في الشؤون والأمور المشتركة بين أبناء الجنس البشري ، والذي أدى بدوره أخيراً إلى قيام (المجتمع) المعروف في هذا الوقت . ولذلك فإن كلمة (الإنسان) مشتقة من (الأنس) لا من كلمة (النسيان) التي ينسبونها إلى أبينا آدم ، الذي سها ونسي ، فسمي (الإنسان) منه (إنساناً) .

هذا فيا يتعلق بنبوغ النويري في المسائل اللغوية والاستشهاد فيها بكلام العرب . مما يدل على تضلعه ليس في العلوم اللغوية فحسب ، بل في الشعر والأدب أيضاً .

وهاك مثالاً لتكميل خبر تاريخي ، وإنجاز وصف مقتضب لأحد الأبنية وسرد تاريخه إلى زمنه :

روى المسعودي في كتابه (مروج الذهب) أن منارة الإسكندرية كانت في وسط المدينة . وطولها في هذا الوقت (وأضاف النويري بين قوسين هذه العبارة : يعني الوقت الذي وضع فيه كتابه مروج الذهب وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة) مئتان وثلاثون ذراعاً ، وكان طولها قديماً نحواً من أربع مئة ذراع .

فأضاف النويري العبارة الآتية من عنده :

« ويقال إن أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من الخشب فهدمتها الرياح . فبنى في مكانها مسجداً في الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى . ثم هدم في ذي الحجة سنة اثنتين وسبع مئة بسبب الزلزلة الحادثة . ثم بني في شهور سنة ثلاث وسبع مئة في دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور ، ثبت الله دولته ، وكان المندوب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري نائب السلطنة الشريفة في الغيبة »[(١)] .

فقد رأينا أن النويري لم يحدد الوقت الذي ورد في بيان المسعودي (كان كذا في سنة كذا) فحسب ، بل زاد عليه ، فوصف ما بني على قبة منارة الإسكندرية هذه ، وهو مسجد ، وكيف تهدم ، ثم أعيد بناؤه في زمن السلطان

(١) نهاية ٣٩٧/١

ناصر . وفي ذلك دليل على بلوغ نظره وسليقته في سرد الأخبار وتكميل الأطراف الناقصة منها .

كان ثقات المؤرخين وأصحاب التراجم والسير ، يدونون الوقائع التاريخية على حسب السنين ، وفي هذا ما فيه من صعوبة تقصي الأخبار ، وتتبع الأحداث ، بسبب تداخل الوقائع والأحداث فيما بينها ، وقد لاحظ النويري هذا النقص فبادر إلى تصحيح الوضع ، وذلك عندما جعل الفنّ الخامس من كتابه للتاريخ . فكتب مشيراً إلى هذا النقص الذي لاحظه في كتب القدماء . ثم اتخذه نهجاً جديداً ، سهل المتناول يسير العمل كثير النفع والفائدة .

قال : « ولما رأيت غالب من أرخ في الملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومساقها ، لا الدول واتساقها ، علمت أن ذلك ربما قطع على المطالع لذة واقعة استحلاها ، وقضية استجلاها فانقضت أخبار السنة ، ولا استوعب تكملة فصولها ، ولا انتهى إلى جملتها وتفصيلها ، وانتقل المؤرخ بدخول السنة التي تليها ، من تلك الوقائع وأخبارها ، والممالك وآثارها ، والدولة وسيرها ، والحالة وخبرها ، فتنقل من الشرق إلى الغرب ، وعدل عن السلم إلى الحرب ، وعطف من الجنوب إلى الشمال ، وتحول من البكَر إلى الآصال ، وقد تجول به خيل الاستطراد فيبعد ، وتحول بين مقصده وبينه السنون فيغور تارة وتارة ينجد ، فلا يرجع المطالع إلى ما كان قد أهمه إلا بعد مشقة ، وقد يعدل عنه إذا طالت المسافة وبعدت عليه الشقة » [٢/١٣] .

هكذا كان الوضع عند القدماء ، فبادر النويري إلى اتخاذ نهج أسهل وأنفع . فما هو نهجه ؟ فلنسمع منه يقول :

« فاخترت أن أقيم التاريخ دولاً ، ولا أبغي عن دولة إذا شرعت فيها

حِوَلاً ، حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها ، وأذكر جملاً من وقائعها ومآثرها ، وسياقة أخبار ملوكها ونظم عقود سلوكها ، ومقر ممالكها وتشعب مسالكها .

فإذا انقضت مدتها ، وانقرضت عدتها ، وانتقلت من العين إلى الأثر ، ومن العيان إلى الخبر ، رجعت إلى غيرها فقفوت أثرها ، وشرحت خبرها وبينت خبرها ، وذكرت أسبابها وسردت أنسابها ، وبدأت بأصلها ، وتفوهت بأخبار من نبغ من أهلها ، واستقصيتها دولة بعد دولة ، وجالت بي خيول المطالعة جولة ناهيك بها من جولة ، ورغبت مع ذلك في الاختصار دون الاقتصار ، وأوردت مايحتاج إلى إيراده من غير تكرار ولا إكثار » .

ولكنْ إن وقعت حادثة بين ملكين ظهر فيها أحدهما على الآخر ، فكيف يعالجها النويري في كتابه ؟

لقد كتب شارحاً نهجه في مثل هذه الوقائع قائلاً :

« فإن عرضت واقعة كانت بين ملكين كان وقتها واحداً وكان الدهر لأحدهما على الآخر مساعداً ، شرحتها بجملتها في أخبار الظافر منهما ، وأحلت في أخبار المغلوب عليها واكتفيت بإيرادها في أحد الموضعين ولم أعرج في الآخر إلا بالإشارة إليها » [٢/١٣] .

من هنا نلاحظ أن النويري بلغ من دقة النظر أنه فطن إلى صعوبة تسجيل الوقائع التاريخية بحسب السنين ، وإلى ما فيها من خلط الأبحاث على القارئ ، فقوّم الوضع ، واختار طريقة تدوين التاريخ بحسب الحكومات والدول . وتلك مزية لم نألفها عند أقرانه على الأقل .

كان النويري قد بلغ من العلم والفضل درجة لم يكن يعتقد معها بالخرافات والأوهام . فهو يحاول إبطالها والرد عليها أنى تسنى له ذلك . ولنأت له بمثال واحد فقط خيفة التطويل :

ذكر جمال الدين الوطواط في كتابه (مباهج الفكر ومناهج العبر) سبع مدائن بأرض بابل ، في كل مدينة منها أعجوبة نادرة . فقال مواصلاً حديثه عن هذه العجائب :

« وفي السابعة (أي المدينة السابعة) شجرة لا تظل إلا ساقها فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف ، فإن زاد على الألف واحد قعدوا كلهم في الشمس » .

فعقب النويري على هذا الاقتباس بقوله :

« وقد كنت أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها ، فرأيت ابن الجوزي وضعها في كتابه الذي سماه سلوة الأحزان فأوردتها » [٣٩٩/١] .

أراد النويري أن يطرح هذه الحكاية جانباً لما فيها من ندرة واستحالة ولكنه نقلها احتراماً لابن الجوزي معتمداً عليه ، كما رأيناه يذكر ذلك آنفاً . وكان أحرى به أن يرفض قبول هذه الحكاية ، ولو نقلها ابن الجوزي ؛ لأنها لا توافق العقل ولا تساير النقل (لا تثبت جدارتها على المحك) . ولكنه لم يفعل هذا ، بل اعتمد على من يعده أفضل منه وأكثر منه علماً ومعرفة ، فتنازل عن رأيه في حقه . وذلك دأب القدماء من الكتاب والمؤلفين .

لم يكن النويري ملماً بالأسامي والكنى العربية الصحيحة فحسب ، بل بلغت به دقة النظر والمعرفة التامة للأسامي الأجنبية أيضاً درجة تمكن بها من تصحيح اسم الفيلسوف اليوناني الشهير ، الذي أخطأ في كتابته ابن الجوزي ، فذكره النويري صحيحاً كما هو معروف ، فقال (ديو جانس) [٣٥٣/١] .

أما علو كعبه في معرفة طبقات الشعراء فيتجلى من تقسيمهم إلى طبقاتهم المعينة في كتب الأعلام والتراجم . وذلك في الجزء الثالث من كتابه النهاية حيث ذكر أشعارهم بحسب الطبقات ، على خلاف أبي هلال العسكري الذي نقل منه

النويري الأشعار المنقولة في كتابه . فقد أورد العسكري الأشعار في كتابه دون ترتيب وتنسيق . ولكن النويري وزع الشعراء المذكورين في طبقاتهم الخاصة .

وكذلك تتجلى معرفته التامة بالشعراء وطبقاتهم ، في مخالفته النقاد وأصحاب التاريخ ، في ذكر لبيد بن أبي ربيعة بين شعراء الجاهلية ، فقد عده النويري بين الشعراء المخضرمين ، بحجة أنه أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم أسلم أيضاً . وهذا الرهط من الشعراء يوصف بالمخضرمين . فلم يقبل النويري حجة النقاد وأصحاب الأعلام في عده من الجاهليين ، وهي عدم قوله الشعر بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً . بل هو يتمسك بالتعريف الذي يوزع الشعراء بموجبه في طبقات مختلفة . ولذلك لم يذكر لبيداً بين الجاهليين بل ذكره بين المخضرمين على خلاف العادة الجارية .

وخير دليل على معرفة النويري التامة للشعراء وطبقاتهم ، إضافة كلام أحد عشر شاعراً ، زيادة على ماأورد الثعالبي في كتابه المنتحل عند التمثيل بالأشعار . وقد نقلها النويري في الجزء الثالث من كتابه .

تلك أمثلة أثبتناها بالاختصار مخافة التطويل ، لنستدل على أن النويري لم يكن ناقلاً محضاً ، بل كان من العلم والمعرفة والإحاطة بالفنون ، على درجة عالية ، وربما لا نجد له مثيلاً بين أقرانه من المنشئين والمؤلفين ، في هذا العصر الذي كان يمر بانحطاط في جميع نواحي العلم والفن .

الفرق بين النويري والمؤلفين الآخرين من سلفه وخلفه

كانت العادة الجارية بين المؤلفين والمنشئين قبل النويري وبعده أيضاً ، أن ينقلوا الموضوعات والمواد من الكتب الأخرى ، ويجمعوا العينات في مؤلفاتهم من المؤلفين والكتّاب ممن هم قبلهم . وقد فعل ذلك قبل النويري ، ابن منظور في كتابه المعجم الشهير لسان العرب ، ولكنه اقتصر في النقل والاختصار على خمسة

كتب ، وهي : التهذيب للأزهري ، والصحاح للجوهري ، والمحكم لابن سيده ، وحواشي ابن بري على صحاح الجوهري ، والنهاية لابن كثير في غريب الحديث .

اقتصر ابن منظور على الكلام في اللغة من ناحية المبدأ ، واقتصر فيه أيضاً على هذه الكتب الخمسة . أما ماجاء فيه من الأخبار والقصص والنوادر والكلام حول الشعر والشعراء والنحو والبلاغة والعلوم الأخرى ، فإنها لم ترد فيه على أنها غرض أصلي ، بل غرض جانبي - إذا جاز هذا التعبير - وفي سياق الكلام ، أو شاهداً لمنقول أو دليلاً على دعوى أو قول مأثور . فإن موضوع كتاب لسان العرب هو اللغة ، وليس الإحاطة بجميع العلوم والفنون .

وهذا أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني الشهير ، فكلنا يعلم أنه جمع في كتابه هذا ، إلى جانب الأغاني والأصوات وطريقة الإيقاع والضرب لها ، علوماً كثيرة وفنوناً شتى ، ولكن الدعامة لهذا المؤلف والأساس لهذا الكتاب هو (الأغاني العربية قديمها وحديثها) ... أما ماجاء فيه من أخبار وقصص وحكايات ونوادر فقد جاءت كلها في سياق الكلام وليست غرضاً أصلياً . بل هي كجملة معترضة ضمن حديث مسلسل مترابط . وقد جاء في التوطئة لكتاب الأغاني :

« هذا كتاب ألفه علي بن الحسين بن محمد القرشي ، الكاتب المعروف بالأصفهاني ، وجمع فيه ماحضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية (قديمها وحديثها) . ونسب كل ماذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه وطريقته من إيقاعه ... واعتمد في هذا الباب على ما وجد لشاعر أو مغنية ، أو السبب الذي من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبراً يستفاد ، ويحسن بذكره ذكر الصوت معه ، على أقصر ما أمكنه ، وأبعده من الحشو ، والتكثير بما تقل الفائدة فيه » .

ونلاحظ من قوله السابق الذكر ، أن الأخبار والروايات التي أوردها

الأغاني لم تكن مقصودة لذاتها ، وإنما جاءت ضمن الشعر أو الصوت أو اللحن شارحة للأسباب والدواعي التي قيلت من أجلها أو وضع اللحن أو اخترع الصوت . وذلك أيضاً على « أقصر ماأمكن ، وأبعده من الحشو والتكثير » . وكلنا يعلم أن الأغاني ممتلئ بمثل هذا الحشو والتكثير ، « وفيه ما لا يثبت على المحك والنقد ، تاريخياً أو أدبياً »[1] .

وأعقب النويري عدد من الموسوعيين وأصحاب الأسفار الضخمة مثل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحي بن فضل الله العمري صاحب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) . وهذا الكتاب أصلاً موسوعة جغرافية حافلة أتت في ٤٥ مجلدةً ضخمة .

الموازنة بين النهاية والموسوعات الأخرى

تناول العمري في موسوعته « وصف مقدار الأرض ، وهيئتها ، وذكر الأقاليم السبعة ، والبحار ، وما يتعلق بها ، وذكر الطرق وذكر القبلة وكيف يستدل عليها ... إلخ . وذلك في القسم الأول من الكتاب .

أما القسم الثاني منه فيحتوي على مختلف الأبواب والأقسام . منها باب في المقارنة بين الشرق والغرب ، وباب في الديانات ، وباب في طوائف المتدينين ، وباب في التاريخ ، يشمل أخبار الدول التي كانت موجودة قبل الإسلام ثم الدول الموجودة في عصره فعلاً .

وهكذا فإن كتاب (المسالك) إنما هو كتاب جغرافية وتاريخ أصلاً .

---

(١) راجع مقالات عبد الستار فراج (حول المعاجم) المنشورة في مجلة العربي الكويتية عدد ١٣١ تشرين الأول ١٩٦٩ وعدد ١٤٠ تموز ١٩٧٠

راجع للأغاني كتاب (منهج أبي الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني) للدكتور داود سلوم وكتاب (دراسة الأغاني) لشفيق جبري .

ولكن المؤلف أدخل فيه موضوعات ومواد أخرى أيضاً ، على عادة مؤلفي ذلك العصر ؛ فقد كانوا يمزجون العلم بالأدب . وهو من هذه الناحية صورة دقيقة للنويري ، وإن كانت موسوعة هذا الأخير أشمل وأكمل وأكثر إلماماً بالمعارف الإنسانية المعروفة في زمانه »[1] .

فقد لاحظنا أن ابن فضل الله العمري سلك المسلك الذي سلكه النويري في موسوعته ، ولكنه حاز قصب السبق على العمري بكون كتابه « أشمل وأكمل وأكثر إلماماً بالمعارف الإنسانية المعروفة في زمانه » على حد تعبير الدكتور حمزة .

ومن هنا يتجلى أن النويري وإن كان سابقاً للعمري ، وكان بوسع هذا الأخير أن يفوق سلفه في وضع موسوعته من ناحية المحتوى ، لم يبلغ شأوه ، ولم ينجح في اقتفاء أثره بالدقة ، لما يتطلب ذلك من سعة المطالعة والعلم بأمهات الكتب في مختلف العلوم والفنون ، والمراجع الهامة المتوفرة في ذلك العصر . وذلك مطلب عسير المنال وغرض متعذر التحقيق . ثم إن الأخبار التي أوردها العمري إنما جاءت في سياق الكلام ، كعمل أسلافه من المؤلفين . فموضوع كتاب العمري هو الجغرافية أولاً ، والتاريخ بعده . وضمن هذين الفنين « وردت الأخبار والعجائب والغرائب » على حد تعبير العمري نفسه في مقدمته .

وممن خلف النويري القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . وهو أيضاً موسوعة كبيرة ، موضوعها صناعة الإنشاء وكتابة الرسائل الديوانية . إلا أنها عرضت لبعض العلوم الأخرى أيضاً ، مثل الجغرافية والتاريخ (وخاصة تاريخ مصر) والأنساب والأدب .

ويضم الكتاب عشر مقالات وينتهي بخاتمة . وتشمل هذه المقالات والأقسام

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ٢٦

أربعة عشر جزءاً . وقد تم طبع الكتاب من جانب دار الكتب المصرية فعلاً في مطلع هذا القرن .

وبمحض إلقاء نظرة عاجلة على الكتاب ، يتجلى للناظر أن الكتاب يختص بصناعة الإنشاء . أما ماورد فيه من الأخبار ، فهي من الأحاديث المتداخلة في سياق الكلام ، على نحو ما نجده في كتب القدماء السابقين . إلا أن القلقشندي ينفرد بين الكتّاب بأنه نقل من كتب كثيرة ، يبلغ تعدادها أربعة وثلاثين كتاباً استقى منها معلوماته . وقد ذكرها عند النقل والاقتباس منها . إلا أن الكتب التي نقل منها النويري تبلغ عشرات وعشرات الكتب ، وتفوق كثيراً الكتب التي نقل منها القلقشندي . هذا وقد وضعنا فهرساً للكتب التي نقل منها النويري في نهاية باب (منهج النويري) .

ثم إنّ هناك فرقاً بين منقولات القلقشندي والنويري . فالأول لم يأت بهذه العلوم كما هي ولذاتها ، بل أتى بها تفكُّهاً أو استدلالاً أو شاهداً على بيان له أو مقالة أوردها في كتابه .

أما النويري فإنه أتى بهذه العلوم والفنون كعلوم وفنون في حد ذاتها ، مع فارق هو أنه اقتبس منها تلك التي تميل إليها النفوس وتقبل عليها الخواطر . ولم يتعمد أحد من المؤلفين نقلها والاقتباس منها بوصفها غرضاً منشوداً ومرمى مطلوباً .

وليس من الصعب على المرء أن يقدر الجهد والعلم الواسع الضروري لاختيار الأحسن والأنسب من هذه العلوم والفنون . ولكن النويري نجح في ذلك أي نجاح ، وذلك يدل على غزارة علمه وسعة مطالعته وقدرته على الاختيار والانتخاب ، وتلك مزية لم تقدّر لسلفه من الموسوعيين ولا لخلفه منهم .

ثم إن المنهج المستقيم والخطة المنسقة المنظمة لهذا الكتاب ، خير دليل على

سعة علم النويري وحسن تنسيق ذهنه ووفرة عقله . فإنه من الصعب جداً أن يدرس المرء مئات الكتب في مختلف العلوم والفنون وشتى الموضوعات والمواد ، ثم يختار وينتخب ، ثم يضع خطة تضع كل علم وفن في مكان لائق ، مقسم إلى أبواب وفصول . وكل ذلك بتنظيم لا يصعب على القارئ الاهتداء فيه إلى المنقول ، فينال غايته عنده ، كما ينال كلمة في المعاجم وكتب اللغة . وهو من هذه الناحية ينفرد بين جميع نظرائه من سلف وخَلف .

والمزية الثانية التي ينفرد بها النويري ، ويمتاز بها على سائر نظرائه هي مزية إيراد الشعر في كتابه في جميع الفنون وفي أكثر المعاني ؛ فلم يعمد أي مؤلف إلى نقل الأشعار بحسب المعاني والمطالب كما فعل النويري . وهذا أيضاً محال التحقيق ما لم يكن المرء محيطاً بجميع أنواع الشعر خبيراً ماهراً فيها ، مع القدرة على الانتخاب بحسب الموضوع والمادة . وتلك مزية لا يضاهيه فيها أحد من المؤلفين .

وملخص القول أن النويري كان جامعاً لمختلف العلوم والفنون ، متضلعاً في العلوم الدينية ، خبيراً في كتابة الإنشاء والرسائل الديوانية ، بوصفها مهنة مارسها هو بنفسه ، وهو صاحب نظر بالغ في التاريخ والجغرافية ، ملم بالأنساب إلماماً يجعله ينقد من تناول هذا الموضوع كتابة مثل الجواني النسابة ، وهو دقيق النظر بالغه في الأصناف الأدبية كلها ، متذوق للشعر وآخذ منه بنصيب ولو كان قليلاً .

أسلوبه :

لم نعثر على أثر لأسلوب النويري في الكتابة غير موسوعته هذه . فلم نهتد بعد إلى أي كتاب آخر ، وضعه في فن أو علم أو موضوع . حتى إننا لم نعثر على نماذج لرسائله الديوانية ـ وقد تكون كثيرة ـ رغم أنه باشر هذه الوظيفة فترة مديدة من

حياته الإدارية . وكذلك لم نهتد بعدُ إلى الأوامر والأحكام التي كان يصدرها حتماً وهو يمارس وظيفة ناظر الجيش أو ناظر المدينتين المصريتين ، الدقهلية والمرتاحية . فكلها ذهبت ضحية الحدثان والإهمال . وكل ما لدينا من نماذج لأسلوبه ، هو مقدماته المختلفة التي كتبها استهلالاً للفنون والأبواب والأقسام في كتابه نهاية الأرب .

فإن ألقينا النظر على هذه المقدمات من ناحية الأسلوب ، نجد النويري يقتفي فيها أثر القاضي الفاضل في الكتابة ويختار أسلوبه ، الذي أساسه التخيّل والمحسنات البديعية من التزام السجع والفاصلة ، واستعمال الجناس والطباق ، وغيرها من الصنائع البديعية . فقد كان هذا الأسلوب هو المفضل لدى جميع الكتّاب في ذلك العصر ، وظل سائداً مدة مديدة بعده أيضاً . ولكن صاحبنا النويري لم ينغمس في التزام هذه الصنعة إلى حد يأباه الذوق السليم ، ويمجه الحسّ اللطيف ، بل سلك فيه مسلكاً وسطاً جعل أسلوبه جميلاً ، يستسيغه الذوق ويستحسنه فيتناوله من غير كلال ولا ملل . فلم يتكلف النويري السجع والفاصلة بإعمال الفكر فيها فتصبح عباراته غامضة مبهمة ، بل سار في الكتابة سيره العادي ؛ فإن واتته المحسنات البديعية عفواً دون تكلف وتعمد التزمها ، وإلا تخلى عنها . مما أدى أن تجيء عبارته واضحة المعاني والمطالب ، بعيدة كل البعد من الغموض والإبهام . وتلك مزية يجاريه فيها القلقشندي وحده . فقد التزم السجع والفواصل منزهة عن الغموض والإبهام كصاحبنا النويري . أما ما عداهما من المنشئين الآخرين للرسائل الديوانية ، فإن عباراتهم أشبه شيء بالألغاز والأحاجي لما فيها من الغموض والإبهام والسجع .

ويروق لنا أن نضرب بالمناسبة مثالين لأسلوب النويري ؛ أحدهما من المقدمة التي كتبها حول الفن الثاني الذي يتعلق معظمه بالأدب ، والثاني من مقدمته حول فن التاريخ ، لكي نرى أنه حتى عند كتابته للمقدمة حول الفنون ،

مثل فن التاريخ ، يسلك المسلك الوسط المقبول الحسن . وإليك أولاً قطعة من مقدمته للفن الثاني حيث كتب يقول :

« وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع ، مشنفة للمسامع ، مرصعة لصدور الطروس والدفاتر ، جاذبة لنوافر القلوب والخواطر ، واضحة البيان ، معربة عن وصف الإنسان .

« فمن تشبيهات فائقة ، وغزليات رائقة ، وأنساب طاهرة ، ووقائع ظاهرة ، وأمثال امتدت أطنابها ، وتبينت أسبابها ، وأوابد جعلتها العرب عادةً ودليلاً ، واتخذتها ضلالةً وتبديلاً ، ونصبتها أحكاماً ونسكاً ، وصيرتها عبادة ومداواة فتبوأت بها من النار دركاً ، وشيء من أخبار الكهان ، وزجر عبدة الأوثان ، وكنايات نقلت الألفاظ إلى معانٍ أبهى من معانيها ، وبلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها ، وألغاز غوّرت بالمعاني وأنجدت ، وأشارت إليها بالتأويل حتى إذا قربتها من الأفهام أبعدت ، ومدائح رفعت للممدوح من الفضل مناراً ، وأهاجي صيرت المهجو من القوم يتوارى ، ومجون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس ، ويبتسم عند سماعها ذو الوجه العبوس ، وشيء مما قيل في الخمر والمعاقرة ، وأرباب الطرب وذوي المسامرة ، وتهانٍ نشرت من البشائر ملاء ، ورفعت من المحامد لواء ، وتعازٍ حسرت نقاب الحسرات ، وأبرزت مصون العبرات » .

فمن الملاحظ أنه كتب الجمل مسجعة ، ولكنها ليست موحشة مملة ، بل مؤنسة مشنفة ، لا تجد فيها تصنّعاً ولا تكلفاً ، بل يخيل إليك وأنت تقرأ هذه المقدمة ، أنك تمر بنثر يضاهي الشعر في جودته وحسن سبكه ، كأنه نغمة لطيفة ناعمة تنبعث من قيثارة ذهبية ، تأخذ بمجامع القلوب والأفئدة . فاقرأ معي كلامه العذب هذا الذي يصف به الأوابد العربية والكنايات والألغاز حيث يقول :

« وأوابد جعلتها العرب عادةً ودليلاً ، واتخذتها ضلالةً وتبديلاً » إلى أن

يقول عن الكنايات : « وكنايات نقلت الألفاظ إلى معانٍ أبهى من معانيها ، وبلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها » .

ثم انظر إليه كيف يصف ذكره للألغاز حيث يقول : « والغاز غوّرت بالمعاني وأنجدت ، وأشارت إليها بالتأويل حتى إذا قربتها من الأفهام أبعدت » . ألا ترى معي ما في هذه البلاغة والصناعة غير المتكلفة من لذة ومتعة في قوله « غوّرت بالمعاني وأنجدت » ؟ والغور هو الأرض المطمئنة ويعنون به (القرب) . أما النجد فإنه البقعة المرتفعة من جزيرة العرب ، ويعنون به البعد . وبهاتين الكلمتين كنى النويري عن تقريب معاني الألغاز ، حتى إذا كدت أن تبلغ مفهومها أنجدت أي أبعدت المفاهيم ، فغمض عليك مفهومها ، وأخذت تتيه في دنيا المعاني محاولاً حل العقدة واللغز من غير هدى . ثم اقرأ معي قوله في المدائح إذ قال : « ومدائح رفعت للمدوح من الفضل مناراً ، وأهاجيَ صيرت المهجو من القوم يتوارى » فهل شعرت بضيق أو كلال عند قراءة السجع الوارد « من الفضل مناراً .. ومن القوم يتوارى ؟ » لا . لقد تمتعنا بهذه الصنعة ، وإن كانت مقيدة بالسجع فإنه سجع سائغ ممتع غير ممل . فإن دلت هذه الظاهرة على شيء ، فإنما تدل على مهارة النويري في الكتابة بأسلوب جميل جيد الحبك متين النسج سلس خفيف ممتع جذاب .

وهاك مثالاً آخر لأسلوبه الجميل ولو كان مقيداً بالسجع ، وهذه المرة نأخذ عينة من مقدمة فنية . وهي التي استهل بها الفن الخامس في التاريخ . وإن كانت المقدمة قصيرة فإنها نموذج رائع لأسلوبه المتين . كتب يقول :

« لما انتهى الغرض في التاريخ إلى الغاية التي ذكرتها ، والقصص في الأخبار التي أوردتها ، والدول والوقائع التي انتخبتها ، مما طالعته وحررتها ، عمدت إلى ذكر الملة الإسلامية التي فضلها الله تعالى على سائر الملل ، ورفع أهلها بالعمل

الصالح ووفقهم لصالح العمل ، ووعدهم برحمته ، فهم من وعده في أمن ، وحذرهم عقابه ، فهم من وعيده على وجل ، وبعث فيهم رسولاً من أنفُسهم وأنفَسهم فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وعدل ، وجعله شافعاً لذنوبهم في يوم أحجم فيه مَن سواه عن الشفاعة وبنفسه اشتغل ، وجعلهم به خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله إذ جحد غيرهم ونكل ، فهم الشهداء على الناس لأنبيائهم ، وناهيك بها رتبة تقدم بها أواخر القوم على الأُول » [١/١٦]

ألست ترى معي ما في قوله المسجع « ورفع أهلها بالعمل الصالح ووفقهم لصالح العمل ، ووعدهم برحمته ، فهم من وعده في أمن ، وحذرهم عقابه ، فهم من وعيده على وجل . وبعث فيهم رسولاً من أنفُسهم وأنفَسهم فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ونصح الأمة وعدل » من معانٍ ومطالب ؟ انظر إلى الصنعة البديعية في قوله : من أنفسهم (جمع نفس) وأنفسهم (اسم تفضيل) كيف استعملها وأجاد . إنها لمن درر الغرر ، في أسلوب مقيد بالسجع ، قلما يستطيعه أديب . ثم انظر معي إلى استخدامه الآية الكريمة ﴿ كنتم خير أمة ... ﴾ في محل من عبارته تكاد تتخيلها من كتابته هو ، وليست مقتبسة من القرآن الكريم . أليس في هذا دليل كاف لنعده أديباً بارعاً صاحب أسلوب جميل رائع ؟ ولا سيما في هذا العصر الذي كان يمر بشتى أنواع الانحلال ، الانحلال الفكري والانحلال الأدبي والانحلال اللغوي ، الذي سنشير إلى معالمه بتفصيل فيما بعد .

الآن وقد ألقينا نظرة خاطفة على نموذج كتابته الذي سقناه من بعض مقدماته ، نؤكد أن النويري يمتاز بين أقرانه بأسلوب رصين جيد جميل جذاب ، مع التزامه السجع كما امتاز بكتابه بين أقرانه من الموسوعيين من ناحية تعدد العلوم والفنون وكثرتها ، ومن ناحية تعدد الأقسام والأبواب وتنوعها ، ومن ناحية غزارة هذه الموضوعات والمواد وقيمتها الأدبية والفنية . ومن ناحية الانتخاب

والاختيار ، ومن ناحية النقل والاقتباس ، وأخيراً من ناحية إثباتها بحسب خطة مرسومة محكمة التنظيم والتنسيق .

بيئة النويري

ولد النويري في أواخر القرن السابع الهجري ، القرن الذي شهد تطورات سياسية هامة ، غيرت مجرى التاريخ الإسلامي تغييراً عظيماً . هذه التغيرات والتطورات السياسية الهامة التي طرأت على العالم الإسلامي بسبب فتنة التتار الجامحة . فلقد اجتاحت هذه الفتنة العالم الإسلامي ، وأعقبتها ويلات ودمار وخراب وفساد .

« سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ في أيدي التتار . ودفع هؤلاء الطغاة بتلك المدينة الإسلامية الزاهرة إلى الدمار الحقيقي ، عاثوا فيها فساداً وإتلافاً ، وانهالوا على علمائها تشريداً وإزهاقاً . ثم لم يكفهم أن يفعلوا ذلك بالأنفس والأرواح حتى راحوا يفعلونه بالكتب والمؤلفات ـ والكتب يومئذٍ تراث أجيال مضت وأزمنة قضت ـ فألقوا بهذه الكتب في نهر دجلة »(١) .

« ثم أتى تيمورلنك في أواخر ذلك القرن ـ ونعني به القرن السابع الهجري ـ فذهب بالبقية الباقية من هذه المدينة البائسة . وتركها الناس تحتضر في يد الطاغية وفرَّ الكثيرون منهم إذ ذاك إلى مصر . وحكامها يومئذٍ هم أولئك الأبطال الذين وقفوا وقفتهم المشهورة ضد التتار ، فصدوهم وهزموهم »(٢) .

فما يكاد فجر القرن السابع يشرق حتى نرى العقول العربية التي كانت طوال السنوات الماضية تزود المجتمع الإسلامي بإنتاجها الخصب ونتائج قرائحها

(١) د . عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ١٢

(٢) د . حمزة أيضاً ، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي ٢٥/١

الفياضة ، قد توقفت أو تكاد . وذلك بسبب تغير الأوضاع والظروف التي قلما تسمح لأصحاب الفكر والعلم والمشتغلين بالأدب والفن ، بمزاولة أعمالهم الفنية ، وممارسة إنتاجهم العلمي والأدبي دون أن يتوجسوا خيفةً أو وجلاً . وخاصةً بعد أن كان هؤلاء العلماء قد ألفوا جواً وظروفاً تتنافى والتي ابتلوا بها في هذه الحقبة من الزمن ، ولذلك قلما نجد إنتاجاً علمياً خصباً ، أو مادة أدبية فنية غزيرة ، أو شعراً عذباً بليغاً من ذلك النوع الذي تطرب له القلوب وتترنح له المشاعر والأحاسيس . ولكن ما تكاد تنقشع غياهب هذه الفتنة حتى يبرز رهط من العلماء ليقوم بحركة مباركة يمكن أن نسميها بـ (حركة الموسوعات) .

وغاية هذه الحركة هي جمع نتاج العلماء القدماء وما وضعوه في مختلف العلوم والفنون من كتب خوفاً من ضياعها على أيدي الغزاة . ذلك أن التتار قتلوا كثيراً من علماء المسلمين ببغداد وغيرها .

« وممن قتل ببغداد الشيخ محي الدين بن الجوزي وأولاده ، وكذلك أتلفوا كثيراً من دور الكتب وأحرقوها . وقد أمر هولاكو وقت فتح بغداد بإلقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة . وبذلك ضاعت على الدين ذخائره وعلى العلوم والآداب نفائسها »[١] .

فلما رأى العلماء هذه الكارثة الرهيبة وما جرّت من ضياع أكبر العلماء وأجلهم شأناً ، وجدوا أنفسهم ـ بعد هذه الكارثة الرهيبة « مسؤولين أمام الله عن دينه ، وأمام التاريخ عن نهضة العلم وإقالة عثاره ، وأمام ضمائرهم عن معارفها ، وأمام أوطانهم عن تدعيمها . فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسؤولية وضخامتها ، إلى الجد في العمل لملافاة ما فات ، وبذل الجهد لإعادة هذا الصرح المنهار »[٢] .

---

(١) مختصر أبي الفداء ١٩٤/٤

(٢) محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ١٧/٣

ومن هنا نجد طائفة من العلماء في هذا العصر قد عكفت على دراسة ماتبقى من هذا التراث الضخم لاستخلاص مواده ، وجمعه في كتب مطولة ضخمة ، ضناً به وحفظاً له . ومن أبرزهم صاحبنا النويري .

أسوة حسنة من حياة الصحابة في الجمع والتدوين

والغريب في الأمر أن هذا الرهط من العلماء وخاصة النويري منهم ، اتخذ في مرامه هذا ، أسوة حسنة من حياة رهط من الصحابة ، قاموا ، خوفاً من الضياع والذهاب ، بأول عمل للجمع والتدوين تم في اللغة العربية وتاريخ المسلمين . وأعني به جمع القرآن الكريم وتدوينه في مصحف مكتوب . فقد نقلوه من الجلود والعظام والعسب واللخاف ، التي كانت سور القرآن الكريم وآياته قد كتبت عليها زمن النبي ﷺ ، أو من صدور الصحابة من الحفاظ ، الذين كانوا يسمون بـ (القراء) عصرئذ . وكان الباعث الهام والأول هو توجس الخوف من ضياعه أو ذهابه مع من ذهب من القراء في الحروب والغزوات ، كما حدث في غزوة اليمامة .

فقد طلب أبو بكر من زيد بن ثابت جمع القرآن الكريم ، بعد أن زال تردده فيه ، عندما أكد عمر بن الخطاب هذه الضرورة . فجمع زيد بن ثابت ما وجد مدوناً عند الصحابة وما كانوا قد حفظوه في صدورهم ، فجعله مصحفاً كاملاً ، وسلمه إلى أبي بكر رضي الله عنه . فلما توفي أبو بكر رضي الله عنه تسلمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعد وفاته في سنة ٢٣ هـ ، انتقل المصحف إلى كريمته حفصة أم المؤمنين .

وفي زمن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، عندما توسعت رقعة الفتوحات وانتشر المسلمون إلى أقطار مختلفة وبلدان كثيرة ، من الإمبراطورية الإسلامية المتوسعة يوماً بعد يوم ، مع نُسخ من القرآن الكريم يعولون عليها في

القراءة والتلاوة ، ودخلت في حظيرة الإسلام شعوب وقبائل تغاير لغاتها ولهجاتها لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم ، وحدث اختلاف في قراءته ، وفي إدراك معناه ... اتصل حذيفة بن اليمان بعثمان رضي الله عنه وأنبأه بما رآه أثناء سفره إلى أرمينيا وأذربائيجان في غزوة ، من اختلاف المسلمين في القراءة والتلاوة والتفاخر والتمسك بها ، وحذره من العاقبة الوخيمة التي قد يؤدي إليها هذا الاختلاف وهذا الوضع الشاذ إذا ماتفشى بين المسلمين وقال قولته المعروفة : « أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » . ففطن عثمان إلى ما في قوله من حكمة واستصوب رأيه . وكتب إلى حفصة رضي الله عنها يقول لها : « أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك » ففعلت . فاستدعى عثمان رضي الله عنه جماعة من الصحابة من كتبة الوحي والمتضلعين في علم القرآن الكريم ، مثل زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وغيرهما وأمرهم أن ينسخوا القرآن الكريم ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء . وهكذا كتبت أربعة مصاحف ، بعث بها عثمان إلى الأمصار ، وأبقى عنده نسختين ، سميت إحداهما بالإمام .

ومن نسخ عثمان المرسلة إلى البلدان والأمصار الإسلامية الكبرى استنسخ المسلمون مصاحف أخرى ، فأصبحت مئات إلى واقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بحسب قول المسعودي .

تلك هي الأسوة الحسنة التي جعلها النويري نبراساً له يهتدي به ، وخير مثال يقتفيه . فقد جُمع القرآن أول مرة بسبب خوف الضياع وذهاب أهله . وشبيه بهذا عمل النويري ، فقد قام بجمع تراث الأسلاف خوفاً عليه من الضياع على يد الحدثان ، وخاصة بعد أن رأى ما آل إليه أمر الكتب والكراسات والنفائس العلمية ، إثر اكتساح التتار الأقطار الإسلامية ، والعراق منها خاصة .

وقد جُمع القرآن الكريم اتقاء لشر تفشي اللهجات المختلفة ، وتعدد المعاني

والمفاهيم القرآنية من أجلها ، وتفاديـاً لوقوع الخلاف والشجـار بين المسلمين فيـه . وإننـا ، وإن كنـا نستبعـد قيـام النويري بهـذا العمل اتقـاءً لشر تفشي اللهجـات وتفاديـاً لوقوع الخلاف ، قـد يتبـادر إلى ذهننـا أن النويري فكر في الموضوع من هذه الناحية أيضاً . فمن يدري لعلـه رأى أنـه بجمعـه لهـذه المؤلفـات يصونهـا من الضياع من ناحية ، ويصونها من وقوع الشـك والريبـة في نصوصهـا وموادهـا من ناحية أخرى ، وخاصة عندما يطول عليها الأمـد ، فعمـد إلى ضبـط نصوصهـا في سجل ، ولما يمض على وضعهـا عهـد بعيـد ، وأتم ذلـك بيـديـه ، وهو العـالم الخبير « الفقيه الفاضل ، المؤرخ البارع ، له مشاركة جيدة في علوم كثيرة » بحسب قول ابن تغري بردي . والواقع أن الكتب التي اختصرها أو نقلها في كتابه كانت خليقة بالتغير والتبديل ، أو مظنة الشك والشبهة في نصوصها خلال التيارات السيـاسيـة والاجتماعية التي مر بها المجتمع الإسلامي في تلك العصور[١] .

الأسوة في تدوين التفسير والحديث

كان للنويري أسوة حسنـة في تـدوين التفسير في العهـد العبـاسي ، وضبطـه ضبطاً كتابياً « فمن المعروف أن التفسير ، طوال العهد الأموي ، وإلى مطلع العهد العباسي ، كان يعتبر ضمن العلوم التي يحويها (الحديث) . فقـد كان الحـديث هو المـادة الواسعـة التي تشمل جميع المعـارف الـدينيـة تقريبـاً . فهو يشمـل التفسير ، ويشمـل التشريـع ، ويشمـل التـاريـخ . وكانت كلهـا ممتزجاً بعضهـا ببعض تمـام الامتزاج »[٢] .

معنى ذلك أن التفسير لم يكن قـد أصبح علمـاً أو فنـاً في حـد ذاتـه إلى ذلـك

---

(١) راجع لجمع القرآن وتـدوينـه : صحيـح البخـاري (بـاب جـمع القرآن) ، الترمـذي (أبـواب التفسير) ، الإتقان للسيوطي ، فتح الباري .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ١٣٧/٢

العهد ، بل كان يعدّ أحد علوم الحديث وفرعاً من فروعه . ولكن لما أخذت العلوم تتقدم وتترقى وتتشعب ، أخذت تنفصل بعضها عن بعض لتصبح علماً أو فناً منفرداً ، وذلك في العهد العباسي ، حين انفصل التفسير عن الحديث ، وأصبح علماً قائماً بنفسه . فلما أصبح علماً قائماً بنفسه ، وكان عهد التدوين قد بدأ بكل نشاط وحماسة ، أحس العلماء بضرورة ضبطه وتدوينه في سجل مكتوب . ولكن ماهي الدواعي والأسباب التي أدت إلى تدوين التفسير على حدة فناً منفرداً ، علماً أنه لم يكن يضيره أن يظل ممتزجاً بعلم الحديث ؟

لعل من الأسباب الهامة لتدوين التفسير ـ إلى جانب مزاج العصر وامتيازه بتدوين العلوم والفنون ـ خطر الضياع وفقدان هذا الفن بسبب اندماجه في فن الحديث وذوبانه فيه وفقد شخصيته المنفردة على أنه فن معلوم معين .

فقد روى ابن النديم :

« أن عمر بن بكير كتب إلى الفراء أن الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن ، فلا يحضرني فيه جواب ، فإن رأيتَ أن تجمع لي أصولاً ، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت . فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن ، وجعل لهم يوماً . فلما حضروا خرج إليهم ، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة . فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها ثم نوف الكتاب كله . فقرأ الرجل وفسر الفراء . فقال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه »[١] .

فقول عمر بن بكير « ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب » يدل على أن طلبه إلى الفراء وضع كتاب له يرجع إليه ، إنما كان

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ٦٦ وضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٢

مرده إلى خوف افتقاد الجواب في المسائل المطروحة عليه . أو بتعبير آخر : كان سبب طلبه وضع الكتاب ضياع الأجوبة وانفلاتها من ذهنه ، فأحب أن يقيدها في دفتر لكي يرجع إليها متى احتاج إليها .

الشيء نفسه وقع للنويري . فقد بدأ المطالعة ، وأخذ يضبط ويقتبس ما راق له وطاب ، ثم دوّن هذه المقتبسات ليرجع إليها عند الحاجة . ولما اجتمعت لديه أشياء كثيرة من مختلف العلوم والفنون ، عمد إلى تقييدها وتسجيلها في كتاب مرقوم . فالباعث على تسجيل العينات المقتبسة هو خطر الضياع ، ثم الاستفادة منها بالرجوع إليها وإفادة الآخرين بها فيما بعد .

وهكذا نجد مماثلة كلية بين سبب تدوين التفسير وسبب تأليف النويري لكتابه . وكان في ذلك أسوة للنويري حفزته إلى تدوين العلوم وتأليفها .

أسوة في تدوين الحديث

أما الحديث النبوي الشريف ، فإن تدوينه بدأ في عهد التابعين . فقد روي أن بعض التابعين كانوا قد دوّنوا بعض الأطراف من الحديث[1] ليبلغ العمل أوجَه في العهد العباسي . وكان الصحابة والتابعون مختلفي الكلمة حول جمعه وتدوينه . ثم ذهب هذا الخلاف واستقر الرأي على تدوينه ، ولعل أول من خطا في ذلك خطوة فعلية عمر بن عبد العزيز[2] .

والغريب في الأمر أن السبب لاتخاذ هذه الخطوة التي لم تتخذ من قبل بصورة جدية ، كان هو خطر دروس العلم وذهاب العلماء ، ومعناه أن خطر

---

(١) للتفصيل انظر (تدوين العلم) للخطيب البغدادي وراجع : الخطط للمقريزي ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر ، ومقدمات شروح البخاري ومسلم وقوت القلوب للمكي ، وفجر الإسلام لأحمد أمين ، وتمهيد لتاريخ الفلسفة لمصطفى عبد الرازق

(٢) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية هامش ٢٤٧/١

الضياع وتصرف يد الحدثان ، كان السبب الرئيسي لتدوين الحديث أيضاً .

فقد ذكر الموطأ « أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه ، **فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء** وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر » .

وكذلك أصدر عمر بن عبد العزيز أوامره إلى أهل الآفاق :

« انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه »(١) .

فقد لاحظنا أن جمع الحديث وتدوينه أيضاً أتى نتيجة لخطر الضياع ، إما بسبب دروس العلم نفسه ، أو بسبب وفاة العلماء المتضلعين فيه . ولذلك رأينا أنه لما انتصف القرن الثاني من العهد العباسي « بدأ التأليف في الحديث ، كما بدأ في العلوم الأخرى . ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة »(٢) .

فهناك إذن تشابه كبير بين سبب وضع النويري لكتابه ، وبين سبب جمع الحديث وتدوينه . وذلك هو خطر الضياع وزوال العلم . فوجب ضبطه في دفتر . ولهذا سجل النويري مختاراته مكتوبة أسوة بالقدماء من جامعي الحديث ومدونيه .

ويطول بنا الكلام لو اقتفينا أسباب وضع وجمع وتدوين العلوم المختلفة ، فمعظم العلوم والفنون تناولتها يد التحرير بسبب خطر الضياع وانقراض العلم ، ووفاة الخبراء والمحنكين والشخصيات البارزة في فن أو علم معين . ونختتم هذه النبذة بقول للدكتور شوقي ضيف ، الذي ذكر أن خوف الضياع وموت العلماء

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ٢٤٩ ـ ٢٧٠ ، وضحى الإسلام ١٠٦/٢

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ١٠٧/٢

كان هو الباعث أيضاً على تدوين الموسوعات ، فقد كتب يقول :

« ولولا هذه الكتب (أي الموسوعات) ما استطعنا اليوم أن نؤرخ للحركات الأدبية في مصر أثناء العصور الوسطى . ويظهر أن القوم اتجهوا هذا الاتجاه في التأليف **مخافة ضياع العلم ، إذ فقد كثير من الكتب** حتى عصرهم ، فرأوا أن يكتبوا موسوعات تغني عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر »[1] .

القاهرة حمى العلماء ومركز الجمع والتأليف والتدوين

ولما كانت القاهرة - مدينة المماليك - في مأمن من ويلات فتنة التتار وطغيانهم ، انبعثت هذه الحركة ، حركة جمع العلوم وتدوينها في أسفار ضخمة التي تسمى الآن (حركة الموسوعات) من هذه الأرض الخصبة المطمئنة . فسجل القائمون بها ، ما تركته لنا جهود العلماء من السلف ، من نتاج خصب ، ومن علم وأدب ، وحكمة ومعرفة ، ودين وموعظة وتاريخ وسيرة وغيرها من الفنون .

« فقد كانت مصر في عهد المماليك تعتبر زعيمة العالم الإسلامي إذ وقفت دون موجة التتار التي اكتسحت شرق هذا العالم حتى الشأم ، كما وقفت دون موجة الصليبيين وردتهم عن بلاد الإسلام ، وقد انتقل إليها الخليفة العباسي . وفي هذا الانتقال ما يرمز إلى أهميتها في تلك العصور . إذ أصبحت موئل الإسلام من طرف ، كما أصبحت موئل العلم والأدب من طرف آخر . فقد هاجر إليها العلماء والأدباء من كل صوب حتى ينعموا بما فيها من حياة آمنة مرفهة »[2] .

« فالفضل الأكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع إلى مصر

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٧٩

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ١٩٦/٧

والشأم ، وهما في حوزة السلاطين المماليك ومن بقي من الملوك الأيوبيين . فقد كانت الملجأ الوحيد لأبناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق »[١] .

وكذا فتحت مصر أبوابها لهذه الطبقة من العلماء الذين قدموا إليها لاجئين . و « هناك في مصر أَمِنَ أولئك العلماء والأدباء على أنفسهم ، وأحدثوا حركة علمية كبيرة ، أثرت في العلماء المصريين تأثيراً كبيراً ، فدعتهم إلى التفكير في إنقاذ الثقافة الإسلامية التي جنى عليها الجهل والظلم والتوحش »[٢] فرأى علماء ذلك العصر أن خير وسيلة لصيانة هذه الثقافة ، هي « جمع المواد التي تتألف منها هذه الثقافة ، في كتب كبيرة على شكل (موسوعات) أو دوائر معارف عظيمة ، لا تدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المواد إلا أحصتها »[٣] .

وكان من بين القائمين بهذا العمل الجليل شهاب الدين أحمد النويري صاحب نهاية الأرب .

حقاً إن هذا العمل لا يتعدى « أن يكون ترديداً لما فات ، وجمعاً لمتفرّق أو تفريقاً لمجتمع » إلا أنه ما من شك في أن هذا (الترديد لما فات) له الفضل الأكبر في ما خلفه لنا آباؤنا وأجدادنا من هذا التراث الضخم الغزير ، الذي لولا (هذا الترديد) لكان قد أصبح من حديث الماضي ، مثل الكتب القيمة الأخرى ، التي لا نجد لها ذكراً إلا بين طيات كتب التاريخ أو كتب الطبقات . وإن وجدت فإنها لا تزال زينة الرفوف في المكتبات ، لم يقدر لها أن ترى النور بعد . أو هي مخطوطة نادرة نعرف أو لا نعرف لها مقراً .

وكذا فإن كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، الذي بدأه

---

(١) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ١١١/٢

(٢ و٣) د . عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ١٣

بمقتبسات من مطـالعتـه ، أتى أكبر موسوعـة في العصر المملوكي بمصر ، وهو يتضمن جميع العلوم والفنون الرائجة إلى ذلك العصر .

وهنا يتبادر إلى الـذهن أن النويري ، إنمـا بـدأ عملـه في جمع مـا طـالعـه في الكتب في موسوعته ، ليس بقصد تأليف كتاب بالمعنى المفهوم منه ، وإنما غرضـه استيعاب ما طالعه وضبْطـه في دفتر كي لا ينسـاه ، فـإذا انفلت من ذاكرتـه شيء سهل عليه الرجوع إليه . إذن لم يأت بهذا الكتاب بعد تفكير ودراسـة ورويـة في الموضوع ، وإنما جاء به عفواً كالفكرة الطـارئـة ، دون أن يحسب لـه حسـابـاً من قبل .

إنها فكرة قد تكون صائبـة . ولكن يبـدو لي أن النويري ، بعـد أن أراد أن يضمن كتابه هذا ما خاف انفلاته من ذاكرته ، وبعد أن مضى فيه فعلاً شوطـاً إلى حد معلوم ، غيّر رأيه لما وجد من أهمية فيما يطالعه ، وندرة ما وصلت إليه يـداه من النفائس . ومن ثَم وطد عزمه على جمع هذه النبذات ، وتسجيل ما يعجب به من المختـارات ، لا ليستفيـد منهـا هو وحـده ، بل لتكون ذات فـائـدة للآخرين أيضاً ، ومتعة لهم ، يمكن الرجوع إليها والإلمام بها عند الحاجة . هذا من ناحيـة ، ومن ناحية أخرى ؛ لكي يحفظ هذا التراث ، الذي أهملـه المجتمع لاشتغـالـه بـأموره الخاصة ، التي فرضتها عليـه الظروف ، من ضيق أسبـاب المعـاش وتغير الأوضـاع المألوفة ، فتولى النويري مهمـة الحفـاظ على هـذا التراث الضخم ، وصونـه من أن يصبح لقمة سائغة لتقلبـات العصر وتطوراتـه . وهـذا العمل يتطلب إلى جـانب العقل الناضج والذوق السليم ، علمـاً غزيراً ، ثم خطـة مرسومـة أحكمت أصولهـا ، وترتيباً وتهذيباً روعي فيهما دقة الاختيـار وحسن الانتخـاب . فـإن ألقينـا النظر على كتاب نهاية الأرب من هذه الناحية ، وجدناه مستوفياً لهـذه الشروط كلهـا . وإن خضنـا في البحث في صفحـات الكتـاب وجـدنـاه موزعـاً على فنون وأقسـام وأبواب ، وفق صورة منتظمة لا يعمد إليهـا من يريـد جمع أشيـاء لنفسـه خيفـة

الإفلات منه أو النسيان ، بل يعتمدها من يؤلف لغيره . فهذا الترتيب الكامل لا يمكن أن يأتي عفواً ، دون إعمال الفكر وتنسيق الخطة ، وبعد طول الممارسة ، وتدبر استغرق وقتاً غير قصير . ليس هذا فحسب ، بل إن هذه الظاهرة تتجلى بوضوح في المقدمات التي يستهل بها الأبواب . فقد أتت كلها على غرار مقدمات تكتب بعد فكر وروية بالغين ، ولم ينطلق بها قلم يجمع لصاحبه مختارات من هنا وهناك في صورة (مذكرات) ، لأن شأنه غير شأن المؤلف أو الجامع . فقلما يكون في المذكرات ترتيب محكم أو تهذيب ملحوظ أو اختيار منسق أو خطة مرسومة ونهج معين مضبوط . ثم إن النويري نفسه قد أفصح عما كان ينويه من جمع كتابه هذا حين قال : « وما أوردت فيه إلا ما غلب على ظني أن **النفوس** تميل إليه وأن الخواطر تشتمل عليه » [١ / ٢٥] .

فهذه العبارة تبرهن أن النويري لم يبذل جهوده الجبارة هذه لأجل نفسه وحدها ، وإنما للنفوس والخواطر بالجمع لا المفرد ، أي نفوس القراء إلى جانب نفسه طبعاً . كما كان ينوي أن يأتي بكتاب يكون ذخراً للخلف وخزانة لما ورثناه من إنتاج أسلافنا من العلماء والفقهاء والأدباء النابغين .

اقتفاء النويري لآثار السلف

ومع أن النويري كان بطبيعته ميالاً إلى العلم والأدب ، شغوفاً به عكوفاً عليه « له مشاركة جيدة في علوم كثيرة »[١] لم يعتمد على نفسه وعلمه ومعرفته فحسب ، عند نقله لهذا الكتاب ، بل أظهر نفسه تابعاً للعلماء السلف ، معتمداً على علمهم ، واثقاً في كفايتهم . ولذا اقتفى آثارهم في هذا المضمار إذ قال في آخر مقدمته :

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٩٩/٩

« ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بناني ، وغضضت طرفي ، ولو خبرت طريق المعترض لعطفت عناني ، وثنيت عطفي ، ولكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي ، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي » .

ذلك أنه أثناء مطالعته للكتب ، وجد أن أسلافه من العلماء والنابغين والفضلاء أيضاً سلكوا المسلك نفسه . فلقد قال الميداني في مقدمة كتابه (مجمع الأمثال) وهو يذكر سبب تأليف كتابه بإشارة ورغبة من « الشيخ العميد الأجل السيد العالم ضياء الدولة منتخب الملك شمس الحضرة صفي الملوك أبي علي محمد بن أرسلان ، أدام الله علوه ، وكبت حاسده وعدوه » قال :

« .... فعدت إلى وطني ، ركض المنزع شمرة الغالي ، مشمراً عن ساق جدي في امتثالِ أمره العالي ، فطالعت من كتب الأئمة الأعلام ما امتد في تقصيه نَفَس الأيام ، مثل كتاب أبي عبيدة وأبي عبيد ، والأصمعي وأبي زيد ، وأبي عمرو وأبي فيد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة ، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً ، ونخلت ما فيها فصلاً فصلاً وباباً باباً ، مفتشاً عن ضوالّها زوايا البقاع ، مشذّباً عنها أُبَنَها بصارمي القطّاع ، علماً مني أني أَمَتّ به الدينار في كف ناقد ، وأجلو منه البدر لطرف غير راقد ، يزيده بالنظر فيه رونقاً وبهاء ، ويكسبه بالإقبال عليه سناً وسناء . ونقلت ما في كتاب حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب (أي مجمع الأمثال) إلا ما ذكره من خرزات الرقى وخرافات الأعراب والأمثال المزدوجة لاندماجها في تضاعيف الأبواب . وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم في أوائلها ، ليسهل طريق الطلب على متناولها .... إلى :

أفتتح كل باب بما في كتاب ابي عبيد أو غيره ، ثم أعقبه بما على أفعل من ذلك الباب ، ثم أمثال المولدين ، حتى آتي على الأبواب الثمانية والعشرين على هذا النسق » .

وهكذا وجد النويري لنفسه أسوة حسنة وقدوة متبعة في الميداني ؛ هذا العالم الجليل واللغوي الماهر الذي تدين له دنيا العلم والفن . فإنه كذلك : نقل واستخلص وصفى ونقى ، كما عمل النويري مقتدياً به وبأمثاله من الفضلاء ، مثل ابن منظور صاحب لسان العرب الذي قال ما نصه :

« .... فجمعت منها (أي الكتب القديمة التي ألفت قبل ابن منظور) في هذا الكتاب ما تفرق ، وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق ، فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع ، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولئك بمنزلة الفروع .... وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت ، أو فعلت أو صنعت ، أو شددت أو رحلت ، أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت ؛ فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيدة لقائل مقالاً ، ولم يخليا فيه لأحد مجالاً . فإنهما عينا في كتابيهما عمن رويا وبرهنا عما حويا ونشرا في خطبهما ما طويا . ولعمري لقد جمعا فأوعيا وأتيا بالمقاصد ووفيا ، وليس في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ، ولا وسيلة أتمسك بسببها ، سوى أني جمعتُ فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم ، وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير ، وطالب العلم منهوم ، فمن وقف فيه على صواب أو زلل ، أو صحة أو خلل ، فعهدته على المصنف الأول وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول ، لأنني نقلت من كل أصل مضمونه ، ولم أبدل منه شيئاً . فيقال فإنما إثمه على الذين يبدلونه . بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالفص ، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص . فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة »[1] .

وبإلقاء نظرة خاطفة يتجلى لنا أن النويري اقتفى آثار أسلافه من الكتاب وسلك المسلك نفسه . فنراه يتبرأ من الأغلاط كما يتبرأ منها ابن منظور وغيره ،

(١) مقدمة لسان العرب ، وابن منظور هو جمال الدين محمد بن جلال الدين الأنصاري الإفريقي المعروف بابن مكرم وابن منظور . ولد عام ٦٣٠ وتوفي ٧١١ هـ

ويحمّل مسؤولية الخطأ والصواب أصحاب المقالات والموضوعات من المؤلفين الذين نقل عنهم هذه الموضوعات والمقالات والمواد . يقول النويري : « فإن يكن اعتراض فعلى علاهم لا علي العار »[1] ومن هنا يتضح أن النويري لم يرض لنفسه مركزاً إلا مركز الناقل الأمين ، كما أوضح سلفه ابن منظور . وذلك من غير استخدام رأيه في المسائل ، أو عرض المنقولات على المحك ليعرف جودة البضاعة من غشها ، وخاصة في المسائل الدينية (كما لاحظنا من قبل ، وفي الأمور المختلف فيها بين العلماء كما سنرى في الأبواب القادمة) .

والسبب ، كما أشرنا إليه سابقاً ، هو الانحلال الفكري والاضمحلال والخور الذهني الذي طرأ على العلماء في ذلك العصر . ثم الفوضى وعدم الاستقرار الذي كان سائداً في المجتمع الإسلامي . فلم يحفز علمهم إلى الإبداع والابتكار الذي يتطلب راحة البال واستقرار الأحوال . ومن ثَم اقتصروا على جمع ما وجدوا أمامهم من الكتب في شتى الفنون والموضوعات . وذلك ما أشار إليه عميد الأدب العربي المغفور له الدكتور طه حسين في أحاديثه إذ قال :

« إن عصر المماليك يمتاز بأنه عصر دوائر المعارف والموسوعات الأدبية ، ألفت فيه الكتب التي جمعت ما كان العرب والمسلمون قد أصدروه من الكتب الكثيرة مثل لسان العرب (لابن منظور قبل النويري) ، ومسالك الأبصار لفضل الله العمري ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، إلى أن ينتهي هذا الركب إلى السيوطي ، الذي هو أكبر مظهر لهذا العصر (أي العصر المملوكي) ؛ فهو مؤلف كثير التأليف ، كثير الجمع ، قليل الابتكار ؛ فلم يترك السيوطي باباً لفن لم يطرقه ، حتى لقد عدوا من تآليفه ثلاث مئة كتاب »[2] .

---

(١) مقدمة نهاية الأرب ص ٢٦

(٢) نقلاً عن ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢١/٤

كانت هذه هي الظروف والأوضاع التي وضع فيها النويري كتابه الشهير نهاية الأرب في فنون الأدب ، في ثلاثين مجلداً ضخماً ، على ترتيب حسن بديع يضاهي أحسن ترتيب ممكن ، أودعه كل مختار منتخب من علوم الأوائل ورشحات أقلام القدماء ، في كل فن وموضوع ، وذلك ليس بضئيل .

قسم النويري موسوعته إلى خمسة فنون ، يحتوي كل فن على خمسة أقسام ، لينقسم كل قسم إلى أربعة أو خمسة أو سبعة أبواب بحسب أهمية وسعة القسم ، ضمنها جميع العلوم والفنون التي كانت معروفة إلى عصره :

من الكلام عن السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية ، والإنسان وما يتعلق به ، من اشتقاق كلمة (الإنسان) من كلمة (الأنس) إلى ما يعرض له من العوارض في الدنيا ، وما يميل إليه من شعر وأدب ، وما يرغب فيه من حب وهوى ، وما به من نزعات إلى حياة مترفة ، قوامها الخمر والنساء والسقاة والندماء ومجالس الغناء وغيرها ، وما روي عنه من حكم وأمثال وقصص وأخبار . كما نقل عما وجده عن الحيوانات ، الصامت منها والناطق ، وعن النباتات وما يتعلق بها من أصلها ومختلف أسمائها وأوصافها ، وما أعجب به من التاريخ من أحداث ووقائع ومعارك ومعاهدات ، من مبدأ خلق أبينا آدم عليه السلام ، تتخلله أخبار يوم القيامة ونفخاته وخروج يأجوج ومأجوج وأهواله ، ونزول عيسى عليه السلام وآثاره ، إلى أخبار ملوك الأصقاع وملوك الأمم والطوائف ، ووقائع العرب في الجاهلية ، وسيرة النبي ﷺ ، ثم أخبار الخلفاء الراشدين ، فالدول التي تلتهم ، من أموية وعباسية وغيرها ، إلى أن انتهى كتابه بأخبار ولي نعمته أبي المظفر محمد بن قلاوون الصالحي ، سلطان مصر ، وذلك مسك الختام .

النهاية كتاب تاريخي أم أدبي ؟

وقد يتساءل المرء لماذا أسمى النويري كتابه هذا بـ (نهاية الأرب في فنون

الأدب) فإننا نراه يضم إليه علوماً وفنونـاً لا تتعلق من الأدب بشيء ، وإنما هي علوم وفنون في ذاتها ، لها أصولها وقواعدها . وإنـه لمن العجيب أن النويري ، مع غزارة علمـه ، وعلو كعبـه في التمييز بين فن وفن ، قـد أبـاح لنفسـه أن يطلق اسم الأدب على جميع هذه الفنون التي يغاير بعضها بعضاً مغايرة كلية ؟ فما ليس فيـه شك ، أن الكتاب يحوي فنوناً وعلوماً لا تمت إلى الأدب بصلـة كما قـد يتبـادر إلى الـذهن أول وهلـة . كما أن النـويري لم يجهـل مـا بين فن وفن من فرق وتغـايـر ، ولكنه مع ذلك آثر أن ينعت كتابه بكتابٍ (في فنون الأدب) .

ثم إن جميـع المترجمين للنـويري ، قـد سمـوا كتـابـه بـالتـاريـخ ونعتـوه بهـذا الوصف . فقد قال الجميع تقريباً : « إنه وضع تاريخاً في ثلاثين مجلداً » .

والأحسن ـ قبل الإدلاء برأينا في كون كتاب النهاية كتـابـاً أدبيـاً أو غيره ـ أن نرى ما هو الأدب نفسه ، لكي نقرر في ضوئه كون النهاية كتـابـاً أدبيـاً أو غير ذلك .

الأدب ومفهومه

إن الأدب ـ وإن دلت مـادتـه منـذ أقـدم العصـور العربيـة الإسـلاميـة على رياضة النفس ، بالتعليم والتمرين على ما يستحسن من السيرة والأخلاق ، والتأثر بهـذه الريـاضـة والانتفـاع بهـا ، واكتسـاب الأخـلاق الكريمـة واصطنـاع السيرة الحميـدة ـ قـد تطـور مفهـومـه في القرن الأول الهجري ، ليشمـل التعليم أيضـاً (فالمؤدب) كان يراد به الشخص الذي يتخذ التعليم صناعـة يكسب بهـا رزقـه . و (الأدب) كل مـا يلقيـه المؤدب (المعلم) إلى تلميـذه من شعر وقصص وأخبـار وأنساب ، ما عدا العلوم الدينية التي تتعلق بالقرآن والحديـث النبوي الشريـف .

فلما استهل القرن الثاني والثالث للهجرة ، حين نشأت علوم اللغة العربيـة ، من صرف ونحو ولغـة وبلاغـة وغيرهـا ، انتعش مفهـوم الأدب ومراده ، فـأصبـح

الأدب يدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور ، وما كان يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية .

فهل لهذا الكلام الجيد من المنظوم والمنثور محك نختبر جودته به ؟

نعم ، فالكلام الجيد ، من النظم والنثر ، هو ذلك الذي يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية ، سواء أكان هذا الكلام شعراً أم نثراً . وليس كل ما ينظم أو ينثر يحدث في نفس القارئ أو السامع لذة فنية . ولذلك نضطر إلى تقسيم الأدب إلى معنيين مختلفين :

أحدهما (الأدب بمعناه الخاص) وهو الأدب الفني الذي يجد القارئ أو السامع في نفسه لذة ومتعة لقراءته أو سماعه ، فيتلذذ به ويطرب له .

والثاني هو (الأدب بمعناه العام) وهو (الإنتاج العقلي الذي يصدر في الكلام ويكتب في الكتب) ؛ فالقصيدة الرائعة والمقالة البارعة والخطبة المؤثرة والقصة الممتازة ، كل هذا (أدب بالمعنى الخاص) لأننا نقرؤه أو نسمعه فنجد فيه لذة فنية ، كاللذة التي نجدها حين نسمع غناء المغني وتوقيع الموسيقي ، وحين نرى صورة جميلة أو تمثالاً بديعاً . فهو إذن يتصل بالذوق والحس والشعور ، ويمس ملكة تقدير الجمال في النفس . والكتاب في النحو أو في الطبيعة أو في الرياضة (أدب بالمعنى العام) لأنه كلام يصور ما أنتجه العقل الإنساني من أنواع المعرفة ، سواء أحدث في النفس أثناء قراءته أو سماعه هذه اللذة الفنية أم لم يحدثها .

على أن الأدب أو الأديب ، ليس من شأنه ، أن يبحث في هذه العلوم من حيث هي فيتعمق فيها ، وإنما يأخذ منها الشطر الذي يتعلق بالإنسان ومحيطه وبيئته ويتناولها بالقدر الذي يحدث المتعة ويثير الحساسية في نفس القارئ أو السامع . فإنه إن تعمق فيها ، قد يفقد الحساسية والإثارة في كلامه ، فيصبح إنتاجه في الأدب بالمعنى العام . ولذلك أصاب الجاحظ عندما نادى بأن « الأدب

هو الأخذ من كل فن بطرف » وهـذا الأخـذ من كل فن بطرف ، يجب أن يكون معبراً عن معنى من معاني الحياة ، وذلك بأسلوب جميل . فلابد لعد الشيء أدباً من ركنين : معان تثير العاطفة ، وألفاظ جميلة أديت بها المعاني ... وكذلـك لابـد في الأدب من صياغة وتعبير جميل . وذلك هو مفهوم الأدب في عصرنا هذا[1] .

فإن ألقينا النظر على ما جمعه النويري في كتابه من علوم ومعـارف ، ومـا أودعه من اقتباسـات ومنقولات ، في ضوء هـذا التعريف للأدب ، نجـده يفي بـه تماماً بل يزيد . إذ إنه لم يتعمق في العلوم والفنون عنـد النقل والاقتبـاس ، وإنما أخذ منها تلك العينات واللقطات التي تتمتع بها النفس ويتـأثر بهـا الحس وتتلـذذ بها المشاعر ، وكل ذلك في صياغة وتعبير جميل مع ألفاظ جميلة . وبـذا وفى بشرط « الأخـذ من كل فن بطرف » من نـاحيـة الكلام الجيـد من المنظوم والمنثـور ، كما أشرنا في الصفحات السابقـة ، ومن نـاحيـة أخرى ، زاد عليـه فجـاء بعلوم وفنون تعد من الأدب بالمعنى العام ، مثل الكلام على النحو والصرف والبلاغـة والتـاريخ والجغرافية والسيرة والعلوم الأخرى .. وهكـذا شمل معنى الأدب بمفهوميـه الخـاص والعام في وقت واحد .

إننا إذا لم نأخذ هذا التعريف بعين الاعتبـار ، فقـد نضطر إلى حـذف بعض الكتب الهامة وإنتاج بعض الفطاحل من القدمـاء ، من عـداد الأدب ، برغم أننـا ما زلنا نعدها من أمهات الكتب الأدبية والأعمال الرائعة التي خضعت أمامها ومـا تـزال تخضـع ، هـامـات كبـار العلمـاء والأدبـاء في كل مصر وعصر ، وأعني بهـا : (الكامل للمبرد) و (البيان والتبيين للجاحظ) و (كتـاب الشعر والشعراء لابن قتيبـة) وغيرهـا من الإنتـاج الأدبي الخصب الممتع . فهـذه الكتب جميعهـا تشمـل

---

(١) تلخيص لكل مـا كتبـه د . طـه حسين ود . منـدور ود . شـوقي ضيف عن مفهـوم الأدب في مختلف الكتب .

الأخبار والأنساب والقصص والسيرة والتاريخ والأساطير . ومع هذا فإن أحداً لا ينكر أنها من الكتب الأدبية ، وأن هذا الإنتاج من الإنتاج الأدبي . فلماذا إذن نتردد في إدراج كتاب (نهاية الأرب) للنويري في عداد الأدب ، والحال أن كتاب النويري يحيط بمفهوم الأدب بالمعنيين معاً ، هل نعد هذا الكتاب من الكتب التاريخية بمحض وصفه بتلك الصفة من جانب بعض مترجميه الذين يبدو أنهم لم يكلفوا أنفسهم إلقاء نظرة عاجلة على الكتاب كاملاً ، فتخبطوا خبط عشواء في وصفه ، فأخطأ بعضهم حتى في اسمه ، فهذا تغري بردي الأتابكي صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ينعته بـ (كتاب في التاريخ) ثم يخطئ في اسم الكتاب فيقول « منتهى الأرب في علم الأدب » . فهل من العدل والإنصاف أن ندلي بحكم استناداً إلى قول رجال لم يمروا بالكتاب إلا مروراً عارضاً ، كما أشرنا في الصفحات السابقة ؟

وثمة ناحية جديرة بالانتباه ، هي أن النويري لم يدون كتابه هذا بوصفه كتاباً في فن خاص أو علم يبحث في ناحية من فن معلوم معين ، وإنما حاول جمع خزينة مطالعته من العلوم والفنون ، في كتاب ذي أجزاء متسلسلة متشابكة ، يجعلها مرجعاً لكل هذه الفنون . ثم إن معظم الأبواب والأقسام التي يشملها الكتاب هي من الأدب بالمعنى المفهوم منه في هذا العصر . أما الأبواب الباقية ، فإنها لا تخلو من نبذ الأدب خلواً تاماً . وخذ مثلاً (باب السماء) [٢٨/١] تجد فيه إلى جانب الأمثال وما نعتها به العرب من أسماء مختلفة ، أشعاراً قالتها العرب حول السماء والنجوم والفلك وكلها في منتهى الروعة والجمال تترنح لها المشاعر والأحاسيس وتطرب لها القلوب ، مما يجعل من هذا الباب ، جزءاً من الأدب له قيمته ووزنه من هذه الناحية . وكذلك حين ينقل لنا صفات الحيوانات ؛ بمختلف أنواعها[1] ، فإنه يأتي في هذا الصدد بنخبة مختارة من الأشعار قالتها

---

(١) نهاية ٢٣٦/٩

الشعراء حول هذه الحيوانات ، مثل قول بعض الشعراء على لسان أعرابي يصف الأسد :

عبوس شموس مصلخد مكابر جريء على الأقران للقرن قاهر

ثم تعقبه أقوال لشعراء آخرين مثل أبي الطيب المتنبي وعبد الجبار بن حمديس وبشر بن عوانة وكشاجم وغيرهم . وكلها تعد من أحسن ما يقال في هذا الموضوع . وهكذا في سائر الحيوانات ؛ من كلاب وغور وفهود وحمر وبغال وإبل وفيلة . ومنها ما يدبّ مثل الأفاعي والعقارب والضب والحرباء حتى الفئران والجرذان . ثم عمد إلى الطيور ؛ البغاث منها والمقلات والنزور ، ومنها الليلية والنهارية ، وغير ذلك من مختلف الأنواع والأقسام التي قيلت في وصفها الأشعار .

هذا من ناحية وصف الحيوانات ، فإذا فرغ من نقل الأشعار الوصفية ، بدأ في نقل الأشعار التي تتناول هذه الحيوانات بالذم . مثل (طرائف في ذم الخيل) و (الحمير والبغال) التي أتى فيها بأشعار تهجو الخيول لهزالها وضعفها وعدم سيرها ، أو عدم تحملها للمشقة وغيرها من المعايب التي تهجر من أجلها الخيول والبغال والحمير . وجميع هذه الأشعار جزلة رائعة .

فإن انتقلنا إلى الفن الثالث في الحيوان الصامت ، والفن الرابع الذي يبحث في النبات ، والفن الخامس الذي يختص بالتاريخ ، نجدها كلها تقريباً ، توشك أن تكون أدباً خالصاً ؛ فقد اشتمل الفن الثاني منها خاصةً ، على كثير من الأمثال ، وعلى كثير من أشعارهم التي تجري مجرى الأمثال ، وذلك من لدن امرئ القيس إلى العصر الذي عاش فيه النويري »[1] .

وهكذا نجد النويري قد أتى في جميع الأبواب والأقسام بطائفة من الأشعار في

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي ص ٣٢٠

غاية الروعة والجمال ، مما يضفي على هذه الأبواب قدراً من الصبغة الأدبية يطغى على الفن الذي تخضع هذه المادة له وتشتمل هذه النبذة عليه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن النويري لم يفكر في وضع كتابه هذا في الأدب بالمعنى المخصوص الذي حدده النقاد والعلماء قبل القرن الثالث الهجري ، بل وسع نطاقه وجعله بالمعنى العام الذي يشمل كل شيء ويأخذ منه بطرف ، وذلك على غرار التأليف الذي كان شائعاً في مصر في ذلك العصر .

فلنر مثلاً الفن الثالث (في الحيوان الصامت) فهو يشتمل على خمسة أقسام ، وفي هذه الأقسام الخمسة كلها كلام عن الحيوان من مختلف الأصناف والأقسام ؛ من السباع والوحوش والخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم ومن ذوات السموم والقواتل .. وذكر في الطيور سباع الطير وكلاب الطير وبهائم الطير ، مثلما ذكر الأسماك ومختلف أقسامها وآلات الصيد في البر والبحر ، ووصف رماة البندق وما يجري هذا المجرى . ولكن النويري أتى بجميع هذه المقتطفات على قدر الضرورة من غير إسهاب ممل وإطناب مُعْي ، بل في إطار من الجدة والابتكار ، تلذ له الأذهان وترتاح له القلوب .

وكذلك الحال في الفن الرابع (في النبات) ؛ فإنه أتى فيه بما ترتاح إليه النفوس ولا تمله أو تمجه . فقد أحسن وأجاد في نقله في الفن الخامس الذي يتعلق بالتاريخ ؛ ولكنه بمقارنته مع الفنون الأخرى يبدو فناً جامداً جافاً . إلاّ أن النويري وضع منهجه فيه على نحو يشوّق إلى قراءته كله .

فلنأخذ مثلاً القسم الأول منه : (في مبدأ خلق آدم وحواء وأخبارهما) ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرّس . فهذا الفصل بمجرد إلقاء نظرة عليه ، تشتاق إلى قراءته ، لما فيه من ندرة الخبر الذي يتوق إليه أكثر الناس ، وخاصة من لهم ذوق تاريخي مع ذوق أدبي . وهكذا أتى بقصص ووقائع جميع الأنبياء

والمرسلين ، من شيث بن آدم إلى لوط وقلب المدائن ، وغيرها من الأمور الهامة ، بطريقة لا تنفر منها الأذهان والقلوب ، بل تنجذب إليها وتهفو لها ، فيقرؤها المرء بكل سرور ، ويجد فيها من اللذة والمتعة قدراً ربما لا يجده في قراءة الأخبار المذكورة في كتب التاريخ الخاصة .

ذلك لأن النويري سرد هذه القصص وبيّن هذه الوقائع بطريقة تبعدها من كونها باباً من كتاب في التاريخ مثل سيرة ابن هشام أو الطبري أو البداية والنهاية ، بأن ذكرها وساقها وكأن المرء يقرأ في كتاب أدبي ، لأنه أورد ، بعد الأحداث والوقائع ، من الشعر والحكم البالغة والأمثال وغرر الكلام ، ما جعل ذلك كله أدباً .

ويبدو أن العصر الذي عاش فيه النويري ، ووضع فيه موسوعته هذه ، كان ينظر إلى الأدب نظرة العز والكرامة والتقدير ، وهذا ما لم يكن يحدث قبل ذلك . والسبب فيه أن الأدب كان إلى ذلك العصر مخزن معظم الفنون منطوياً على أكثر الموضوعات . وذلك ما يفهم من قول النويري نفسه ؛ فقد كان يريد أن يصبغ كتابه بالصبغة الأدبية . يقول :

« وبعد ، فمن أولى ما تدبجت به الطروس والدفاتر ، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر ، وأصدرته ذوو الأذهان السليمة ، وانتسبت إليه ذوو الأنساب الكريمة ، وجعله الكاتب ذريعة يتوصل بها إلى بلوّغ مقاصده ، ومحجة لا يضل سالكها في مصادره وموارده :

فنُّ الأدب ، الذي ماحل الكاتب بِواديه ، إلا وعمرت بَواديه ، ولا ورد مشارعه ، إلا واستعذب شرائعه ، ولا نزل بساحته ، إلا واتسعت له رحابها ، ولا تأمّل مشكلاته ، إلا وتبينت له أسبابها » [١/ ٢] .

ومن هنا يتجلى أن النويري ـ وعصره ـ كان ينظر إلى الأدب بعين العز

والاحترام . ولذلك اختار هذا النوع من الفنون المختلفة ، ليكون محور أعماله العلمية ، ومهوى جهوده المضنية ، ومركزاً لانتخابه ونقله واقتباسه .

ومهما يكن من شيء ، سواء نظرنا إلى كتاب النهاية بمفهوم الأدب قديماً ، أو بمفهومه الحديث ، فإننا لن نجد الكتاب خارجاً من نطاقه الأدبي في أي شيء .

وهل نجد دليلاً على كون النهاية موسوعة أدبية من الناحية الأساسية أحسن من قول المؤلف نفسه ؟ لا وها هو ذا النويري يسمي كتابه (كتاب أدب) . فلقد قال في النهاية الجزء ١٣ الصفحة ٥ (القسم الثالث من الفن الخامس في التاريخ) وهو يتحدث عن إدخال الذيول على هذا القسم مانصه :

« وإنما ذكرت هذا الذيل في هذا الموضع ـ وإن كان غير داخل في فن التاريخ ـ لأن النفوس لما كانت مائلة إلى الاطلاع على أخبار ما مضى من الزمان ، ومن سلف من الأمم ، فميلها إلى الاطلاع على ما يظهر في مستقبل الزمان أكثر ، وتشوقها إليه أوفر . فأوردت ماأذكره لهذا السبب ، ولأن كتابنا هذا ليس مبناه على مجرد التاريخ ، **بل هو كتاب أدب** ، لا تخرجه هذه الزيادة عن شرطه » .

وعلى كل حال فإنه يتوجب ألا يغرب عن البال أن النهاية موسوعة قبل كل شيء . وليس من شأنها أن تقتصر على فن دون فن ، فلها رسالة أكثر أهمية وخطورة . وهي أن تكون سجلاً حافلاً لكل شيء على وجه الأرض . ولكون صاحبها قد جبل على حبه للأدب ، أتى بهذه الأشياء كلها في إطار من الأدب ، وأكد كونه كتاب أدب تأكيداً يجعلنا لا نتعدى الحقيقة إذا قلنا إن كتابه موسوعة أدبية .

وإننا في قولنا هذا إنما نتتبع آثار من سبقنا من العلماء الكبار ممن أعقبوه ، فقد وصفوا كتابه هذا بأنه عمل أدبي ، عول عليه العلماء والأدباء . يقول ابن

فضل الله العمري صاحب كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، مانصه :

« كان الباعث عليها (أي على نقل الكتب القديمة وجمع الفنون في سجل حافل) كما قلنا هو جمع المعارف الإنسانية كلها في إطار من الأدب مرة ، كما في نهاية الأرب للنويري ، ومن الجغرافية ، كما في كتاب مسالك الأبصار ، ومن الكتابة الديوانية مرة ثالثة ، كما في كتاب صبح الأعشى »[١] .

وفي عصرنا هذا يقول محمود رزق سليم في كتابه (عصر سلاطين المماليك) :

« ... ويعدّ (أي نهاية الأرب) أحد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة ، وهو عمدة بين الكتب كذلك ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين والأدباء قديماً وحديثاً »[٢] .

تلك هي كلمات أوردناها عن المؤلف وعن الأوضاع التي ألف فيها كتابه .

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٠٠٣

(٢) الجزء التاسع منه .

الباب الثاني

تقديم الكتاب والتعريف به

في هذه الظروف والأوضاع ، وضع النويري كتابه الشهير (نهاية الأرب في فنون الأدب) في ثلاثين مجلداً ضخماً . وهو بحق (موسوعة أدبية) أو (دائرة معارف أدبية) ، لأنه يحوي كل شيء تحت السماء وفوق أديم الأرض ، من العلوم والفنون ، والآداب والمعارف ، والمرئيات والمحسوسات ، وكل ما يتعلق بالإنسان وحياته ، ومعاشه ومعاشرته .

ويطيب لنا قبل أن نخوض غمار البحث في العلوم والفنون والموضوعات ، التي تناولها شهاب الدين النويري ، في موسوعته الضخمة هذه ، وننقب عن المصادر التي اقتبس منها ، والمراجع التي عول عليها في النقل والأخذ ، والينابيع التي استقى منها معلوماته ومواده حول هذه العلوم والفنون ... أن نقدم الكتاب أولاً ، ثم نعطي تلخيصاً لبعض الفنون فيه لتكون نموذجاً ومثالاً لنهجه ؛ إذ أنه سلك المسلك نفسه ، وانتهج النهج نفسه في سائر الفنون الخمسة من كتابه ، ماعدا الفن الخامس الذي يشتمل على التاريخ ؛ فإن نهجه فيه يختلف بعض الشيء وسنلمح إليه في نهاية تلخيصنا الآتي .

وضع النويري موسوعته في ثلاثين مجلداً ، بحسب اتفاق كلمة الرواة وأصحاب السير الذين تناولوا ذكره بالكتابة عنه قديماً وحديثاً ، مثل الحاج خليفة شلبي صاحب (كشف الظنون) [٦١٩/٢] ، وابن تغري بردي صاحب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) [٢٩٩/٩] ، وصاحبه كمال الدين

جعفر الأدفوي صاحب (الطالع السعيد) [ص ٤٦ حرف أح رقم ٥١] ، وابن حجر العسقلاني صاحب (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) ، من القدماء . وجرجي زيدان صاحب (تاريخ آداب اللغة العربية) [٢٢٥/٣] ، والدكتور عبد اللطيف حمزة صاحب (القلقشندي في كتابه صبح الأعشى) من الكتّاب الجدد .

وظلت هذه المجلدات الضخمة في طي النسيان في غياهب المكتبات حتى عثر الأستاذ أحمد زكي باشا على كامل نسخها في مكتبات آستانة فنقلها بالتصوير الشمسي في نحو ٤٤٠٠ صفحة .

وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة ، نسختان من هذا الكتاب :

النسخة الأولى مصورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة كبريلي بالآستانة ، وتتألف من واحد وثلاثين جزءاً ، محفوظة بالدار تحت رقم ٥٤٩ (معارف عامة) .

أما خط النسخة الأصلية فإنه مكتوب بقلم معتاد واضح ، وعناوين الفصول والأبواب بخط الثلث . وهي مكتوبة بخطوط مختلفة . وأكثر أجزائها بخط (نور الدين بن شرف الدين العملي) كتبها بين سنتي ٩٦٦ و ٩٦٧ هـ . وفي كل صفحة خمسة وثلاثون سطراً ، ومتوسط كلمات السطر خمس عشرة كلمة .

أما الثانية فهي نسخة مصورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة (أياصوفيا) بالآستانة أيضاً . وهي تتألف من واحد وثلاثين جزءاً . وفي دار الكتب المصرية منها ثمانية عشر جزءاً غير متصلة ، تحت رقم ٥٥١ (معارف عامة) ، وبآخر كل جزء منها عبارة تشير إلى أنها بخط المؤلف ، كتب بين سنتي ٧٢١ و ٧٣٠ هـ تقريباً . وعناوين الفصول والأبواب فيها بخط الثلث . وتحتوي كل صفحة على سبعة عشر سطراً ، ومتوسط كلمات كل سطر ثماني كلمات . وفي أول كل جزء

منها وقف للكتاب على المكتبة المحمودية التي أنشأها محمود الأستادار بخط الموازنيين بالقاهرة ، وتاريخ هذه الوقفية ٧٩٧ هـ أي بعد ٦٤ سنة من وفاة المؤلف .

وعدا هاتين النسختين من الكتاب ، توجد بالدار قطعتان مصورتان من الجزء الثامن كلّ على حدة ، الأولى برقم ٤١٦ (معارف عامة) وهي تنتهي في صفحة ٦٩ من الجزء الثامن . والثانية تحت رقم ٥٥١ (معارف عامة) . بالإضافة إلى جزء كامل منه مأخوذ أيضاً بالتصوير الشمسي ومحفوظ بالدار تحت رقم ٢٥٧٠ (تاريخ) . وقد بلغ التصحيف والتحريف في العبارة ، والتعقيد والغموض في المعاني ، مبلغاً أعيا المصححين إصلاحه وتقويمه . فبعد جهد جهيد ومشقة بالغة ، وإدمان النظر الدقيق في المراجع والمصادر والرجوع بكل انتباه وحذر إلى المظان ، تمكنوا من تصحيحه وتوضيح ما غمض من الألفاظ والعبارات .

وكذلك يشاهد في جميع النسخ كثير من الغموض والتحريف والإبهام ، حتى في النسخة التي يقال إنها بخط المؤلف ، وهي النسخة الثانية كما أشرنا سابقاً . وقد حاولت الدار استحضار بقية أجزاء هذه النسخة من المكتبات المختلفة لاستكمال النسخة .

ومن جملة الأيادي ـ وهي كثيرة ـ لمصر الرائدة في نهضة العلم والمعارف في العالم العربي بأسره ، خدمةً للعلماء والبحاثة والمتعطشين للارتواء من منهل النويري ، أنها آلت على نفسها أن تخرج هذه الموسوعة القيمة من ظلام غرف المخطوطات إلى النور ، فعهدت بمهمة تصحيح الأجزاء ، وتقويم تحريفها ، وتصحيحها ، ثم طباعتها في أحسن صورة جذابة ممكنة ، إلى دار الكتب المصرية بالقاهرة . وقامت الدار ـ والحق يقال ـ بهذه المهمة خير قيام . وبدأت طباعة هذه الأسفار ، وتمت طباعة الجزء الأول من الكتاب في سنة ١٩٢٠ ، لتستمر طباعة الأجزاء التالية تباعاً ، إلى أن طبع ثمانية عشر جزءاً من هذا الكتاب إلى الآن .

وبهذا الجزء تنتهي السيرة النبوية الشريفة . ولا تزال الأجزاء الباقية تخرج من أيدي التصحيح والتقويم لترى النور في أبهى حللها وأحسن صورها ، كلما كمل جزء من الأجزاء الباقية .

وقد قام بتصحيح وتقويم أجزاء الكتاب المطبوعة ، القسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، بإشراف نخبة مختارة من أفاضل المصححين والعلماء ، فأتت الأجزاء مستقيمة واضحة المعاني والمطالب ، جميلة الصورة والمظهر ، فيستحقون منا أجزل الشكر لما بذلوه من جهود جبارة ، وأخلص التقدير لما تحملوه من مشاق وصعوبات في إنجاز هذه المهمة العلمية الهامة على أحسن وجه ممكن .

رتّب النويري كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) في خمسة فنون ؛ الفن الأول منها في السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية ، والثاني في الإنسان وما يتعلق به ، والثالث في الحيوان ، والرابع في النبات ، والخامس في التاريخ .

والجدير بالذكر أن النويري قسم كتابه هذا قسمين اثنين : القسم الأدبي ، وهو يبدأ بالجزء الأول من الكتاب وينتهي بانتهاء الجزء الخامس عشر ، وبه يختتم الباب الخامس من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ ، الذي يبحث في أيام العرب ووقائعها في الجاهلية [١٥/٣٣٨ـ٤٣١] .

والقسم التاريخي الذي يبدأ به الجزء السادس عشر من الكتاب وقد استهله بالقسم الخامس من الفن الخامس في التاريخ وهو يتناول (أخبار الملة الإسلامية ، وذكر شيء من سيرة نبينا محمد ﷺ ، وأخبار الخلفاء من بعده ، وأخبار الدولة الأموية والعباسية والعلوية ، ودول ملوك الإسلام وأخبارهم وما فتح الله عليهم) .

بدأ النويري القسم التاريخي من كتابه ، بذكر سيرة سيدنا محمد ﷺ ، التي تناولها في الجزء السادس عشر ، واستمر في سردها إلى نهاية الجزء الثامن عشر ،

ليبدأ في الجزء التاسع عشر أخبار الخلفاء الراشدين والدول المتعاقبة بعدهم .

لقد بسط المؤلف القول في سيرته ﷺ ، فبدأ بـذكر نسبـه ونسب آبـائـه ، ثم سيرته من يوم مولده إلى وفاته ، متناولاً جميع الأحـداث التي وقعت في حيـاتـه ، والمشـاهـد التي اقترنت بجهـاده ، مع ذكر أخبـاره مع الوفود المختلفـة ، وكتبـه مع دعوتـه إلى مختلف الملوك ، مع الـذكر لشمائلـه ومعجزاتـه ، جـامعـاً مستـوعبـاً في تفصيـل محكم وتبـو يب متنـاسـق ، معتمـداً في ذلـك على النقـل من كتب السير والمغازي وتواريخ الصحابة وأمهات كتب التفسير وكتب الحـديث . ومن الكتب التي نقل منها ، كتب لم يسبق نشرها بعـد ، ومنهـا مـالم يعثر لهـا على أثر ، فقـد لعبت بها يد الحدثان فأصبحت من أحاديث الماضي وأخبار الركبان .

توزيع الكتاب في فنون وأقسام

وضع النويري لموسوعته هـذه خطـة منسقـة ومنهجـاً دقيقـاً ، لا يحيـد عنـه ولا يتحول ، وتنظيماً للعلوم والفنون والموضوعات ، قلمـا يوجـد في كتب الأدبـاء قبل هذا العصر . فكتبهم كانت قد « بنيت على الفوضى وجمع المعلومـات من هنـا وهناك ، والاستطراد في ذكر هـذه المعلومـات ، أو الانتقـال من بعضهـا إلى بعض لأدنى مناسبة »[1] فوزّع كتابه على خمسة فنون ، وكل فن على خمسة أقسـام ، وكل قسم إلى أبواب ، وإن دعت الحاجة قسم كل باب إلى فصول . وأحيانـاً كان يـذيل باباً خاصاً بعينه لمعلومات لم تكن لتأتي ضمن مواد ذلك البـاب ، ويشير إلى ذلـك في الباب نفسـه . وذاك لكي يستوفي الموضوع من جميع النواحي . وعلى هـذا فـإن الكتاب يشتمل على خمسة فنون و ٢٥ قسماً و ١٣٩ باباً . فـإن أضفنـا إليـه الأبواب الأربعة من تذييل القسم الثالث من الفن الخامس يصبح عـدد الأبواب ١٤٣ بـابـاً و ٢٧ فصلاً مع الذيلين . وذلك على الوجه التالي :

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة ، القلقشندي ص ١٨

الفن الأول ـ في السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية

ويشتمل على خمسة أقسام هي :

القسم الأول ـ في السماء وما فيها

وفيه خمسة أبواب ، هي :

الباب الأول ـ في مبدأ خلق السماء

الباب الثاني ـ في هيئتها

الباب الثالث ـ في الملائكة

الباب الرابع ـ في الكواكب السبعة

الباب الخامس ـ في الكواكب الثابتة

القسم الثاني ـ في الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في السحاب وسبب حدوثه ، وفي الثلج والبرد

الباب الثاني ـ في الصواعق والنيازك والرعد والبرق

الباب الثالث ـ في اسطقس الهواء

الباب الرابع ـ في اسطقس النار وأسمائها

القسم الثالث ـ في الليالي والأيام والشهور والأعوام والفصول ، والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في الليالي والأيام

الباب الثاني ـ في الشهور والأعوام

الباب الثالث ـ في الفصول

الباب الرابع ـ في المواسم والأعياد

القسم الرابع ـ في الأرض والجبال ، والبحار والجزائر ، والأنهار والعيون

وفيه سبعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في مبدأ خلق الأرض

الباب الثاني ـ في تفصيل أسماء الأرض

الباب الثالث ـ في طول الأرض ومساحتها

الباب الرابع ـ في الأقاليم السبعة

الباب الخامس ـ في الجبال

الباب السادس ـ في البحار والجزائر

الباب السابع ـ في الأنهار والغدران والعيون

القسم الخامس ـ في طبائع البلاد وأخلاق سكانها وخصائصها ، والمباني القديمة والمعاقل والقصور والمنازل

وفيه خمسة أبواب هي :

الباب الأول ـ في طبائع البلاد وأخلاق سكانها

الباب الثاني ـ في خصائص البلاد

الباب الثالث ـ في المباني القديمة

الباب الرابع ـ فيما وصفت به المعاقل

الباب الخامس ـ فيما وصفت به القصور والمنازل (وبانتهاء هذا الباب الخامس ينتهي الجزء الأول من مطبوع النهاية)

الفن الثاني ـ في الإنسان وما يتعلق به

ويشتمل على خمسة أقسام ، هي :

القسم الأول ـ في اشتقاقه وتسميته ، وتنقلاته ، وطبائعه ، ووصف أعضائه وتشبيهها ، والغزل والنسيب والمحبة والعشق والهوى ، والأنساب .

وفيه أربعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في اشتقاقه وتسميته وتنقلاته وطبائعه .

الباب الثاني ـ في وصف أعضائه وتشبيهها ، وما وصف به طيب الريق والنكهة وحسن الحديث والنغمة ، واعتدال القدود ، ووصف مشي النساء .

الباب الثالث ـ في الغزل والنسيب والهوى والمحبة والعشق .

الباب الرابع ـ في الأنساب (وبانتهاء هذا الباب ينتهي الجزء الثاني من مطبوع النهاية) .

القسم الثاني ـ في الأمثال المشهورة عن النبي ﷺ ، وعن جماعة من الصحابة ، والمشهور من أمثال العرب وأوابد العرب ، وأخبار الكهنة ، والزجر والفأل والطيرة ، والفراسة والذكاء ، والكنايات والتعريض والأحاجي والألغاز .

وفيه خمسة أبواب هي :

الباب الأول ـ في الأمثال .

الباب الثاني ـ في أوابد العرب .

الباب الثالث ـ في أخبار الكهنة والزجر والفأل والطيرة والفراسة والذكاء .

الباب الرابع ـ في الكنايات والتعريض .

الباب الخامس ـ في الأحاجي والألغاز .

القسم الثالث ـ في المدح والهجو والمجون والفكاهات والملح والخمر والمعاقرة والندمان والقيان ووصف آلات الطرب .

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول ـ في المدح ، وفيه ثلاثة عشر فصلاً وهي :

الفصل الأول : حقيقة المدح وما قيل فيه .

الفصل الثاني : ما قيل في الجود والكرم وأخبار الكرام .

الفصل الثالث : ما قيل في الإعطاء قبل السؤال .

الفصل الرابع : ما قيل في الشجاعة والصبر والإقدام .

الفصل الخامس : ما قيل في وفور العقل .

الفصل السادس : ما قيل في الصدق .

الفصل السابع : ما قيل في الوفاء والمحافظة .

الفصل الثامن : ما قيل في التواضع .

الفصل التاسع : ما قيل في القناعة والنزاهة .

الفصل العاشر : ما قيل في الشكر والثناء .

الفصل الحادي عشر : ما قيل في الوعد والإنجاز .

الفصل الثاني عشر : ما قيل في الشفاعة .

الفصل الثالث عشر : ما قيل في الاعتذار والاستعطاف .

الباب الثاني ـ في الهجاء

وفيه أربعة عشر فصلاً هي :

الفصل الأول : ما قيل في الهجاء ومن يستحقه .

الفصل الثاني : ما قيل في الحسد .

الفصل الثالث : ما قيل في السعاية والبغي .

الفصل الرابع : ما قيل في الغيبة والنميمة .

الفصل الخامس : ما قيل في البخل واللؤم وأخبار البخلاء واحتجاجهم .

الفصل السادس : ما قيل في التطفل ويتصل به أخبار الأكلة والمؤاكلة .

الفصل السابع : ما قيل في الجبن والفرار .

الفصل الثامن : ما قيل في الحمق والجهل .

الفصل التاسع : ما قيل في الكذب .

الفصل العاشر : ما قيل في الغدر والخيانة .

الفصل الحادي عشر : ما قيل في الكبر والعجب .

الفصل الثاني عشر : ما قيل في الحرص والطمع .

الفصل الثالث عشر : ما قيل في الوعد والمطل .

الفصل الرابع عشر : ما قيل في العي والحصر (وبانتهاء هذا الفصل ينتهي الجزء الثالث من مطبوع النهاية) .

الباب الثالث ـ في المجون والنوادر والفكاهات والملح .

الباب الرابع ـ في الخمر وتحريمها وآفاتها وجناياتها وأسمائها ، وأخبار من تنزه عنها في الجاهلية ، ومن حُدَّ فيها من الأشراف ومن اشتهر بها ولبس ثوب الخلاعة بسببها ، وما قيل فيها من جيد الشعر ، وما قيل في وصف آلاتها وآنيتها ، وما قيل في مبادرة اللذات ، وما وصفت به المجالس ، وما يجري هذا المجرى .

الباب الخامس ـ في الندمان والسقاة .

الباب السادس ـ في الغناء والسماع ، وما ورد في ذلك من الحظر والإباحة ،

ومن سمع الغناء من الصحابة والتابعين والأئمة والعباد والزهاد ، ومن غنى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقواد والأكابر ، وأخبار المغنين ممن نقل الغناء من الفارسية إلى العربية . (وفي أواسط هذا الباب ينتهي الجزء الرابع من مطبوع النهاية) .

الباب السابع ـ فيما يحتاج إليه المغني ويضطر إلى معرفته ، وما قيل في الغناء وما وصفت به القيان وما وصفت به آلات الطرب .

القسم الرابع ـ في التهاني والبشائر والمراثي والنوادب والزهد والتوكل والأدعية

وفيه أربعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في التهاني والبشائر .

الباب الثاني ـ في المراثي والنوادب .

الباب الثالث ـ في الزهد والتوكل .

الباب الرابع ـ في الأدعية (وبانتهاء هذا الباب ينتهي الجزء الخامس من مطبوع النهاية) .

القسم الخامس ـ في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج إليه وما يجب على الرعية وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء وقادة الجيوش وأوصاف السلاح وولاة المناصب الدينية والكتاب والبلغاء .

وفيه أربعة عشر باباً هي :

الباب الأول ـ في شروط الإمامة : الشرعية والعرفية .

الباب الثاني ـ في صفات الملك وأخلاقه ، وما يفضل به على غيره ، وذكر

ما نقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالة على علو همتهم وكرم شيمتهم .
الباب الثالث ـ فيما يجب للملك على الرعـايـا من الطـاعـة والنصيحـة والتعظيم والتوقير .
الباب الرابع ـ في وصايا الملوك .
الباب الخامس ـ فيما يجب على الملك للرعايا .
الباب السادس ـ في حسن السياسة وإقامـة المملكـة ، ويتصل بـه الحزم والعزم وانتهاز الفرصة والحلم والعفو والعقوبة والانتقام .
الباب السابع ـ في المشورة وإعمال الرأي والاستبـداد ، ومن يعتمـد على رأيـه ، ومن كره أن يستشير .
الباب الثامن ـ في حفظ الأسرار والإذن والحجاب .
الباب التاسع ـ في الوزراء وأصحاب الملك
البـاب العـاشر ـ في قـادة الجيوش والجهـاد ومكايـد الحروب ووصف الـوقـائـع والرباط وما قيل في أوصاف السلاح
الباب الحادي عشر ـ في القضاة والحكام
الباب الثاني عشر ـ في ولاية المظالم وهي نيابة دار العدل
الباب الثالث عشر ـ في نظر الحسبة وأحكامها (وبـانتهـاء هـذا البـاب ينتهي الجزء السادس من مطبوع النهاية)
البـاب الرابع عشر ـ في ذكر الكتـاب والبلغـاء والكتـابـة ومـا تفرع عنهـا من الوظائف والكتابات وهي كتابة الإنشاء وكتابة الديوان والتصرف وكتابة الحكم والشروط وكتابة النسخ وكتابـة التعليم (استغرق هـذا البـاب الجزأين السـابع والثامن وبعض التاسع من مطبوع النهاية)

الفن الثالث ـ في الحيوان الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام هي :

القسم الأول ـ في السباع وما يتصل بها من جنسها

وفيه ثلاثة أبواب هي :

الباب الأول ـ في الأسد والببر والنمر

الباب الثاني ـ في الفهد والكلب والذئب والضبع والنمس

الباب الثالث ـ في السنجاب والثعلب والدب والهر والخنزير

القسم الثاني ـ في الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها

وفيه ثلاثة أبواب هي :

الباب الأول ـ فيما قيل في الفيل والكركدن والزرافة والمهاة والإيل

الباب الثاني ـ في الحمر الوحشية والوعل واللمط

الباب الثالث ـ فيما قيل في الظبي والأرنب والقرد والنعام

القسم الثالث ـ وفيه ثلاثة أبواب هي :

الباب الأول ـ في الخيل (وفي أواسط هذا الباب ينتهي الجزء التاسع من مطبوع النهاية)

الباب الثاني ـ في البغال والحمير

الباب الثالث ـ في الإبل والبقر والغنم

القسم الرابع ـ وفيه بابان :

الباب الأول ـ في ذوات السموم القواتل

الباب الثاني ـ فيما هو ليس بقاتل بفعله من ذوات السموم

القسم الخامس ـ وفيه سبعة أبواب ، ستة منها في الطير ، وباب في السمك ، وباب ثامن هو ذيل أورد فيه ما قيل في آلات صيد البر والبحر :

الباب الأول ـ في سباع الطير ، وهي : العقبان والبوازي والصقور والشواهين

الباب الثاني ـ في كلاب الطير ، وهي : النسر والرخم والحدأة والغراب

الباب الثالث ـ في بهائم الطير ، وهي : الدراج والحبارى والطاووس والديك والدجاج والإوز والبط والنحام والأنيس والقاوند والخطاف والقيق والزرزور والسمانى والهدهد والعقعق والعصافير

الباب الرابع ـ في بغاث الطير وهو : القمري والدبسي والورشان والفواخت والشفنين والعبطبط والنواح والقطاة واليمام وأصنافه والببغاء

الباب الخامس ـ في الطير الليلي وهو : الخفاش والكروان والبوم والصدى

الباب السادس ـ في الهمج وهو : النمل والزنبور والعنكبوت والجراد ودود القز والذباب والبعوض والبراغيث والحرقوص

الباب السابع ـ في أنواع الأسماك

الباب الثامن ـ (وهو ذيل) يشتمل على ذكر شيء مما وصفت به آلات الصيد في البر والبحر ووصف رماة البندق وما يجري هذا المجرى (وبانتهاء هذا الباب ينتهي الجزء العاشر من مطبوع النهاية)

الفن الرابع ـ في النبات

ويشتمل على خمسة أقسام (وقد ذيل على هذا الفن في القسم الخامس بشيء من أنواع الطيب والبخورات والغوالي والندود والمستقطرات وغير ذلك) :

القسم الأول ـ في أصل النبات ، وما تختص به أرض دون أرض (ويتصل به ذكر الأقوات والخضراوات والبقولات)

وفيه ثلاثة أبواب هي :

الباب الأول ـ في أصل النبات وترتيبه

الباب الثاني ـ فيما تختص به أرض دون أرض وما يستأصل شأفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة

الباب الثالث ـ في الأقوات والخضراوات والبقولات

القسم الثاني ـ في الأشجار

وفيه ثلاثة أبواب هي :

الباب الأول ـ فيما لثمره قشر لا يؤكل

الباب الثاني ـ فيما لثمره نوى لا يؤكل

الباب الثالث ـ فيما ليس لثمره قشر ولا نوى

القسم الثالث ـ في الفواكه المشمومة

وفيه بابان ، هما :

الباب الأول ـ فيما يشم رطباً ويستقطر ، ويشتمل على أربعة أنواع وهي : الورد والنسرين والخلاف والنيلوفر

الباب الثاني ـ فيما يشم رطباً ولا يستقطر ، ويشتمل على ماقيل في البنفسج والنرجس والياسمين والآس والزعفران والحبق

القسم الرابع ـ في الرياض والأزهار (ويتصل به الصموغ والأمنان والعصائر)

وفيه أربعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في الرياض وما وصفت به نظماً ونثراً

الباب الثاني ـ في الأزهار وما وصفت به

الباب الثالث ـ في الصموغ (وفيه ثمانية وعشرون صنفاً)

الباب الرابع ـ في الأمنان (وبانتهاء هذا البـاب ينتهي الجزء الحـادي عشر من مطبوع النهاية)

القسم الخـامس ـ في أصنــاف الطيب والبخـورات والغـوالي والنــدود والمستقطرات والأدهان والنضوحات وأدوية الباه والخواص

وفيه أحد عشر باباً هي :

الباب الأول ـ في المسك وأنواعه

الباب الثاني ـ في العنبر وأنواعه ومعادنه

الباب الثالث ـ في العود وأصنافه وأنواعه ومعادنه

الباب الرابع ـ في الصندل وأصنافه ومعادنه

الباب الخامس ـ في السنبل الهندي وأصنافه والقرنفل وجوهره

الباب السادس ـ في القسط وأصنافه

الباب السابع ـ في عمل الغوالي والندود

الباب الثامن ـ في عمل الرامك والسك من الرامك والأدهان

الباب التاسع ـ في عمل النضوحات والمياه المستقطرة وغير المستقطرة

الباب العاشر ـ في الأدوية التي تزيد في الباه وتلذذ الجماع وما يتصل بذلك

الباب الحادي عشر ـ فيما يفعل بالخاصية (وبـانتهـاء هـذا البـاب ينتهي الجزء الثاني عشر من مطبوع النهاية)

الفن الخامس ـ في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام هي :

القسم الأول ـ في مبدأ خلق آدم عليه السلام وحواء وأخبارهما ، ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ .

وفيه ثمانية أبواب هي :

الباب الأول ـ في مبدأ خلق آدم عليه السلام ، وموسى عليه السلام وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتها

الباب الثاني ـ في خبر شيث بن آدم عليهما السلام وأولاده

الباب الثالث ـ في أخبار إدريس النبي عليه السلام

الباب الرابع ـ في قصة نوح عليه السلام وخبر الطوفان

الباب الخامس ـ في قصة هود عليه السلام مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم

الباب السادس ـ في قصة صالح عليه السلام مع ثمود ، وعقرهم الناقة وهلاكهم

الباب السابع ـ في أخبار أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وهلاكهم

الباب الثامن ـ في أخبار أصحاب الرسّ وما كان من أمرهم

القسم الثاني ـ في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وخبره مع نمرود وقصة لوط وخبر إسحاق ويعقوب وقصة يوسف وأيوب وذي الكفل وشعيب عليهم السلام

وفيه سبعة أبواب هي :

الباب الأول ـ في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأخبار نمرود بن كنعان

الباب الثاني ـ في خبر لوط عليه السلام مع قومه وقلب المدائن

الباب الثالث ـ في خبر إسحاق ويعقوب عليهما السلام

الباب الرابع ـ في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام

الباب الخامس ـ في قصة أيوب عليه السلام وابتلائه وعافيته

الباب السادس ـ في خبر ذي الكفل بن أيوب عليهما السلام

الباب السابع ـ في خبر شعيب عليه السلام وقصته مع مدين

القسم الثالث ـ يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون وخبر يوشع ومن بعده وحزقيل وإلياس واليسع وعيلا

وأشمويل وطـالوت وجـالوت وداود وسليمـان بن داود وشعيـا وأرميـا وخبر بخت نصر وخراب بيت المقدس وعمارته.ومـا يتصل بـذلـك من خبر عـزير وقصــة يــونس بن متّى وخبر بلــوقيــا وزكريــا ويحيي وعمران ومريم وعيسى عليهم السـلام وقصص الحـواريين ومـا كان من أمرهم فيمن أرسلوا إليه وخبر جرجيس .

ويشتمل هـذا القسم على ستـة أبواب ، وقـد ذيَّـل على هـذا القسم ذيـلاً يشتمل على أربعة أبواب ، ذكر فيها ماقيل في الحوادث التي تظهر قبل نـزول عيسى عليـه السـلام إلى الأرض ومـدة إقـامتــه بهـا ووفـاتـه وما يكون بعده ، وشيئاً من أخبار الحشر والمعاد .

البـاب الأول ـ في قصـة مـوسى بن عمران وهـارون وغرق فرعـون وأخبـار بني إسرائيـل ، وأخبـار قـارون ، وخبر بلعم بن بـاعـوراء والجبـارين وغير ذلــك (وبانتهاء هذا الباب ينتهي الجزء ١٣ من مطبوع النهاية)

الباب الثاني ـ فيا كان بعـد موسى بن عمران عليـه السلام من أخبـار يوشع بن النون ومن بعـده وخبر حزقيل وإليـاس واليسع وعيـلا وأشمـويـل وطـالـوت وجالوت وداود وسليمان

الباب الثالث ـ في أخبـار شعيـا وأرميـا وخبر بخت نصر وخرّاب بيت المقـدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عزير

الباب الرابع ـ في قصة ذي النون يونس بن متى عليه السلام وخبر بلوقيا

الباب الخامس ـ في خبر زكريـا ويحيي وعمران ومريم ابنتـه ، وعيسى بن مريم عليهما السلام

الباب السادس ـ في أخبار الحواريين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام ، وما كان من أمرهم بعد رفعه وخبر جرجيس

التذييل على هذا القسم : ويشتمل على أربعة أبواب :

الباب الأول ـ في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم

الباب الثاني ـ في خبر نزول عيسى إلى الأرض ، وقتل الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ووفاة عيسى عليه السلام

الباب الثالث ـ في ذكر مايكون بعد وفاة عيسى بن مريم إلى النفخة الأولى

الباب الرابع ـ في أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية في الصور .

القسم الرابع ـ في أخبار ملوك الأصقاع وملوك الأمم والطوائف وخبر سيل العرم ووقائع العرب في الجاهلية

وفيه خمسة أبواب هي :

الباب الأول ـ في أخبار ذي القرنين المذكور في سورة الكهف

الباب الثاني ـ في أخبار ملوك الأصقاع وهم : ملوك مصر والهند والصين وجبل الفتح (وفي أواسط هذا الباب ينتهي الجزء ١٤ من مطبوع النهاية) .

الباب الثالث ـ في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم وهم : ملوك الفرس الأول ، وملوك الطوائف منهم والملوك الساسانية وملوك اليونان والسريان والكلدانيين والصقالبة والبوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان

الباب الرابع ـ في أخبار ملوك العرب (ويتصل به خبر سيل العرم)

الباب الخامس ـ في أيام العرب ووقائعها في الجاهلية (وبانتهاء هذا الباب ينتهي الجزء ١٥ من مطبوع النهاية وهو آخر الأجزاء الأدبية من الكتاب)

القسم الخامس ـ في أخبار الملة الإسلامية وذكر شيء من سيرة نبينا محمد ﷺ ، وأخبار الخلفاء من بعده رضي الله عنهم وأخبار الدولة الأموية والعباسية والعلوية ودول ملوك الإسلام وأخبارهم وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم

وفيه اثنا عشر باباً هي :

الباب الأول ـ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (وقد استغرق هذا الباب الأجزاء ١٦ و ١٧ و ١٨ من مطبوع النهاية حتى إعداد هذا البحث)

الباب الثاني ـ في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابنه الحسن رضي الله عنهم أجمعين

الباب الثالث ـ في أخبار الدولة الأموية بالشام وغيره

الباب الرابع ـ في أخبار الدولة العباسية بالعراق ومصر

الباب الخامس ـ في أخبار الدولة الأموية بالأندلس ، وأخبار الأندلس بعد انقراض الدولة الأموية

الباب السادس ـ في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومن وليهما من العمال ومن استقل منهم بالملك .

الباب السابع ـ في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين في مدة الدولتين : الأموية والعباسية ، فقتل دونها بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما

الباب الثامن ـ في أخبار صاحب الزنج والقرامطة والخوارج بالموصل

الباب التاسع ـ في أخبار من استقل بالملك والممالك بالبلاد الشرقية والشمالية في خلال الدولة العباسية وهم : ملوك خراسان ، وما وراء النهر والجبال

وطبرستان وغزنة والغور وبلاد السند والهند كالدولة السامانية والصفارية والغزنوية والغورية والديلمية الختلية

الباب العاشر ـ في أخبار ملوك العراق وما والاه وملوك الموصل والديار الجزيرية والبكرية والبلاد الشامية والحلبية : كالدولة الحمدانية والديلمية البويهية والسلجقية والأتابكية .

الباب الحادي عشر ـ في أخبار الدولة الخوارزمية والجنكز خانية وهي دولة التتار وما تفرع منها

الباب الثاني عشر ـ في أخبار ملوك الديار المصرية الذين ملكوا في خلال الدولة العباسية نيابة عن خلفائها وهم : الملوك العبيديون الذين انتسبوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وما كان من أمرهم ، وما ملكوه من بلاد المغرب وكيف استولوا على الديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والثغور والسواحل وغير ذلك إلى أن انقرضت دولتهم ، وقيام الدولة الأيوبية وأخبار ملوكها بمصر والشام إلى حين انقراضها ، وقيام دولة الترك ، ومن ملك منهم من أبنائهم وما حازوه من الأقاليم وما فتحوه من الممالك وغير ذلك من أخبارهم ، وما استقر في ملك ملوك هذه الدولة إلى حين وضْعنا لهذا التأليف في سنة .... وسبع مئة « في أيام مولانا السلطان السيد الأجل المالك الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين ، أبي المظفر قلاوون الصالحي ، خلد الله ملكه على ممر الزمان ، وسقى عهد والده صوب الرحمة والرضوان ، ببركة سيد ولد عدنان » .

إلى هنا ينتهي توزيع الكتاب في الفنون والأقسام والأبواب والفصول والذيول وبه ينتهي الكتاب أيضاً .

الباب الثالث

دراسة تحليلية
لطريقة النويري في تلخيص الكتب

يستهل النويري الفنون الخمسة من كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) بمقدمة يكتبها هو عادة بنفسه . أما الأقسام والأبواب والذيول أنى توجد فإنه إما أن يكتبها بنفسه كمقدمات الفنون ، أو يعمد إلى نظمها من الكتب التي يقتبس منها معلوماته أو مواده حول هذه الأقسام والأبواب والذيول ، فيذكر أولاً ماحواه فن معين من الفنون المختلفة من موضوع ، وهذا الموضوع من أقسام ، وهذه الأقسام من أبواب وفصول وذيول ، وما يشتمل عليه كل قسم في مادة خاصة ، وكل فصل من علم ومعرفة معينة .

ولنأخذ على سبيل المثال مقدمته حول (الفن الأول) في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية ، فقد كتب هذه المقدمة بنفسه يشرح فيها مايحتوي هذا الفن من موضوعات وفصول وأقسام تتعلق بالسماء فيقول : [١/٢٧]

« قد أوردت في هذا الفن نبذة من (وصف السماء) التي هي قبلة الدعاء أو باب الرجاء ، (والكواكب السيارات) ذوات السنا والسناء ، (والملائكة) الذين هم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، (والسحب) التي تجود بوبلها ، فتعدل في قسمها بين السهل والقفار ، (والرعد) الذي إن دنت يحثها ، (والريح) التي إن اجتمعت يبثها ، (والبرق) الذي شبه ببنان الحاسب والكف الخضيب ، والثلج الذي خلع على الأرض رداء المشيب ، (وقوس السحاب) الذي تنكبه الجو

فأفرغ عليه مصبغات الحلل ، ورمى الجدب ببنادق البَرَد فتباشرت بالخصب أهل الحلل ، (والنيران) وعبادها وعددها ، والسنة وفصولها ، والأعياد والمواسم ومتخذيها ، والأرض (والجبال ، والبراري والرمال ، والجزائر والبحار ، والمياه) وإمدادها ومددها ، (والليالي والأيام والشهور والأعوام ، والعيون والأنهار ، وطبائع البلاد) وأخلاق من سكنها من العباد ، (والمباني ، والمعاقل والمنازل) .... إلخ . وجعلته خمسة أقسام يستدل بها عليه ، ويتوصل من أبوابها إليه » . فنلاحظ أن هذه المقدمة تحوي جميع الأقسام والأبواب والفصول والموضوعات والمواد التي تأتي تحتها ، والتي يتناولها بحثاً ونقلاً واقتباساً في هذا الفن ، فالكلمات التي جاءت بين القوسين تبدي أن هذا الفن يشتمل على هذه المواد والموضوعات ، في أبواب منفردة وفصول ملحقة ، بتفصيل واف وإسهاب غير ممل ، وذلك لكي يسهل على القارئ والباحث معرفة محتوياته بإلقاء نظرة خاطفة على المقدمة ، فيتسنى له الاستفادة والرجوع إليها في وقت الحاجة .

فلنأخذ (وصف السماء) المذكور سابقاً مثلاً ، نجد أنه القسم الأول من الأقسام الخمسة التي تضمنها الفن الأول من الكتاب ، وهو ينقسم بدوره إلى خمسة أبواب مختلفة ، فالباب الأول منها في مبدأ خلق السماء ، وقد دلّ عليه بآية قرآنية تقول : [النازعات ٧٩/٢٩]

﴿ أأنتم أشدُّ خَلْقاً أم السماءُ بناها ، رَفَعَ سَمْكَها فسوّاها وأغطشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها ﴾ ثم ذكر أن السماء تذكر وتؤنث أيضاً ، فشاهد التذكير قوله عز وجل ﴿ السماءُ منفطرٌ به ﴾ [المزمل ٧٣/١٨] وقول الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوماً ... لحقنا بالسماء مع السحاب

وشاهد التأنيث قوله تعالى : ﴿ إذا السماءُ انفطرتْ ﴾ [الانفطار ٨٢/١] .

ثم أتى بأسماء مختلفة للسماء أطلقتها العرب عليها ، ومنها : الجرباء ،

والخلقاء ، وبرقع ، والرقيع . ثم تحدث عن سبب حدوثها ليبحث في الباب الثاني عن هيئتها ، وأسهب فيه إسهاباً حوّل الموضوع من الاستدلال بالقرآن الكريم إلى الأحاديث النبوية التي نقلها من كتب الحديث ، وخاصة الترمذي . ثم أتى بما ضربت به الأمثال حول السماء منقولة من كتاب الميداني (مجمع الأمثال) وما قرضه الشعراء من الأشعار في وصفها والتشبيه بها ومعظمهم إسلاميون . وقد نقل في هذا الباب شعر كل من : عبد الله بن المعتز ، والتنوخي ، وأبي طالب الرقي ، وظافر الحداد ، وحمد بن عاصم ، وأبي العلاء المعري ، والرئيس أبي علي بن سينا ، وأبي عبادة البحتري .

وذلك لأن الجاهليين يندر عندهم وصف السماء والتشبيه الرائع بها في كلامهم لضيق أفقهم وضحالة سموهم بالخيال ، ولقد ساق الأمثلة على التشبيه بالسماء من أقوال مختلف الشعراء ، منهم عبد الله بن المعتز حيث يقول :

كأن سماءنا لما تجلت ... خلال نجومها عند الصباح
رياض بنفسج خضلٍ نداه ... تفتّح بينه نور الأقاح

وفي النجوم قول ظافر بن الحداد :

كأن نجوم الليل لما تبلجت ... توقدُ جمرٍ في خلال رماد
حكى فوق ممتد المجرة شكلها ... فواقعَ تطفو فوق لجة وادي

ومما قيل في الفلك قول أبي العلاء المعري :

يا ليت شعري وهل ليت بنافعة ... ماذا وراءك ، أو ما أنت يا فلك

وأحسن ماأورد في هذا الصدد قول أبي عبادة البحتري إذ يقول :

أناة أيها الفلك المدار ... أنهب ما تصرّف أم خيار
ستبلى مثل ما نبلى وتفنى ... كما نفنى ويؤخذ منك ثار

وبعد الاستدلال بالأشعار ، يبدأ الباب الآخر وينهج فيه هذا المنهج نفسه حتى يأتي عليه . فلنأخذ مثلاً (الباب الثالث من القسم الأول من الفن الأول) في (ذكر الملائكة) فقد وصف أولاً جبريل وكيفية هبوطه على الأنبياء وقال : إن عظماء الملائكة أربعة وهم : إسرافيل وميكائيل وجبرائيل وعزرائيل ، وأقربهم منزلة من الله تعالى إسرافيل . ثم بين المسؤوليات التي عهد الله إليهم بها فقال : فجبريل على الجنود والرياح ، وميكائيل على القطر والنبات ، وعزرائيل على قبض الأرواح ، وإسرافيل يبلغهم ما يؤمرون به . وقد استقى معلوماته هذه من كتب الحديث . ثم ذكر الكواكب السبعة : (زُحَل والمشتري والْمِريخ والشمس والزُّهَرة وعُطارِد والقمر) وذكر خواصها وأثرها بالتفصيل ، وقد نقلها من كتاب (المدخل إلى إحكام صناعة النجوم ـ الفصل الثاني في طبائع الكواكب السبعة) الموجود بدار الكتب المصرية ، القاهرة . ثم أتى بشعر يجمع بين الأسماء السبعة للكواكب كما يسميها الفرس :

لا زلت تبقى وترقى للعلا أبداً ... ما دام للسبعة الأفلاك إحكام
مهر وماه وكيوان وتير معاً ... وهرمس وأناهيد وبهرام

ثم أتى بذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس ، فنقل ثلاثة أمثال من مجمع الأمثال للميداني ليأتي بأنصاف الأبيات حول الشمس . وبعد ذلك أقوال كل من الطائي وعلي بن الجهم وغيرهما ، بالإضافة إلى عشرة شعراء مختلفين ، ومن أحسن ما نقل في هذا الصدد قول الطائي :

فإني رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقول أبي الفتح البستي :

فالحر حر عزيز النفس حيث ثوى ... والشمس في كل برج ذات أنوار

ثم بشعر في وصف الشمس وتشبيهها لمختلف الشعراء ، منهم الوزير المهلبي ،

وأبو هلال العسكري ، والطغرائي وغيرهم ، ومن أحسن ماأورده في هـذا الموضوع قول أبي هلال العسكري :

والشمس واضحــة الجبين كأنهــا　　وجـه المليحـة في الخمــار الأزرق
وكأنها عنـد انبســاط شعــاعهـا　　تبر يـــــذوب على فروع المشرق

ومما وصفت به الشمس وقد قابلت القمر قول الشاعر : [١/٤٥]

أمــا ترى الشمس وهي طـالعـة　　تمنـع عنــا إدامـــة النظرِ
حمراء صفراء في تلـــونهـــا　　كأنهـــــا تشتكي من السهر
مثــل عروس غـــداة ليلتهـــا　　تمســك مرآتهـــا من القمر

ومن أحسن مانقل لوصف الطلوع والزوال والغروب قول أعرابي :

مخبــأة أمــا إذا الليــل جنهــا　　فتخفى ، وأمــا في النهــار فتظهر
إذا انشق عنهـا ساطـع الفجر وانجلى　　دجى الليل وانجـاب الحجـاب المستر
وألبس عرض الأفـق لـونـاً كأنــه　　على الأفــق الغربي ثــوب معصفر
عليهـا دروع الـزعفران يشـوبـه　　شعـــاع تــلالا فهــو أبيض أصفر
ترى الظل يُطوى حين تبـدو وتـارة　　تراه إذا زالت عن الأرض ينشر
فـأفنت قرونـاً وهي في ذاك لم تـزل　　تمـوت وتحيـــا كل يـوم وتنشر

وقد يأتي أحيانـاً بـذكر الشيء على طريق الـذم ، مثّلاً : فصلـه الـذي يقول فيه « ذكر شيء مما قيل في الشمس على طريق الذم » كقول ابن سناء الملك :

لا كانت الشمس ، فكم أصـــدأتْ　　صفحــة خــد كالحســام الصقيـل

أو « ذكر القمر على طريق الذم » كقول ابن الرومي :

رب عرض منزه عن قبيـــــح　　دنّسته معرّضات الهجاء (الأبيات)

وهكذا يأتي بالأشعار لفحول الشعراء يهجون بها الشيء المعين أو يعيبونه بأقوالهم .

ومن المقدمات التي كتبها النويري بنفسه على هذا النحو مقدمته للأنساب ، حيث بدأها قائلاً : « قال الله تعالى ﴿ يا أيُّها الناسُ إنّا خلقناكم مِن ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ لِتعارَفوا ﴾ [الحجرات ١٣/٤٩] ومعرفة أنساب الأمم مما افتخرت به العرب على العجم ، لأنها احترزت على معرفة نسبها ، وتمسكت بمتين حسبها ، وعرفت جماهير قومها وشعوبها ، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها ، واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها ، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها ، ونفت الدعيّ فيها ، ونطقت بملء فيها » [٢٧٦/٢] .

فهذه المقدمة أوضح فيها النويري بإيجاز ، ما يحتوي عليه هذا الباب من الموضوعات والمواد ، ثم سار على المنهج الذي سبق ذكره في نقل ما تضمن هذا الباب .

ومن أمثلته أيضاً المقدمة التي استهل بها (الفن الثاني ـ في الإنسان وما يتعلق به) فكتب يقول :

« وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع ، مشنفة للمسامع ، مرصعة لصدور الطروس والدفاتر ، جاذبة لنوافر القلوب والخواطر ، واضحة للبيان ، معربة عن وصف الإنسان فمن (تشبيهات فائقة ، وغزليات رائقة ، وأنساب طاهرة ، ووقائع ظاهرة ، وأمثال) امتدت أطنابها ، وتبينت أسبابها ، و (أوابد) جعلتها العرب عادة ودليلاً ، واتخذتها ضلالة وتبديلاً ، ونصبتها أحكاماً ونسكاً ، وصيرتها عبادة ومداواة ، فتبوأت بها من النار دركاً ، وشيء من (أخبار الكهان ، وزجر عبدة الأوثان ، وكنايات) نَقلت الألفاظ إلى معان أبهى من معانيها ، وبلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها ، و (ألغاز) غورت بالمعاني وأنجدت ، وأشارت إليها بالتأويل حتى إذا قربتها من الأفهام أبعدت ،

و (مدائح) رفعت للممدوح من الفضل منـاراً ، و (أهـاجيٌّ) صيرت المهجو من القوم يتوارى ، و (مجون) ترتاح إليها عند خلوتها النفوس ، ويبتسم عند سماعها ذو الوجـه العبوس ، وشيء مما قيل في (الخمر والمعـاقرة ، وأربـاب الطرب وذوي المسـامرة ، وتهـانٍ) نشرت من البشـائر مـلاء ، ورفعت من المحـامـد لـواء ، و (تعازٍ) حسرت نقاب الحسرات ، وأبرزت مصون العبرات . وأوردت فيه نبذة من (الـزهـد والإنـابـة) وجملـة من (الـدعـوات المستجـابـة) ، وطرزتـه بـذكر (ملك) ، مد رواق العـدل ، ونشر لواء الفضل ، وقـام بفروض الجهـاد وسننـه ، وأراع العدو في حالتي يقظته ووسنـه ، وعمّ الأوليـاء بمواصلـة بره وموالاة نوالـه ، وقهر الأعداء بمراسلة سهامه ومنـاضلـة نصـالـه ، وشمل رعـايـاه بعـدلـه وجوده ، وأردف سراياه بجيوشه وجنوده ، فهو الملك الذي جمع بين شدة البأس ولين النـدى وأزال مرارة الإيـاس بحـلاوة العطـاء . ومـا يحتـاج إليـه لإقـامـة المملكـة : من (نائب) ناهيك بـه نـائب ، ويكف بعزمـه كف الحوادث ويـذل بحزمـه منـاب النـوائب ، وينصف الضعيف من القـوي ، ويفرق ببـديهتـه بين المريب والبري ، ويتفقـد أحوال الجيـوش ويصرف همتـه إليهم ، ويجعـل اهتمامـه بهم وفكرتـه فيهم وتعويلـه عليهم ، إلى غير ذلـك من استكمـال عـددهـا والمطـالبـة بعرض خيـولهـا وإصلاح عـددهـا ، وسـد ثغور الممالـك وضبـط الطرق وتسهيل المسـالـك ، وقمع المفسـدين ، وإرغـام الملحـدين ، وبث السرايـا ، وتيسير الأرزاق والعطـايـا . و (وزير) يشيـد قواعـد ملكـه بحسن تـدبيره وجميل سـداده ، ويعمل فكره فيما يستقر بسببه نظام الملك على مهاده ، ويأمر بتحصيل الأموال من جهات حلها ، ويقر مناصب الدولة الشريفة في الكفلة من أهلها ، ويتصفح الأقاليم والمعـاملات والأعمال ، ويستكفي لمبـاشرتهـا أمنـاء النظـار ومحققي المستوفين وكفـاة العمال . و (قائد) جيوش إن انتدبه للقاء عـدو بـدر الكتـائب ، وأنهل من دمـائهم السمر العوالي ، وعلا هامهم بالبيض القواضب ، تتبعـه عسـاكر تنفر قلوبهم عن الفرار ،

ويحلون من قاتلهم من أعداء الله دار البوار ، يدرعون السابرية الذوائل[1] ، ويعتقلون السمهرية الذوابل ، ويتقلدون المشرفية البواتر ، ويتنكبون القسي النواتر ، ويمتطون متن كل جواد صفا منه أديمه وعيناه وحوافره ، واتسع منه جوفه وجبهته ومناخره ، وطال منه أنفه وعنقه وذراعه ، وقصر منه ظهره وساقه وعسيبه وامتد عند الحضر باعه . فهو من أكرم الأصائل ، والمعنيّ بقول القائل[2] :

وقد أغتدي قبل ضوء الصباح ووِرد القطا في الغطاط الحثاث
بصافي الثلاث عريض الثلاث قصير الثلاث طويل الثلاث

وذكرت ما ورد في (فضل الرِباط والجهاد) ، وما أعد الله تعالى من الثواب لمن أنفق فيه الطوارف والتلاد ، وبذل الكريمين - النفس والمال - لحسن المآل ، وهجر الحبيبين - الوطن والعيال - لبلوغ الآمال . ومن (قاض) يحكم بين الناس بالعدل ، ويقدم ذوي النباهة والفضل . و (متولي مظالم) يردها على أهلها بقهره وسلطانه ، وسطوته وأعوانه . و (ناظر حسبة) يجري الأمور على قواعدها الشرعية وأوضاعها العرفية وقوانينها المرضية - إلى غير ذلك . من (كاتب) ذي رأي صائب ، وفهم ثاقب ، انقادت له المعاني بأسهل زمام ، وأغنت صحائفه عن صفحات الحسام :

لو لاحظت عين ابن أوس كتبه ما قال : إن السيف منها أصدق

---

(١) السابرية : دروع دقيقة النسج في إحكام . والذوائل جمع ذائلة وهي الطويلة .

(٢) استقى النويري المؤلف عبارته هنا ومعلوماته عن الخيل الجيدة مما ذكره أيوب بن القرية وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل فقال : القصير الثلاث ، الطويل الثلاث ، الرحب الثلاث ، الصافي الثلاث . فقال : صفهن . فقال : أما الثلاث الطوال فالأذن والعنق والذراع . وأما الثلاث القصار فالظهر والساق والعسيب . وأما الثلاث الرحبة فالجبهة والمنخر والجوف . وأما الثلاث الصافية فالأديم والعينان والحافر . وقد جمع بعض الشعراء ذلك في بيت واحد . (هو البيت الوارد في نص المقدمة) وأورد حكاية أخرى في المعنى نفسه عن صعصعة بن صوحان وقد سأله معاوية : أي الخيل أفضل ؟ فقال : الطويل الثلاث ... إلى آخر الحكاية (النهاية ١٠/٢٠) .

و (كاتب خراج) ضبط بقلمه الأموال ، وحرر بنباهته الغلال ، وبسط الموازين ، ووضع القوانين ، وفصل بين الخراجي والهلالي ، وميز ما بين الأعمال والتوالي . وما لا بد للملك منه من (خواص) جبلت على محبته قلوبهم ، وتجافت عن المضاجع في خدمته جنوبهم . ومن (معقل) شمخ على الجوزاء بأنفه ، واتخذ الثريا وشاحاً لعطفه ، توارى في قرار التخوم أساسه ، ولاح للساري ككوكب الظلماء مقباسه . فالأرض تدعيه ، لأنه ثبت على مناكبها ، والسماء تنازعها فيه لأنه تمنطق بكواكبها ، والجبال تقول : مني اتخذت أحجاره ، والمياه تقول : عليّ استقر قراره ، وجفن السحاب يهمع لانحطاطه عن هذه الرتبة ، والطير تقول : إن لم أبلغه فقد اتحد به مَن بيني وبينه نِسبة . وضمنت هذا الفن من المنقول ما يسهل تعاطيه على الأفهام ، ووضعته على خمسة أقسام » [٤/٢] .

وهذه الأقسام الخمسة هي :

القسم الأول : في اشتقاق كلمة الإنسان ويحوي أربعة أبواب .

القسم الثاني : في الأمثال المشهورة ، ويشتمل على خمسة أبواب .

القسم الثالث : في المدح والهجو وغيرهما ، وينقسم إلى سبعة أبواب .

القسم الرابع : في التهاني والبشائر ، وفيه أربعة أبواب .

القسم الخامس : في الملك وما يشترط فيه ، ويتضمن أربعة عشر باباً .

ولقد عمدت إلى نقل هذا الفن بشيء من التفصيل لأن هذا الفن أكبر وأطول فنون الكتاب كله ، لأنه يبدأ من الجزء الثاني من مطبوع الكتاب ، ويستمر إلى أكثر من نصف الجزء التاسع ، أي يستغرق من كتاب النهاية ثمانية أجزاء إلا قليلاً . والباب الرابع عشر من هذا الفن استغرق وحده جزأين من الكتاب ونصف جزء[١] .

---

(١) السابع والثامن ونصف التاسع .

كذلك الحال في الفن الثالث الذي يتناول موضوع (الحيوان الصامت) ويشتمل على خمسة أقسام أيضاً ، فقد استهله قائلاً :

« قد جمعت في هذا الفن ـ أعزك الله ـ من أجناس الحيوان بين الكاسر والكاشر ، والنافر والطائر ، والصائد والصائل ، والناهق والصاهل ، والحامل والحالب ، والكانس والسانح ، والراسخ والسائح . فمن أسد انفرد عظماً بنفسه ، ترفع عن الإلمام بما سواه من جنسه ، إن وطئ أرضاً مالت الوحوش عن آثاره ، أو قصد جهة نفرت من جواره ، وإن فغر فاه أبرز المدى ، وإن مد خطاه قرب المدى ، ونمر حديد الناب ... وفهد سريع الوثوب والاختطاف ، وكلب إن طفئت النيران فهو جالب للأضياف ، وضبع إن رأت قتيلاً طافت به ومالت إليه ، وذئب ما رأى بصاحبه دماً إلا أغار عليه ـ إلى غير ذلك من أنواع الوحوش والآرام ، والخيل والبغال والأنعام ... وأصناف الطير التي تكون تارة محمولة وتارة حوامل ... وما ينوح ويغرد ، وما يتلو ويردد . وميزت كل حيوان منها بمحاسنه ومناقبه ، ونبذته بمعايبه ومثالبه ، ولولا خشية الإطالة لوصفت كل حيوان منها برسالة ، ولكني استغنيت بما ألفته من منقولي ، عما أصنفه من مقولي ، وعلمت أنني أقصر عن حق هذه الرتبة فأحجمت ، وأقف دون بلوغ هذه الحلبة فأمسكت .. » إلى آخر المقدمة حيث قال :

« ووضعته على أحسن ترتيب ، ورتبته على أجمل تقسيم وتبويب ، وهو يشتمل على خمسة أقسام » .

ثم سرد تفاصيل هذه الأقسام كعادته وعلى حسب خطته ، وسار في تنفيذها بحسب منهجه على المنوال الذي سبق أن أشرنا إليه ، ليجعل محتويات الفن عياناً للباحث والقارئ .

وهكذا نهج النويري في بقية المقدمات الثلاث من الكتاب ، واتبع الخطة والمسلك والمرمى نفسها .

أما النوع الثاني من المقدمات فهي تلك التي يعمد إلى كتابتها استهلالاً للأقسام والأبواب ، فإنه بعدما يوضح محتويات هذا الباب ، يقتبس المقدمة من الكتب التي ينقل منها موضوع هذا الباب الخاص ، فينقلها دون أن يشير إلى كاتبها أحياناً ، ومع ذكره أحياناً أخرى .

كما فعل في الباب الأول من القسم الثاني من الفن الثاني ، فإنه نقل المقدمة من مجمع الأمثال للميداني ولكنه لم يذكره ، والباب الثالث من هذا الفن ، أو باب لأوابد العرب وغيره ، فإنه اقتبس هذه المقدمات من الكتب التي نقل منها العينات ولكنه لم يلمح إليها ولا بإشارة خفيفة .

أو كما فعل في الباب الأول من القسم الأول من الفن الثاني ، فإنه أشار إلى أمالي ابن الشجري على أنها مصدر لهذه المقدمة . ومن أمثلته كذلك القسم الخامس من الفن الثالث (في أجناس الطير وأنواع السمك) فإنه بعدما أشار إلى محتويات القسم قال : قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « إن الحيوان على أربعة أقسام : شيء يطير ، وشيء يعوم ، وشيء ينساح ، وشيء يمشي . إلا أن كل طائر يمشي وليس كل شيء يمشي طائراً » ـ إلى آخر المقدمة .

وأحياناً يضيف النويري في مقدماته إلى الآيات القرآنية بعض الأحاديث أيضاً التي تطابق الموضوع . مثلاً مقدمته (في ذكر ماقيل في الجود والكرم وأخبار الكرام) حيث قال :

« حقيقة الجود بذل المال » ؛ قال الله عز وجل : ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تُحبون ﴾ [آل عمران ٣/٩٢] وقال تعالى : ﴿ يُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر ٥٩/٩] . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ، ألا فزينوا دينكم

بها » وقال ﷺ : « تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإن الله عز وجل آخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر » . وقال ﷺ : « الجود من الله تعالى ، فجودوا يجد الله عليكم » « ألا إن السخاء شجرة في الجنة ، أغصانها متدلية في الأرض ، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ، ألا إن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة » .

أو كما نقل في باب (ومما قيل في الصبر والإقدام) قائلاً : [٣/٢٢٣]

قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولا تنازَعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال ٨/٤٦] . وقال رسول الله ﷺ : « لا تتمنَّوا لقاء العدو ، وسَلوا العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله ، وإن جلبوا وضجّوا فعليكم بالصمت » .

أو كما أورد في مقدمته للقسم الثاني من الفن الثاني فقال : [٣/١]

ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه العزيز في آي كثيرة فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له ﴾ [الحج ٢٢/٧٣] وتكرر ذكر الأمثال .

ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « ضرب الله صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مُرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تعرجوا » .

وبعد نقل الآيات والأحاديث يفسر معناها أيضاً إذا كانت الكلمات غامضة أو تحمل طابع الشبهة والشك .

والغريب في الأمر أن النويري ـ مع جلالة قدره وعلو كعبه في العلوم الدينية ووصف معاصريه له بأنه فقيه بارع وناسخ للبخاري ـ لا يتحرج من الاستدلال بالأحاديث الموضوعة . وإنني بعد الدراسة والاستقصاء للأحاديث التي أوردها في كتابه بلغت النتيجة التالية وهي أنه بذل جهده المستطاع لنقل

الأحـاديث الصحيحـة مما أخرجـه البخـاري ومسلم ، ثم الترمـذي (بـاب القــدر وتكـو ين الإنسـان في رحم أمـه ومروره في مختلف مــدارج التكـو ين) والبيهقي (أحاديث عن الريح) . ومع ذلـك أورد بعض الأحـاديث الموضوعـة التي لا محل هنا للبحث فيها . ولكن أمام هذه الظاهرة نلاحظ أنه يأتي بمثل هذه الأحـاديث الموضوعة أو الضعيفـة و يستـدل بهـا ، في أمـاكن ومسـائل لا تتنـاول أي ركن من أركان الإسلام ، ولا تمس بسوء أي أمرٍ من أمـور الـدين وأصـولـه المتفـق عليهـا ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة . ولـذلـك لا نجـده ينقل حـديثـاً يعـارض مبـادئ الإسلام أو أركانه أو المسائل والأمور التي اجتمعت عليها كلمة المحـدّثين والفقهـاء في المسائل الدينية . أما في باقي الأماكن والأحوال فإنه لا يرى غضاضة في الاستشهاد بها ، لأن العلماء أجازوا الاستدلال بالأحاديث الموضوعـة أو الضعيفـة مـالم تنـافِ نصاً قطعياً أو مسألة متفقاً عليها ، وخصوصاً في المسائل التي لا صلة لها بالـدين ، مثل الأدب والعلوم الأخرى ، أو التي لها صلة بالأخلاق أو الأمور الاجتماعية .

أما المسائل والأمور التي يجد فيها اختلافاً بيّنـاً بين جمـاعـة العلمـاء والفقهـاء المتضلعين ، فإنه يتورع أن ينحاز إلى هذا الرهط أو ذاك ، وإنمـا يتخـذ في هـذه المسائل والأمور موقف ناقلٍ محض لا يبدي فيها رأيه إطلاقاً ، بل ينقل أقوال كلا الرهطين بأمانة وصدق وإخلاص ، دون أن يتهم رهطـاً أو يبرئ رهطـاً آخر على حساب الأول . وخير مثال لطريقته هـذه مـا نقلـه في البـاب السـادس من القسم الثــالث من الفن الثـــاني (في الغنـــاء والسماع) ومـــا ورد في ذلــك من الحظر والإباحة . فقال : [١٣٣/٤]

« قد تكلم الناس في الغناء : في التحريم والإباحة ، واختلفت أقوالهم وتباعـدت مذاهبهم وتباينت استـدلالاتهم . فمنهم من رأى كراهتـه وأنكر استماعـه واستـدل على تحريمه . ومنهم من رأى خلاف ذلك مطلقاً وأبـاحـه وصمم على إبـاحتـه . ومنهم من فرق بين أن يكـون الغنـاء مجرداً أو أضيف إليـه آلـة كالعـود والطنبـور وغيرهمـا من

الآلات ذوات الأوتار والدفوف والمعازف والقصب ، فأباحه على انفراده وكرهه إذا انضاف إلى غيره وحرم سماع الآلات مطلقاً . ولكل طائفة من أرباب هذه المقالات أدلة استدلت بها . وقد رأينا أن نثبت في هذا الموضع نبذة من أقوالهم ، على سبيل الاختصار وحذف النظائر المطولة ، فنقول وبالله التوفيق : ...» .

وبعد هذا التصريح بموقفه الرزين بوصفه ناقلاً محضاً أميناً أَورَدَ وجهة نظر كلا الرهطين وأدلة كلتا الطائفتين : التي تحرم الغناء ، والتي تبيحه ، مع ماتسوقه هذه الطائفة أو تلك من الأدلة الشرعية النقلية والعقلية تأييداً لوجهة نظرها ، ودحضاً لرأي غيرها دون نقص واقتضاب ، أو تحريف وتصحيف .

فنقل أولاً أدلة الطائفة التي ترى تحريم الغناء فقال : فإنهم استدلوا على التحريم بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من علماء المسلمين . أما دليلهم من الكتاب العزيز فقول الله عز وجل : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ [المؤمنون ١/٢٣] وقوله عز وجل : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ [القصص ٥٥/٢٨] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ [الفرقان ٧٢/٢٥] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لَهْوَ الحديث .. ﴾ الآية [لقمان ٦/٣١] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ [الإسراء ٦٤/١٧] وقوله تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ﴾ [النجم ٦١/٥٣] قال ابن عباس : « سامدون هو الغناء بلغة حمير » . وقال مجاهد : « هو الغناء يقول أهل اليمن : سمد فلان إذا غنى » .

وبعد أن ساق تفسير بعض الآيات المذكورة آنفاً على لسان أئمة التفسير مثل ابن عباس وعبد الله بن مسعود ، نقل دليلهم من السنة ، فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « إن الله عز وجل حرم القينة وبيعها وتعليمها والاستماع

إليها » ثم قرأت : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ وروى أبو أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله عز وجل شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك » .

ثم أتى برواية لأبي الزبير عن جابر ، ورواية عن عبد الرحمن بن عوف في تحريم الغناء ، لينقل أقوال الصحابة والتابعين في هذا الموضوع ، فقال : فقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : « ما تغنيت قط » فتبرأ من الغناء وتبجح بتركه . وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » . وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما مر على قوم وهم محرمون ومعهم قوم ورجل يغني فقال : « ألا لا أسمع والله لكم ألا لا أسمع والله لكم » . ومن التابعين روي عن عبد الله بن دينار قال : مر ابن عمر رضي الله عنهما بجارية صغيرة تغني فقال : « لو ترك الشيطان أحداً ترك هذه » . ثم نقل قول إسحاق بن عيسى وقول الشعبي والحكم بن عيينة والقاسم بن محمد والفضيل بن عياض . ونقل في هذا الشأن قول يزيد بن معاوية ـ مع اشتهاره بما اشتَهر به ـ أنه قال : « يا بني أمية إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروءة . وإنه لينوب عن الهمر ، ويفعل ما يفعله السكر . فإن كنتم لا شك فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رقية الزنى ، وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إليّ من كل لذة ، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلة الصادي ، ولكن الحق أحق أن يقال » .

ومن أقوال الأئمة نقل قول الشافعي من كتاب (أدب القضاة) : « الغناء لهو مكروه يشبه الباطل » وقال : « من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته » . قال القاضي حسين بن محمد : وأما سماعه من المرأة التي ليست بمحرم ، فإن أصحاب الشافعي قالوا : « لا يجوز بحال ، سواءٌ كانت بارزة أو من وراء حجاب ، وسواءٌ كانت حرة أو مملوكة » . وبعد ما نقل قولاً آخر للشافعي أورد قول مالك بن

أنس : « إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب » ، وقال : « وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده » . وعن أبي حنيفة نقل قائلاً : « وكره أبو حنيفة ذلك وجعل سماع الغناء من الذنوب » قال : « وذلك مذهب سائر أهل الكوفة وسفيان الثوري وحماد بن سلمة وإبراهيم النخعي والشعبي وغيرهم ولا خلاف بينهم في ذلك » . قال : « ولا يُعرف أيضاً بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منه » . ثم نقل قول بعض الزهاد : « والغناء يورث العناد في قوم ، ويورث التكذيب في قوم ، ويورث القساوة في قوم » .

وبعد ما أورد بعض الشعر عن السماع اختتم أدلة الطائفة التي ترى تحريم الغناء ، لينقل أدلة الطائفة التي ترى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة ، فنقل أقوالهم وأدلتهم بعد أن طالع كتبهم وألمّ بوجَهة نظرهم بوضوح فقال :

« وكان ممن تكلم في ذلك وجرد له تصنيفاً : الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي رحمه الله تعالى ، فقال في ذلك ما نذكر مختصره ومعناه » . ثم نقل عنه في هذا الشأن قول الله تعالى : ﴿ الذين يتّبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحل لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزِل معه أولَئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف ١٥٧/٧] « فبلّغ رسول الله ﷺ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وسنّ وشرع ، وأمر ونهى كما أُمر ﷺ ، فليس لأحد ـ بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم والاتباع لسنتهم ـ أن يحرم ما أحل الله عز وجل ورسوله ﷺ إلا بدليل ناطق من آية محكمة ، أو سنة ماضية صحيحة ، أو إجماع من الأمة على مقالته . وأما الاستدلال بالموضوعات والغرائب والأفراد من رواية المكذَّبين والمجرَّحين الذين لا تقوم بروايتهم حجة ، وبأقاويل مَن فسر القرآن على حسب مراده

ورأيه ، فلا يُرجَع إلى قولهم ، ولا يُسلَك طريقهم . إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره ، وإنما يُلْزَمُ بقولِ مَن أُيِّدَ بالوحي والتنزيل ، وعُصِمَ من التغيير والتبديل . قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم ٥٣ / ٤] فعلمنا أنه ﷺ لم يأمر ولم ينه عن أمر إلا بوحي من الله تعالى . وكذلك كان ﷺ إذا سئل عن أمر لم ينزل فيه وحي ، توقف حتى يأتيه الوحي ، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله » .

ثم ذكر (ما استدلوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبوية) [٤ / ١٣٧] فروى من الأحاديث الصحيحة في إباحة الغناء « ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخل عليَّ أبو بكر رضي الله عنه وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ! وذلك يوم عيد ، فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا » . ثم روى هذه الرواية عنها من طريق آخر حيث قال النبي ﷺ لأبي بكر : « دعهما » ، ثم أتى بالرواية التي أقام فيها النبي عائشة لمشاهدة ألعاب السودان ، كما أورد الرواية الثانية عن طريق آخر أيضاً ، ثم نقل قول أبي محمد في هذين الحديثين قائلاً : « قال أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث : أين يقع إنكار من أنكر من إنكار سَيِّدَيْ هذه الأمة بعد نبيها ﷺ : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقد أنكر عليه الصلاة والسلام عليهما إنكارهما فرجعا عن رأيهما إلى قوله ﷺ » . ثم أتى برواية « عائشة رضي الله عنها قالت : كانت جارية من الأنصار في حجري ، فزففتها ، فدخل رسول الله ﷺ ولم يسمع غناء فقال : يا عائشة ! ألا تبعثين معها من يغني ، فإن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء » . ثم نقل رواية جابر بن عبد الله في هذا المعنى . ثم ذكر رواية فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ قال : « للهُ أشدُّ أَذَناً إلى الرجل الحسن الصوت

بالقرآن يجهر به ، من صاحب القينة إلى قينته » . ثم قال إن الحافظ أبا الفضل محمد بن طاهر المقدسي رحمه الله قال : « ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أن رسول الله ﷺ أثبت أن الله تعالى يستمع إلى حَسن الصوت بالقرآن ، كما يستمع صاحب القينة إلى قينته ، فأثبت دليل السماع ، إذ لا يجوز أن يقيس على استماعٍ محرَّم . قال : ولهذا الحديث أصل في الصحيحين ، أخرجاه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ما أَذِن الله لشيء ما أَذِن لنبي يتغنى بالقرآن » .

وهكذا لاحظنا أن النويري اتخذ موقف المحايد من هذه المسألة المختلف فيها ، ومع أنه كان شافعي المذهب لم يرجح رأي الإمام الشافعي ، لكي لا ينعت بانحيازه إلى المذهب الذي يعتنقه هو ، وفي ذلك برهان أنه ناقلٌ أمين محض ، لا ينحاز إلى رأي معين دون رأي .

ومثل هذا الموقف اتخذه النويري فيما يتعلق بتحريم الخمر وإباحة المطبوخ [٤ / ٧٦] .

طريقة النقل :

وبعد المقدمات التي يستهل بها النويري الفنون والأقسام والفصول ، يبدأ بنقل ما يطيب له من الكتب الهامة . وطريقته فيه أن يطالع الكتاب بدقة وتدبر وتفكر ، ثم يختار العينات والنبذات التي يفضلها على غيرها بحسب الخطة التي أعدها من قبل ، ثم ينقلها إلى كتابه .

يبدأ النويري الموضوع المنقول بالمنثور من الكلام ، فيأتي بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال الصحابة رضي الله عنهم ـ إذا كان الموضوع يقتضي ذلك ـ بما وقف عليه من كلام في آداب أخرى أو لغات أخرى ، ثم يأتي بأقوال العلماء والحكماء في هذا الموضوع . ويبدأ عادةً من اليونان ، إذ هي عنده

منبع العلم والحكمة والعرفان ، ثم الهند والفرس ، لأن هذه الأمم أقدم الأمم والشعوب علماً وحضارة وحكمة ومعرفة ، ثم يأتي بنتف من أقوال ورسائل ومقتطفات ونبذات ، مما جادت به قرائح النابغين والعباقرة من أعلام الإسلام وعلمائه ، من مفسرين ومحدّثين وقضاة وفقهاء ، إذا كان الموضوع يقتضي ذلك ، ومن أقوال الأدباء والبلغاء والمتضلعين من النحويين والمؤرخين وأصحاب السير والرحالة وأصحاب الجغرافية وغيرها من العلوم والفنون ، إذا اقتضت الضرورة ذلك ، ثم يعمد إلى الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات فيبدأ النقل منها أو الاقتباس بحسب الأقسام والأبواب الخاصة .

وعندما يفرغ من إشباع الموضوع نثراً ، والإحاطة به من جميع النواحي ، يأتي بأشعار لمختلف الشعراء استشهاداً أو تمثيلاً أو تأييداً لما نقله من الكتب والأسفار .

يختار النويري الأشعار عادة من مصدر واحد يتضمن شعراً غزيراً ممتعاً جذاباً يفي بغرضه المنشود من الاستشهاد أو التمثيل والاستدلال ، ومثال ذلك الأشعار التي نقلها حول (تمثيل الأمثال) من كتاب المنتحل للثعالبي . أو يعمد إلى كتب متعددة أو دواوين ، فيختار منها روائع الشعر لموضوع بابه ، من تلك التي تفي بغرضه ومرماه ، كما فعل في الفن الثاني القسم الأول في الغزل والنسيب ، فقد نقل من أربعة كتب مختلفة هي : العقد الفريد لابن عبد ربه ، وزهر الآداب للحصري القيرواني ، والذخيرة لابن بسام ، وديوان المعاني لأبي هلال العسكري .

والجدير بالذكر أن النويري حاول جهده اقتباس الأشعار والاستشهاد بها في جميع الموضوعات التي تطرّق إليها في النقل والاقتباس من كتب القدماء والأسفار الضخام . وقد نجح في ذلك أي نجاح . فلم يترك باباً لعلم أو فن أو معرفة أو مادة إلا طرقه بشعر رقيق ممتع في غاية الجودة والإتقان والرونق والبهاء . فنجده يأتي

بالأشعار الغرر في جميع الفنون والأقسام والأبواب كلّ بما يليق به ، حتى إنه أتى بشعر جيد عن السباع والبهائم مثل الأسد والنمر والفهد وكلاب الصيد والسنجاب والثعلب والدب والهر والخنزير والكركدّن والزرافة والفيل وغيرها من الحيوانات الأخرى . وقد سلك المسلك نفسه عند الكلام على الخيل والبقر والغنم والبغال والحمير والحيات والعقارب وأجناس الطيور وأنواع الأسماك . فعند ذكر كل هؤلاء أتى النويري بشعر لائق مقبول . وليس هذا فحسب ، بل إنه جمع شعراً جميلاً في الموضوعات الجنسية أيضاً . ودع عنك ما قدم لنا من باقات رائعة جميلة زاهية الألوان معنبرة معطرة من الغزل الرقيق والنسيب الحسن السبك والنسج . وبعد إشباع الموضوع من جميع النواحي ، يبدأ الفن الآخر ، وينهج فيه المنهج نفسه وهو المذكور آنفاً .

أما طريقته في النقل من الكتب والمصادر فهي أنه يذكر المرجع والمصدر أحياناً ، فيعترف أنه نقل هذا الباب أو الفصل أو العبارة أو المسألة من الكتاب الفلاني وينعته نعتاً واضحاً ، وأكثر الأحيان لا يذكر ذلك . كما نجده يذكر المرجع بصراحة تامة حيناً ، ويشير إليه إشارة خفيفة حيناً آخر . وكذلك ، يذكر بعض الأحيان المؤلف باسمه الكامل مع كنيته ولقبه ، ويكتفي ـ بعض الأحيان ـ بذكر اسمه باختصار شديد ، فيشتبه الأمر على القارئ ، أو يتعذّر عليه الاهتداء إلى الاسم الكامل الصحيح . وكذلك ، تراه يشير إلى الكتاب أحياناً باسمه الكامل ، وبعض الأحيان يختصره اختصاراً يحيّر القارئ : كيف السبيل إلى الإلمام باسم الكتاب التام لكي يتسنى له الرجوع إليه وقت الحاجة .

والآن ـ وقد ألقينا نظرة خاطفة على ما اتخذه النويري من مسلك في نقله واقتباسه الموضوعات والمواد والمعلومات من مصادر شتى ، وبلغنا النتيجة التي أسلفناها ، معتمدين فيها على الدراسة لمختلف أجزاء سفره الضخم هذا ، والتقصي لمصادره ، والتنقيب عن منابعه ، والبحث فيما انزوى عن الأنظار من محتوياته ،

والكشف عما غمض من مكنوناته ، والتوضيح لما أبهم من مطالبه ـ يجدر بنا أن نقف وقفة غير قصيرة ، لنلقي نظرة فاحصة ، أكثر عمقاً وأبعد غوراً من ذي قبل ، وبشيء من التفصيل الملحوظ ، ضاربين الأمثال لما تضمنه هذا الكتاب ، في أقسامه وأبوابه وفصوله ، من موضوعات ومواد ، تدعيماً لما اتخذناه من رأي ، وتأكيداً لما بلغناه من نتيجة ، حول مسلكه ونهجه ، بعد بحث ودراسة مضنيتين ، وتجشم للصعوبات والعراقيل المعترضة هذا السبيل .

فإن خضنا ـ هذا الخضم الهائل من العلوم والمعارف والفنون المبعثرة هنا وهناك ، في أجزاء هذا الكتاب الذي يشتمل على ثلاثين مجلداً ، ولم يطبع منه غير ثمانية عشر مجلداً ـ نجدْ أن النويري التزم الطرق التالية في الجمع والاقتباس والنقل ، لكي يجعل من جمعه أكداساً مكدسة من العلوم والفنون ، يقدمها في أحسن صورة من التبويب والتقسيم ، تسهيلاً للاستفادة منها ، وتيسيراً للاستقاء من مصادرها ومنابعها .

طرائقه في ذكر المصادر والمراجع

١ ـ ذكر اسم المصدر أو المرجع واسم المؤلف كاملين

نلاحظ ، ونحن نبحث في الكتاب ، أن النويري مع إهماله في أكثر المواضع لذكر المصدر أو المرجع ، يعترف بصدر رحب وبصراحة تامة أنه نقل هذا القسم أو الباب من كتاب يسميه ، لمؤلف ينعته نعتاً واضحاً .

ومن أمثلة ذلك أنه في (ذكر بيوت الهياكل) [١ / ٦١] عند نقله من (كتاب الملل والنحل) للشهرستاني و (كتاب مروج الذهب) للمسعودي ، اعترف بنقله من (مروج الذهب) فقال : وحكى المسعودي في كتابه المترجم

بـ (مروج الذهب ومعادن الجوهر) أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زحل .... إلى آخر الكلام المنقول .

وكذلك ذَكَر اسم المؤلف واسم الكتاب بصراحة عند نقله اشتقاق كلمة (الإنسان) في الفن الثاني ، الباب الأول [٢ / ٥] حيث قال : قال الشريف السيد ضياء الدين أبو السعادات هبة الله المعروف بابن الشجري في أماليه (في المجلس التاسع عشر وهو يوم السبت سابع عشر رجب سنة أربع وعشرين وخمس مئة) في شرح قول أعشى تغلب :

وكانوا أناساً ينفحون فأصبحوا　　وأكثر ما يعطونك النظر الشزر

إلى آخر ما قاله ابن الشجري ....

وكذلك نقل النويري من كتاب مجمع الأمثال للميداني ، وهو أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري المتوفى ٥١٨ هـ ، وقد بدأ النقل منه ، من المثل القائل « شديد على الإنسان مالم يعود » و المثل « الناس أخياف وشتى في الشيم » [٢ / ١٠٨] . وقد ورد هذان المثلان في مجمع الأمثال للميداني [٢ / ٢٤٢] ، إلا أن الميداني كتب كلمة (إخوان) بدل (أخياف) . وثمة اختلافات في بعض الكلمات في الكتابين .

وكذلك صرح بنقله من كتاب أبي البركات الجواني النسابة في الباب الرابع في الأنساب ، قائلاً : « وقد وقفت على المقدمة التي وضعها الشريف أبو البركات الجواني ، فرفعت له عَلَماً ونصبت له إلى المعالي سُلّماً » .

ويبدو أن النويري قرأ معظم الكتب الموجودة عصرئذ في هذا الفن ، وبعد ذلك اختار كتاب الجواني ، لأنه أتقن أصولها (أي الأنساب) وحرر فصولها ، وأورد فيها من الأنساب ما ينتفع به اللبيب ، ويستغني بوجوده الكاتب الأريب . وأكثر من ذلك صراحة قوله : على الشريف (أي الجواني) العمدة فيما

أوردته والعهدة فيما نقلته ، فمن تآليفه نقلت وعلى مقالته اعتمدت [٢ / ٢٧٧] وفي ذلك إشارة إلى عدم تحمل مسؤولية الصدق والكذب في سرد الأنساب ، فالنويري لا يعدّ نفسه أكثر من جامع وناقل لأقوال المؤلف ، ولـذلـك كان من الطبيعي أن يلقي العهدة عليه ويتبرأ من المسؤولية . وذلك دأبـه في نقل مثل هـذه المواقف ، وسنعرض لها بعد .

ثم بدأ النقل منـه بقولـه : « قـال السيـد الشريف نقيب النقبـاء أبو البركات أسعد بن علي بن معمر الحسيني الجواني النسابة رحمه الله : إن جميع مـا بنت عليـه العرب في نسبها أركانها ، وأسست عليه بنيـانهـا عشر طبقـات » . إلا أن النويري غيّر ترتيب الجواني ، وسرد النسب من أصله ، أي من آدم عليه السلام . فـالجواني بدأ النسب من محمد ﷺ لينحـدر بـه إلى آدم عليـه السلام ، وذلـك خلاف الواقع المتعلق بابتداء النسب والنسل ، فمن المحقق أنهما يبدأان من سيدنا آدم ، وعلى هـذا سار معظم النسابين وتمسكوا به[١] . ولذلك استحسن النويري ـ في هدي مطالعته وما وصل إليه من النتائج ـ أن يحيـد عن طريق الجواني ، ويسلـك فيـه مسلكـه المفضل ، فكتب يقول « فوجدتـه [أي الجواني] بـدأ فيهـا [أي المقـدمـة] بـذكر سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم بآبائه ، وشرْحِ جملةٍ من نسبه الطاهر وأبنائـه ، فرأيت أن أسرد النسب من أصله ، وأبدأ بآدم عليه السلام ثم بنسله ، وأجعل العمـدة على سرد عمـود النسب المتصـل بسيـد البشر ، وأذكر من ذلـك مـا اشتهر عنـد أهـل الأنسـاب وانتشر ، إلى أن أنتهي إلى اسمـه الشريف فـأجعلـه خـاتمـة النسب » [٢ / ٢٧٧] .

أما مقدمة الجواني هذه فاسمها (أصول الأحساب وفصول الأنسـاب) وتُسمى

---

(١) لقد أبدعتْ نظريـة جـديـدة تقول « إن آدم ليس هو مبـدأ النسل الإنسـاني وأصلـه ، بل هو كيومرث الفارسي » انظر التفاصيل في مجلة (إسلام وعصر جديد) الأردية الصادرة في الجامعة الملية الإسلامية ، دلهي الجديدة .

(تحفة الأنساب) وتُسمى (تحفة ظريفة ومقدمة لطيفة وهدية منيفة في أصول الأحساب وفصول الأنساب) . والجواني هو أبو البركات سناء الدولة أسعد بن علي بن المعمر بن عمر بن علي بن النسابة أبي هاشم الجواني ، النسابة (الحسيني) . ولد في جمادى الآخرة ٥٢٥ وتوفي ٥٨٨ هجرية . وكتابه مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ١٩ م و ٢٠١٥ تاريخ[1] .

وهنالك أمثلة كثيرة أخرى تدل على أن النويري اعترف بنقله صراحةً ، وذكر اسم الكتاب مع اسم مؤلفه ووجه تفضيله على باقي الكتب الأخرى المتداولة في هذا الفن .

فمن أمثلته قوله [٢ / ٧] : « قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) في كتابه يرفعه إلى وهب بن منبه أنه قال : قرأت في التوراة أن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء » .

وقوله « قال الثعالبي رحمه الله » في ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته [٢٠٢/١] . ثم أورد الأسماء التي أتى بها الثعالبي في كتابه (فقه اللغة) . وكذلك ذكر اسم كتابه هذا في مكان آخر فقال [٢٢٠/١] : « قال الثعالبي في كتابه المترجم بـ (فقه اللغة) وأسنده إلى أئمتها : أصغر ما ارتفع من الأرض النبكة ... إلخ » .

---

(١) وجدنا على ظهر الورقة الثانية من هذه المخطوطة (الرقم ١٩) الكلام الآتي بخط السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي الهندي شارح القاموس : « وهو أبو البركات سناء الدولة أسعد بن علي بن المعمر بن عمر بن علي النسابة أبي هاشم الحسن بن النسابة أبي العباس أحمد بن النسابة أبي الحسن علي بن إبراهيم بن أبي جعفر محمد بن المحدث أبي الحسن الحسيني بن محمد الجواني بن عبد الله الأعرج الحسيني . مالكي المذهب ، ولد ليلة الأربعاء سلخ جمادى الآخرة سنة ٥٢٥ وتوفي سنة ٥٨٨ . وللمصنف ولد اسمه محمد وكنيته أبو عبد الله ، تولى نقابة الأشراف بمصر بعد أبيه وتوفي بعد أبيه باثنتين وثلاثين سنة » .

وقوله في (شروط الإمامة الشرعية والعرفية) : « فقد ذكر منها الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن الحليم الحَليمى الجرجاني الشافعي - رحمه الله - في كتابه المترجم بـ (المنهاج) لمعةً واضحة البيان حسنة البنيان اكتفينا بإيرادها عما سواها .... إلخ » [١/٦] .

ومن أمثلةِ ذكرِه اسم المؤلف والكتاب ، اعترافُه بنقله من كتاب (الآداب السلطانية) للماوردي ، في (ذكر كتابة الديوان وقلم التصرف وما يتصل بذلك) . فقد قال بعد مافرغ من النقل : « هذا ماقيل في تسميته على ماحكاه الماوردي في الأحكام السلطانية » [١٩٥/٨] .

ومن أمثلة ذكره اسم المؤلف والكتاب أيضاً مانقله في (ذكر ماقيل في القرد) حيث قال : « وحكى المسعودي في كتابه المترجم بـ (مروج الذهب) أن القردة في أماكن كثيرة من المعمورة .... إلخ » [٣٣٧/٩] وكذلك ذكر اسم المسعودي وكتابه هذا في عدة أماكن منها : القسم الثاني من الفن الثالث (في الوحوش والظباء) ، والقسم الأول من الفن الرابع (في النبات) حيث بدأ القِسم قائلاً : « قال المسعودي في كتابه المترجم بـ (مروج الذهب ومعادن الجوهر) إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله تعالى إلى الأرض .... إلخ » [٤/١١] .

وفي هذا الباب نفسه [ص ٥] ذكر البكري وكتابه (المسالك والممالك) فقال : « قال أبو عبيد البكري في كتابه المترجم بـ (المسالك والممالك) : إن إسحاق بن العباس بن محمد الهاشمي حكى عن أبيه أنه تصيد يوماً بناحية صنعاء فأصابته السماء .... إلخ » .

وفي القِسم نفسه اعترف بنقله من (فقه اللغة) للثعالبي في ترتيب النبات : أول ما يبدأ النبت فهو بارض ، ثم جميم .... إلخ .

وكذلك عند وضعه الباب الأول من القسم الخامس من الفن الرابع (في

المسك وأنواعه) فقد قال في بدء هذا الباب : « قال محمد بن أحمد بن الخليل بن سعيد التميمي المقدسي[1] في كتابه المترجم بـ (جيب العروس وريحان النفوس) : المسك أصناف كثيرة .... إلخ » [٢/١٢] . وكذلك قال : قال أحمد بن أبي يعقوب : أفضل المسك التبتي ... إلخ . ونقل منه جميع ما ورد في هذا القسم ذاكراً اسمه في مختلف المواضع . قال في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الرابع (في العنبر وأنواعه ومعادنه) : « قال محمد بن أحمد التميمي : حدثني أبي عن أبيه عن أحمد بن أبي يعقوب أنه قال : العنبر أنواع كثيرة ... إلخ » [١٦/١٢] .

وكذلك أورد اسم التميمي الكامل واسم كتابه كاملاً في الباب الثامن من القسم الخامس من الفن الرابع في عمل الرامك والسّك من الرامك [٧٠/١٢] . وكذلك أورد اسمه الكامل مع اسم كتابه هذا في (صفة لبانة تمضغ تزيد في الباه .... إلخ) حيث قال : « قال شهاب الدين عبد الرحمن بن نصر الشيرازي صاحب كتاب (الإيضاح) : هذه اللبانة كان يستعملها بعض ملوك مصر » [١٥٨/١٢] . والجدير بالذكر أن الباب العاشر من القسم الخامس من الفن الرابع ملخص من كتاب (الإيضاح) المذكور .

تلك هي نُبذ قصيرة أوردناها حول اعتراف النويري بالنقل والاقتباس من كتاب ومؤلّف ، يذكر اسمها وينعتها نعتاً واضحاً . وقد يطول بنا المقام لو أردنا سرد جميع الأماكن والمواضع التي سلك فيها هذا النهج ، فإنها كثيرة متعددة .

---

(١) ورد اسم هذا الرجل مع إضافة (الخليل) في هذا الجزء من النهاية إلا أنه لم يرد فيا ذكره النويري في ص ٧٠ من هذا الجزء . فقال : محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي في كتابه المترجم .... إلخ وكذا ذكره القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) ص ١٠٥ طبع أوروبا ، وابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء) وقال في ترجمة هذا الطبيب : إن مُقامه كان أولاً بالقدس ونواحيها ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى أن توفي رحمه الله تعالى ، وكانت له معرفة جيدة بالنبات وماهياته وفي الكلام فيه ، وكان متميزاً أيضاً في أعمال صناعة الطب والاطلاع على دقائقها . ويستفاد من كلامه أنه كان في القرن الرابع الهجري .

ولذلك اكتفينا بذكر هذه الأماكن مع الإشارة إلى مواضعها من كتابه .

ونجد النويري أشد الناس حرصاً على التصريح باسم واضع الكتاب مع كنيته ولقبه ، وذكر الكتاب باسمه الكامل عندما ينقل موضوعات ومواد تتعلق بالأمور والمسائل الدينية ، وخصوصاً إذا كانت هذه المسائل من التي وقعت فيها اختلافات بين مختلف الطوائف الإسلامية أو العلماء . ففي مثل هذه الأماكن نجده ناقلاً محضاً أميناً لا يتورط في مسألة اختلافية ، مخافة أن يجرح مشاعر طبقة أو يمس إحساسات طبقة أخرى ، فلا ينحاز إلى حزب ولا يميل إلى عالم ، بل يكتفي في مثل هذه المواقف بذكر آراء كلا الحزبين ونقل مذهب كلتا الطبقتين بصدق وأمانة ، ويقف منها موقف المحايد الذي لا يميل ولا يجنح ، وذلك لأنه يعد نفسه جامعاً لأشتات المعارف والعلوم ، وناقلاً لما ورثناه من التراث العلمي والديني والفني ، الذي تركه لنا آباؤنا القدماء ، والذي من حقه علينا أن نحافظ عليه ونضن به ، دون إبداء الرأي فيما اتخذوه من مسلك أو آثروا من مذهب على المذاهب المختلفة الرائجة .

وخير مثال لمسلكه هذا ما أسلفنا من القول حول نقله لموضوع السماع والخمر وتحريمها وإباحتها ، ولا حاجة لنا في إعادته في هذا المكان .

وكذلك يتخذ النويري موقف الناقل الأمين المحض في الموضوعات التي تتعلق بالصحابة والعلماء والشخصيات البارزة من أصحاب الدين والحكم والسلطة والجاه والعز . ففي هذه الحالات أيضاً يصرح بنقله من الكتب مع ذكر أسمائها وأسماء مؤلفيها كاملة .

وخير مثال لهذه الظاهرة باب (ذكر من سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم) حيث قال : قد روي أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم سمعوا الغناء ، ثم ساق خبر النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه قائلاً : « روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه المترجم بـ (الأغاني) [١٤/١٢١]

بسند رفعه إلى أبي السائب المخزومي وغيره قال : دخل النعمان بن بشير المدينة في أيام يزيد بن معاوية وابن الزبير فقال : والله لقد أخفقت أذناي من الغناء فأسمعوني » فوجهوه إلى عزة الميلاء المغنية المدنية الشهيرة ، فطلبها إلى مجلسه ، فلما أبت أن تحضر لثقل بدنها وصعوبة نقلها حضر هو بنفسه مجلسها ، فغنته من شعر قيس بن الخطيم في أمه [أي أم النعمان] عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة وهي لا تعرفه ، ومنها شعره :

أجـــدَّ بعمرةَ غُنيـــانُهـــا فتهجرَ أم شـــانُنـــا شـــانُهـــا
وعمرةُ من سروات النســـــا ء تَنفَـحُ بـــالمســـك أردانُهـــا

فلم تزل تغني هذا اللحن حتى انصرف [النهاية ١٩٠/٤] .

ومن الصحابة الذين ساق عنهم خبر الاستماع إلى الغناء : حسان بن ثابت الأنصاري . وساق رواية عن أبي الفرج الأصفهاني قصة سماعه الغناء من عزة الميلاء ، بولية اجتمع فيها رهط من المهاجرين والأنصار ، حيث أكلوا وشربوا ، لتتقدم إليهم عزة الميلاء وهي إذ ذاك شابة ، وكان حسان قد كف بصره ، فضربت بمزهرها وتغنت بشعر حسان إذ يقول :

فـــلا زال قصر بين بصرى وجلـــق عليـــه من الـوسمي جـود ووابـل

فطرب حسان وجعلت عيناه تنضحان على خديه وهو مصغ .

ثم ساق حديثاً آخر لسماعه الغناء ، حين غنته جاريتان هما (رائقة) و (عزة) ، فأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً ، وغنتا بقول حسان بن ثابت :

انظر خليلي ببـــاب جلـقَ هـــل تـؤنس دون البلقـــاء من أحـــدِ

قال : فأسمع حسان يقول : قد أراني هناك سميعاً بصيراً ، وعيناه تدمعان ، فإذا سكنتا سكن عنه البكاء وإذا غنتا يبكي .

وكذلك ذكر في رواية بسند إلى عباد بن عبد الله بن الزبير عن شيخ من قريش أنه قال : كنا نحن جماعة وفينا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، مجتمعين عند قينة ، فإذا حسان بن ثابت يستأذننا ، فكرهنا وجوده في هذا المجلس ، ففطن إليه عبد الرحمن وقال : إذا كنتم تريدون أن ينصرف فأمُروا الجارية تغني :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
يغشون حتى ما تهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

فغنته الجارية فوالله لقد بكى حتى ظننا أنه سيلفظ نفسه . ثم قال (أي حسان) : أفيكم الفاسق ؟ لعمري لقد كرهتم مجلسي اليوم وقام فانصرف . وهذا الشعر هو مما امتدح به جبلة بن الأيهم ، ومنه قوله في مدح آل جفنة :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم   شم الأنوف من الطراز الأول

ثم ساق رواية عن أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، فَحْواها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أذن لرباح بن المعترف بالغناء واستمع إليه وهم محرمون [١٩٣/٤] .

ونقل قول الغزالي قائلاً : « وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى عن أبي طالب المكي : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية وغيرهم . وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف صحابي وتابعي بإحسان » [١٩٤/٤] .

وتحت عنوان (من سمع الغناء من الأئمة والعباد والزهاد) سلك النويري المنهج نفسه فذكر أخبار السماع ناقلاً الأسناد والروايات بكل دقة وتصريح . وقد نقل معظم هذه الأخبار من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

فروى قصة الإمام الشافعي حين سمع جارية تغني :

خليليّ مـــا بـــال المطـــايـــا كأنهـــا   نراهـا على الأعقـاب بـالقـوم تنكصُ

فقـال الشـافعي : امثلـوا بنـا نسمـع ، فلمـا فرغت قـال الشـافعي لإبراهيم : أيطربك هذا ؟ قال : لا ، قال : فما لـك حس !. وقـد روى هـذه الحكايـة نقلاً عن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي رحمه الله .

ثم ساق رواية عن صالح بن أحمد بن حنبل ، تقول إنه سمع الغناء فطرب ولم ينه منه ابنه ، بل قال لابنه : يا بني ! إذا كان مثل هذا فنعم الكلام .

ثم ساق قصة طريفة لاجتماع كبار الأئمة في مجلس غنـاء فكتب يقول : روى أبو الفضل أيضاً بسند رفعه إلى مصعب الزهري أنه قال : حضرت مجلس مالك بن أنس فسـألـه أبو مصعب عن السماع فقـال مـالـك : مـاأدري . أهـل العلم ببلـدنـا لا ينكرون ذلك ولا يقعـدون عنـه ، ولا ينكره إلا غبي جـاهل أو نـاسـك عراقي غليظ الطبع .

وقـال أيضـاً : أخبرنـا محمـد التيمي ببغـداد قـال : سـألت الشريف أبـا علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي عن السماع فقال : مـاأدري مـاأقول فيـه ، غير أني حضرت دار شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التيمي سنة سبع وثلاث مئة في دعوة عملها لأصحابه ، حضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكية ، وأبو القاسم الداركي شيخ الشافعيـة ، وأبو الحسن طـاهر بن الحسن شيخ أصحـاب الحـديث ، وأبو الحسن بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد ، وأبو عبد الله محمـد بن مجـاهـد شيخ المتكلمين وصاحبه أبو بكر الباقلاني في دار شيخنا أبي الحسن التيمي شيخ الحنـابلـة فقـال أبو علي : لو سقـط السقف عليهم لم يبق بـالعراق من يفتي في حـادثـة شبـه واحـدة منهم ، ومعهم أبو عبـد الله غـلام تـام ، وكان هـذا يقرأ القرآن بصـوت حسن ، وربما قال شيئاً ، فقيل له : قل لنا شيئاً ، فقال لهم وهم يسمعون :

خطت أناملها في بطن قرطاس رسالة بعبير لا بأنقاس
أن زر فديتك لي من غير محتشم فإن حبك لي قد شاع في الناس
فكان قولي لمن أدى رسالتها قف لي لأمشي على العينين والراس

قال أبو علي : فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني أن أفتي في هذه المسألة بحظر ولا إباحة .

ومن الزهاد والعباد والعلماء ممن سمع الغناء أبو السائب المخزومي . فساق خبراً روايةً عن أبي الفرج الأصفهاني كيف عفا عن غلامه ، وكان قد بعثه ليبتاع له ما يفطر عليه ، فتأخر إلى المساء بسبب غناء سمعه وأتقنه ، فلما عاد إلى السائب ، وقص عليه سبب تأخره ، طلب منه أن يغنيه الصوت الذي تعلمه وقال : « فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ، وإن كنت أسأت لأضربنك ، فاندفع يغني بشعر كثيّر :

ولما علوا شغباً تبينت أنه تقطع من أهل الحجاز علائقي
فلا زلن حسرى ظلعاً لم حملنها إلى بلد ناء قليل الأصادق

فلم يزل يغنيه ويستعيده » إلى السحَر . ثم قال لابنه : « يا بني ! خذ جبتي هذه وأعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما . فقال له : يا أبت ! أنت شيخ وأنا شاب وأنا أقوى على البرد منك . فقال له : يا بني ما ترك هذا الصوت للبرد عليّ سبيلاً ما حييت » [١٩٧/٤]

ثم أورد قول الغزالي فكتب يقول : قال الغزالي في (إحياء علوم الدين) : كان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيها سماع .

وهكذا استمر في نقل الروايات بالأسانيد وأقوال الشيوخ إلى أن نقل (ذكر من غنّى من الخلفاء وأبنائهم ونسبت له أصوات من الغناء نقلت عنه) فذكر المرجع وصاحبه بوضوح إذ قال : كان ممن غنى من الخلفاء ـ على ما أورده أبو

الفرج الأصفهاني في كتابه المترجم بالأغاني - ونسبت له أصوات ، جماعة منهم عمر بن عبد العزيز [٢٠٠/٤] . وروى له بعض الشعر مما غني فيه من شعر جرير والأشهب بن رميلة . ثم نقل روايات لمن غنى من خلفاء الدولة العباسية [ص ٢٠١] ، وكذلك لأبناء الخلفاء الذين لهم صنعة ويد في هذا الفن [ص ٢٠٥] ، وذكر من غنى من الأشراف والعلماء رحمهم الله [ص ٢٢٧] ، وهكذا استمر ناقلاً مع ذكر الكتاب والأسناد المروية بها الأخبار المتعلقة دون أن يبدي رأيه في أي موضوع .

وملخص القول أن النويري في مسألة السماع قد أورد آراء كلتا الطبقتين بكل وضوح مسنداً آراءهم إلى أقطاب العلماء والفضلاء كقوله « وقد تكلم الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي رحمه الله تعالى على السماع في كتابه المترجم (بإحياء علوم الدين) وبيّن دليل الإباحة ، وذكر بعد ذلك آداب السماع وآثاره في القلب والجوارح فقال : ... » [١٦٠/٤] ثم شرع في النقل والاقتباس من كتاب (إحياء علوم الدين) .

وهكذا لاحظنا في هذه المسألة الحساسة أن النويري لم يكتف بذكر اسم المؤلف فحسب ، بل ذكر كتابه أيضاً بوضوح ، لأنه لا يريد أن يتحمل التبعة على عاتقه ، فهو في هذا المجال لا يعمل عمل عالم أو فقيه أو مفتٍ ، بل إنه يحتاط أشد الاحتياط في مثل هذه المواقع ، فلا يوقع نفسه في شبهة إضافة زيادات من عند نفسه ، بل يشير إلى الزيادات بأنها من المراجع نفسها ، كقوله هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى وفيه من الزيادات ما هو منسوب إلى الثعلبي والغزالي على ما بيناه في مواضعه .

ويحرص النويري أشد الحرص أيضاً أن يذكر المؤلف والكتاب كاملين ، في العلوم التي تتعلق بالأنساب والتاريخ والجغرافية والحيوان والنبات كما أسلفنا الكلام عن ذلك في الصفحات السابقة .

ومن أوضح الأمثلة لذكر المؤلف والكتاب المنقول عنه ومصدر الكتاب ما نقله النويري في ذكر كيفية ما يصنعه الكاتب في كل واقعة حيث قال : « ولنذكر كيفية ما يصنعه الكاتب في واقعة ، على معنى ما أورده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المخزومي المعروف بابن الصيرفي ، في مختصره الذي ترجمه (بمختصر المكاتبات البديعة فيما يكتب من أمور الشريعة) الذي قال فيه إنه اختصره من كتابه المترجم (بجامع العقود في علم المواثيق والعقود) » [٩/٩] .

٢ ـ ذكر المرجع والمؤلف بإشارة خفية

وأحياناً يذكر النويري مراجعه من الكتب والمؤلفين بإشارة خفية فيصعب على المرء الوصول إلى الاسم الصحيح ، إما للاشتباه في الاسم ، أو للمماثلة . فيضيع الباحث من وقته وجهده شطراً كبيراً في البحث عنهما والتأكد من صحتهما وتحقيقهما تحقيقاً يزيل الشبهة والمماثلة والغموض . ويحدث هذا كثيراً عند اختصاره لاسم المؤلف ، وخاصة إذا كان له لقب أو كنية يعرف بها ويشتهر .

ومثاله عند نقله ما يحتاج فيه إلى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلها أو ما يناسبها فيقول : « فكما قال المولى شهاب الدين محمود في تقليد ... الخ » ثم نقل في هذا الصدد ما طاب له النقل من كتابه . وشهاب الدين محمود هذا هو : شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي الحنفي ، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، توفي سنة ٧٣٥ . وكتابه الذي نقل منه هو : كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل . فبمحض ذكر المولى شهاب الدين لا يمكن للباحث أن يهتدي إلى الاسم الصحيح الكامل وكتابه المنقول منه ، إلا بعد بحث مضن طويل والرجوع إلى فهارس وقوائم للمؤلفين والجامعين ، وذلك أمر عسير يتطلب الجهد والمشقة .

ومن أمثلته كذلك ما أورده في ذكر رؤيا الملك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته في (الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الخامس) [١٤٣/١٣].

فقد قال النويري : قال الثعلبي : قال أهل الكتاب : لما تمت ليوسف في الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر . وبعد سطرين واصل نقله قائلاً : وحكى الثعلبي أن الملك عزل العزيز وولى يوسف .. الخ الحكاية .

فاكتفى النويري في هذه المواضع وغيرها أيضاً من هذا الجزء بذكر لقب صاحب الكتاب المنقول عنه الموضوع وهو (الثعلبي) ولم يذكر اسمه الكامل ، مما يحير الباحث ويلبس عليه الأمر في هوية هذا الرجل . فإن الذين يلقبون (بالثعلبي) قد يكونون كثيرين . ولذلك يحتاج الباحث ، إلى بحث مضن طويل ، ليتمكن من العثور على اسمه الكامل وهو : أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف (بالثعلبي) المتوفى سنة ٤٢٧ . أما كتابه الذي نقل منه الموضوع فهو : (يواقيت البيان في قصص القرآن) أو قصص الأنبياء المسمى بـ (العرائس) وقد طبع الكتاب في عام ١٣٠١ الهجري بالمطبعة البهية في القاهرة .

والجدير بالذكر أن النويري نقل من هذا الكتاب في معظم القصص المتعلقة بالأنبياء الواردة في هذا الجزء من النهاية .

ومن الأمثلة أيضاً ما أورده من أسماء المؤلفين في (القسم الرابع من الفن الثاني - في التهاني والبشائر والمراثي والنوادب والزهد والتوكل والأدعية) [١٢٧/٥] .

فقد ذكر النويري في هذا القسم أسماء (الحمدوني أخي صاحب التذكرة ، والوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن الجد الأندلسي ، وأبي المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة) .

ومن أمثلته أيضاً ما أورده في (ذكر ما قيل في السلاح وأوصافه) حيث قال [٢٠٠/٦] : « وقال العتبي : بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن

معديكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بـ (الصمصامة) فبعث إليه به ... » الخ ، فذكر (العتبي) فحسب دون الإشارة إلى اسمه الكامل وهو محمد بن عبد الله[1] ، وكتابه هو : (التاريخ اليمني) .

وكذلك قوله [٢٥٤/٦] « قال الماوردي » . أما الماوردي هذا فهو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، وكتابه المنقول منه هو (الأحكام السلطانية) .

ومثلها ما في (ذكر ما يأتيه القاضي ويذره في حق نفسه) [٢٥٨/٦] حيث قال : « قال الحليمي : وإذا دعا الإمام رجلاً إلى القضاء فينبغي له أن ينظر في حال نفسه وحال الناس الذين يدعى إلى النظر في مظالمهم ... » الخ ، أما الحليمي هذا فهو الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الحليمي الجرجاني الشافعي . وأما كتابه المنقول منه النص فهو كتاب المنهاج .

ومن أمثلته أيضاً قوله في (مما قيل في القتال في البحر) : « قال العسكري في ديوان المعاني » [١٩٧/٦] والعسكري اسم موقع في الاشتباه لأن هناك عسكريين اثنين وجدا في عصر واحد ، يتفقان اتفاقاً غريباً في أجزاء اسميهما ؛ الأول هو الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل بن زيد بن حكيم المشهور بالعسكري (أبو أحمد) ، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ؛ والثاني هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران المشهور بالعسكري (أبو هلال) المتوفى سنة ٣٩٥ هـ . ولذلك فإن الباحث يتحير أيهما يعني النويري عند النقل . أما صاحبه فهو العسكري الثاني المشهور بأبي هلال والجدير بالذكر أن النويري نقل منه كثيراً من الأشعار حول مختلف الموضوعات وخصوصاً الغزل والنسيب .

نقل النويري موضوعات كثيرة من كتاب (قوانين الوزارة) و (الآداب السلطانية) للماوردي ، ولكنه في معظم الأحيان اكتفى بذكر اسم المؤلف .

---

(١) راجع مقدمة كتاب (مروج الذهب) للمسعودي ص ٤

وكذلك الحال مع كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، فقد نقل منه أشياء كثيرة ولكنه نادراً ما كان يذكر الكتاب المنقول عنه .

وعلى هذا المنهج سار عند نقله من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

ومن أمثلته أيضاً ما أورده من كتاب (المؤتلف والمختلف في أسماء نقلة الحديث) فقد اكتفى بعد أن فرغ من النقل أن قال : « هذا مختصر ما ألفه عبد الغني » [٢١٤/٩] وبهذا الاسم المختصر لا يمكن لباحث عادي أن يعرف أن مؤلفه هو عبد الغني بن سعيد المصري . ثم اختار من الكتاب ما طاب له .

وكذلك قوله « قال الشيخ رحمه الله تعالى في كتابه الخيل : وألوان الخيل : أدهم ... الخ » [١١/١٠] وهذا الشيخ هو : الإمام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي المصري المتوفى سنة ٧٠٥ هجرية ، مؤلف كتاب (فضل الخيل) المطبوع بحلب سنة ١٣٤٩ هجرية .

ومن أمثلته قوله « قال ابن قتيبة وابن الأجدابي : إذا كان الفرس أبيض الظهر ... » [١٤/١٠] أما ابن قتيبة فأديب معروف وكتابه المنقول منه هنا هو أدب الكاتب ، ولكن ابن الأجدابي شخصية غير مشهورة ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الله المعروف بابن الأجدابي الطرابلسي . وكتابه هو كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ .

ومن أمثلته أيضاً صفحة ٧٠ وصفحة ١٢٠ (من النهاية ج ١١) ، وكل ما ورد في السيرة النبوية من الجزء ١٦ إلى الجزء ١٨ ، وذلك في الفن الخامس الأخير من كتاب نهاية الأرب .

وفي الكتاب أمثلة كثيرة تدل على اختصار اسم المؤلف أو الجامع ، أو الاقتصار على ذكر كنية المؤلف أو لقبه فيضطر الباحث إلى معرفة اسمه الكامل أولاً ، ثم البحث عن الكتاب الذي نقل منه إذا كان صاحب تصانيف كثيرة ،

مثل الجاحظ الذي يمتاز بين أدباء عصره بكثرة كتبه وتعددها وتنوعها ، أو كابن قتيبة الذي صنف في كل علم وفن تقريباً ، وقد نقل منهما النويري الشيء الكثير ؛ نقل من كتاب الحيوان للجاحظ في عدة أقسام من كتابه ، كالمعلومات عن النار [١٠٣/١] ، وفي عدد من مواضع ذكر الحيوان . ونقل من كتاب ابن قتيبة (الميسر والقداح) في الجزء الثالث ، ومن كتاب (عيون الأخبار) في الجزء الأول ، وفي عدة أماكن أخرى .

وكذلك الحال عند نقله من كتاب (الأدب الكبير) لابن المقفع ، حين اكتفى بذكر اسمه دون كتابه .

ومن أمثلته أيضاً قوله [١٧/١٠] : « وقال ابن قتيبة : والدوائر ثماني عشرة دائرة تكره منها الهقعة » فإن هذا الاقتباس منقول من كتابه (أدب الكاتب) الصفحة ١٥ .

ومن أمثلته كذلك ما نقله في هذا الجزء نفسه الصفحة ٣٢٢ حيث قال « وقد حكى صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر في كتابه قال : رأيت في بعض المجاميع المجهولة ، أن في بعض البحار شاة شعراء تكون في البر مع البهائم ... الرعي الخ » ولم يذكر اسم صاحب الكتاب وهو جمال الدين الوطواط . ومثله في ج ١١ صفحة ١٠ « الوراق » .

وهنا نختتم قولنا في هذه الظاهرة ، خيفة أن يطول بنا الكلام ، إذا ما عمدنا إلى سرد شواهد وأمثلة أخرى من الكتاب ، وهي كثيرة جداً أفعم بها سفره الضخم هذا .

٣ ـ لا يذكر المرجع إطلاقاً

إن النويري مع ذكره لمراجعه ومؤلفيها أحياناً ، سواءً كان هذا الذكر مختصراً أم مفصلاً ، كما أسلفنا ، لا يذكر مراجعه ومصادره في معظم الأحيان . وتتجلى

هذه الظاهرة في الموضوعات التي تتعلق بالأقسام الأدبية من الكتاب ، كنقل النصوص الأدبية ، من خطب ومقالات ، والنماذج الإنشائية ، الديوانية منها والأدبية ، والأشعار التي أتى بها استشهاداً أو تمثيلاً لمنقولاته في مختلف الموضوعات والمواد . وطريقته هذه تسبّب صعوبات كأداء في الوصول إلى المراجع والمصادر الحقيقية ، فلا يمكن التوصل إليها إلا بعد جهد ومشقة بالغتين ، وبعد التنقيب في بطون الكتب ، ومراجعتها مراجعة دقيقة مضنية .

ويجدر بنا هنا أن نقدم نماذج من هذه الظاهرة ، ونأتي بشواهد على ما أسلفنا من القول حول طريقته هذه ، من مختلف أقسام الكتاب وأبوابه ، وذلك على سبيل الاستدلال لا الحصر ، فإن مثل هذه المواضع كثيرة مبعثرة هنا وهناك ، في طيات هذه المجلدات الضخمة . ومن المتعذر على المرء إحصاء مثل هذه الأماكن لضخامة الكتاب وتعدد أقسامه وأبوابه ، بالإضافة إلى ما تتطلب هذه العملية من جهد ووقت ، فنقول :

كتب النويري في ص ٢٥ من نهاية الأرب في الجزء الثاني ، في باب (أما ما ورد في الشيب) يقول : « قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه : الشيب خطام المنية ، وقال غيره : الشيب نذير الموت » .

وقال : قد ورد في بعض التفاسير في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ [فاطر : ٣٥/٣٧] قيل : هو الشيب .... إلى قول عبد الملك بن مروان : « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » .

فقد أورد النويري هذه المقتطفات من العقد الفريد لابن عبد ربه ، الجزء الثاني ، ولم يذكر هذا المرجع إطلاقاً .

وكذلك ذكر (صفة البلاغة) حين قال « قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلّغك الجنة وعدل بك عن النار . قال السائل : ليس هذا

أريد . قال : فما بصّرك مواقع رشدك وعواقب غيّك . قال : ليس هذا أريـد ... الخ » .

وهذا الكلام كلـه من العقـد الفريـد ، الجزء الأول أيضـاً ، في ص ٢٨٢ ، ولم يذكر المرجع .

وكذلـك الحـال عنـد نقلـه لـ (صفـة الإمـام العـادل) [٣٧/٦] التي كتبهـا الحسن بن أبي الحسن البصري بطلب من عمر بن عبد العزيز ؛ فقد أخذهـا أيضـاً من العقد الفريد ص ١٩ من الجزء نفسه .

ومثله : ذِكر من انتهى إليهم الجود في الجاهليـة ، وذكر شيء من أخبـارهم ، حيث بدأ بمقدمة ، ثم ضرب المثل بحاتم وكعب ، ثم جاء بعده بكلام نقله من العقد الفريـد ، الجزء الأول ، مع بعض الاختـلافـات في سرد بعض القصص عن أخبـار الأسخياء ، منقولة من الأغاني دون أن يشير إليه أيضاً .

وكذلك في (ذكر ما قيل في الإعطاء قبل السؤال) [٢١٨/٣] حيث قـال : « قال سعيد بن العاص : قبح الله المعروف » فإنـه نقلـه أيضـاً من العقـد الفريـد الجزء الأول ص ١١٨

وكذلك الحال في القسم الثالث من الفن الثـاني ، البـاب الأول ، في المـدح ، والباب الثاني ، في الهجاء ، فـإنـه نقل البـابين من العقـد الفريـد ، الجزء الثـالث ص ٣٩٢ إلى ص ٣٩٥ . أما الباب الثـالث من القسم الثـالث من الفن الثـاني ، في المجون والنوادر والفكاهات والملح [ج ٤] ، فإنه منقول من العقد الفريـد ، الجزء الرابـع ، كتـاب اللـؤلـؤة الثـانيـة ، في الفكاهـات والملـح ، ص ٣٤٥ (الطبعـة الأزهرية) .

وفي الجزء السادس من النهاية ص ٥ ، نقل النويري البـاب الثـاني من القسم الخامس من الفن الثـاني : من العقـد الفريـد ، الجزء الأول ، وكـذلـك الحـال في

الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الثاني ، فصل (فيما يجب على الملك للرعايا) [٣٣/٦] فهو مأخوذ من العقد الفريد ، الجزء الأول ص ١٣ وما بعدها . وكذلك (ذكر ما قيل في حسن السيرة والرفق بالرعية) [٤١/٦] فقد أخذه من العقد الفريد ، الجزء الأول لفظاً وحرفاً إلا جملة واحدة . وكذلك الباب السادس ، في حسن السياسة [٤٣/٦] منقول من العقد ، الجزء الأول ، مع بعض الاختلاف في ألفاظ طلب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف أن يكتب سيرته إليه .

وقد وقع بعض الاختلافات بين كلمات النويري والعقد ؛ كقول النويري : « فإن أكرهتها أنصبتها » ، وهي في العقد الفريد : « فإن أكرهتها أنضيتها » ، والمعنى واحد . وقول النويري : « حامض الوجه » ، وهي في العقد الفريد : « جاحظ الوجه » ، وإنما يقال : « جاحظ العينين » .

أما (ذكر مزاحات رسول الله ﷺ) فإن مرجع النويري فيها كُتُب الأحاديث النبوية ، ولاسيما الترمذي وأبو داود ، إلا أنه لم يذكرهما إطلاقاً .

أما (ذكر من اشتهر بالمزاح من الصحابة رضوان الله عليهم) [٣/٤] فقد بدأه بأشهر المزاحين في الصحابة ، وهو نعيمان البدري ، وسرد قصة مزاحه مع سويبط (وهو بدري أيضاً) ، وكان مسؤولاً عن الزاد في مسيرة أبي بكر إلى بصرى ، فطلب نعيمان منه أن يطعمه شيئاً ، فرفض إلا بعد إذن من أبي بكر ، فباعه إلى أناس ، وأوهمهم أن غلامي هذا دعّاء وقد يقول : أنا حر ، فلا تبالوا بقوله ، فأتى المشترون إلى سويبط ، ووضعوا في عنقه حبلاً ، واستاقوه وهو يصرخ ويصيح « أنا حر ، أنا حر ، وهو كذاب » ، ولكنهم لم يهتموا بقوله وذهبوا به . فجاء أبو بكر ، فأخبر بالقصة ، فذهب إليهم ، ورد إليهم القلائص التي كان نعيمان قد أخذها ثمن سويبط ، ورده إلى القافلة . ولما أخبر النبي ﷺ بهذه القصة ضحك منها حولاً .

هذه القصة والقصص الأخرى في هذا الباب منقولة من كتاب (أخبار الظراف والمتماجنين) لابن الجوزي ، ولكن النويري لم يذكره إطلاقاً .

ومن أمثلة سكوت النويري عن ذكر المرجع ما نقله في باب (في الوزراء وأصحاب الملك) [٩٢/٦] فأكثره منقول من كتاب (قوانين الوزراة) للماوردي .

أما (وصايا أصحاب السلطان) في الجزء السادس نفسه ، فإنها مأخوذة من (الأدب الكبير) لابن المقفع .

وكذلك فصل في (وصف أعضاء الإنسان) وفصل (ظهور الشيب) والفصول : (أسماء شعر الإنسان) و (مما قيل في الحواجب) و (ما قيل في العيون ووصفها) و (ترتيب الصمم) وغيرها ... منقولة من كتاب (فقه اللغة) للثعالبي لفظاً وحرفاً دون الإشارة إليه .

قال « الوزير أبو المغيرة ابن حزم عندما عرضت عليه رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وده بعد أن عذّر قال :

ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ، ويرقع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفاءته جريرتك إلينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولاً إليك غير لحظة تخرق حجاب الدموع ... » الخ [٨٧/٢] .

نقل النويري هذه الرسالة كاملة ضمن فصل (مما وصف به العذار على طريق الذم) ، في الفن الثاني ، الباب الأول ، ولكنه لم يذكر ولم يشر إلى أنه نقلها من كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام ، الجزء الأول ص ١١٧[1]

ثم إن النويري أورد الكتاب المشهور الذي كتبه سيدنا علي رضي الله عنه إلى

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ، مخطوطة بدار الكتب .

مالك بن الحارث الأشتر عندما ولاه مصر ، والذي يتضمن نصائح وأصولاً غالية القدر والقيمة [١٩/٦] ، نقله من كتاب (نهج البلاغة) للسيد الشريف الرضي ، الجزء الثاني ص ٨٩ دون الإشارة إلى هذا الكتاب القيم المشهور . ومن الأمثلة المشابهة القسم الرابع كله ، وغيره[1] .

لقد نقل النويري نخبة مختارة ممتعة من الشعر الجيد الرصين في مختلف الأقسام والأبواب ، لكبار الشعراء من مختلف العصور من تأريخ الأدب العربي ومن مختلف طبقات الشعراء تمثيلاً أو استشهاداً لموضوع أو مادة ، ولكنه لم يذكر إطلاقاً من أي مصدر انتخب هذه الأشعار ، أو إلى أي مرجع لاختيار هذه المقتطفات ، مما يصعب على الباحث معرفة مصادرها ومراجعها . وقد أتى بهذه الأشعار ابتداء من الفن الأول واستمر إلى الفن الرابع ، أي من الجزء الأول من كتابه نهاية الأرب إلى الجزء الخامس عشر من الكتاب . وقد نقل معظم هذه الأشعار من كتاب (ديوان المعاني) لأبي الهلال العسكري ، و (كتاب المنتحل) للثعالبي ، و (زهر الآداب) للحصري القيرواني ، و (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، وكتاب (مباهج الفكر ومناهج العبر) لجمال الدين الوطواط ، و (الذخيرة) لابن بسام ، و (ذم الهوى) لابن الجوزي ، ومن كتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي من مواضع متفرقة ، وخاصة أشعار المغاربة ، وهو يشير إليهم بعض الأحيان بقوله « من شعراء اليتيمة » دون أن يذكر الاسم الكامل للكتاب ، وكذلك يشير بعض الأحيان إلى بعض الشعراء من (الذخيرة) لابن بسام بقوله من « شعراء الذخيرة » . دون ذكر الاسم الكامل .

وقد ذكر اسم أبي هلال العسكري ضمناً في ٢٦١/٢ فقال بعد نقل البيت الثاني لأحمد بن إسحاق الطالقاني :

---

(١) النهاية ج ٥ و ج ١٥١/٦ و١٩٩ و ج ١٦٠/٩ و ٢٢٤ و ٢٤٤ و ٢٨٤ وغيرها .

لقد حلت الحمى بساحة خده فأبدلت التفاح بالسوسن الغض

قال أبو هلال العسكري : والأصل في ذلك قول عبد بني الحسحاس ، ونقل في كتابه (ديوان المعاني) بسند رفعه قال : كتب عبد الله بن عامر إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه : إني اشتريت لك عبداً حبشياً شاعراً ، فكتب إليه عثمان : لا حاجة لي فيه ، فإن قصارى الشاعر منهم أن يهجو أعراضهم ، ويشبب بكريمتهم ، فاشتراه بنو الحسحاس ، فرئي يوماً وهو ينشد :

ماذا يريد السقام من قمر كل جمال لوجهه يتسعْ

فما عدا هذه الإشارات الخفيفة واللمح الضمني للمصدر ، لم يذكر النويري في مصادره ومراجعه هذا الديوان الكبير الذي زين به كتابه (النهاية) .

تلك نبذ قصيرة قدمناها على سبيل المثال لندل على أن النويري ينقل من الكتب ما يحتاج إليه من الموضوعات والمواد والمقالات والأحاديث والشعر ، لفظاً وحرفاً في معظم الأحيان ، ومع بعض التصرف والتعديل بعض الأحيان ، ولكنه لا يذكر المرجع البتة ، ولا يشير إليه بكلمة ، مما يخيل إلى القارئ أن النويري هو الذي تجشم مشقة كتابتها بعد إتقان الدراسة والمطالعة ، كما هو دأب المؤلفين والمصنفين ، لكن القارئ حين يخوض غمار البحث والتنقيب يجد مع الدهشة أن هذه النبذ والمقتطفات والمقطوعات إن هي إلا مقتبسات ومنقولات من كتب مختلفة متعددة ، تبحث في الموضوع المعين الذي عمد النويري إلى النقل والاقتباس من أجله ، في كتابه .

٤ ـ ينقل لفظاً وحرفاً دون تصرف

وبصفته الناقل المحض يعمد النويري إلى بعض النبذ من كتاب انتخبه لموضوع ، فينقلها لفظاً وحرفاً دون التصرف فيها بكلمة . ومثال ذلك ما أورده من كتاب (أدب الكتاب) لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي في النهاية الجزء السابع

ص ١٤ فصل (وما قيل في حسن الخط وجودة الكتابة ومدح الكتاب) حيث يقول : سئل بعض الكتّاب عن الخط : متى يستحق أن يوصف بالجودة ؟ قال : إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطوره ... فلقد وردت هذه الكلمات بعينها في كتاب (أدب الكتاب) للصولي ص ٥٠ لفظاً وحرفاً .

وكذلك ما أورده في (ذكر ما قيل في حسن السيرة والرفق بالرعية) [٤١/٦] إذ يقول : قال الله تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : ١٥٩/٣] وروي عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير كله ... الخ ، فإنه نقله لفظاً وحرفاً من (العقد الفريد) ، الجزء الأول الصفحة ٢٢ ، دون تصرف فيه أو تغيير .

ومن أمثلته (رسالة السقيفة) التي بعث بها أبو بكر الصديق إلى علي رضي الله عنه عند توليته الخلافة ، نقل النويري هذه الرسالة من رسائل أبي حيان التوحيدي ، ولقد أتى بها لفظاً وحرفاً دون التعليق عليها بحرف ، مع العلم أن هذه الرسالة مشكوك فيها ومطعون عليها .

وكذلك سلك المسلك نفسه عند نقله للفنون المختلفة من الكتب ، والموضوعات الدينية ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً عند الكلام عن الخمر والسماع وغير ذلك من الموضوعات الدينية الخالصة ، فإنه يراعي فيها الأمانة التامة .

ومما يتعلق بالفنون ، نأخذ مثلاً (فن ديوان الإنشاء) الذي تناوله في النهاية ج ٨ و ج ٩ ، فنجده هنا أيضاً يلتزم الأمانة والصدق في النقل ، فيقتبس العِينات والنصوص بتمام الدقة والأمانة دون تصرف أو تغيير أو تعديل أو تحريف .

فقد نقل النويري في هذين الجزأين من كتابه نماذج مختلفة للرسائل الديوانية ، وأنماطاً رائعة من الإنشاء الرائج من لدن القاضي الفاضل محيي الدين

أبي علي عبد الرحيم البياني[1] إلى صديقه منشئ عصره وفريد زمانه تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني .

ومن الجدير بالذكر أن النويري قبل نقل رسائلهم الإنشائية يعمد ـ خلاف عادته في كتابه هذا ـ إلى التعريف بهؤلاء المنشئين بما يليق بمكانتهم في فن كتابة الرسائل الديوانية والإنشاء الرسمي المألوف في ذلك الزمن .

فمثلاً يقول ، قبل نقل رسالة القاضي الفاضل السالف الذكر ، ليعرف القراء به : أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف (أبي المجد علي) بن الحسن بن الحسين بن أحمد اللخمي الكاتب المعروف بالبياني ـ رحمه الله ـ إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاصل بغير إطالة ... كل فاضل بعد الفاضل فضلة ، وكل قد عرف له فضله ، وستقف إن شاء الله من كلامه على السحر الحلال ، فتروي صداك من ألفاظه بالعذب الزلال .

ثم نقل رسالته التي كتب إلى النظام أمير حلب إذ قال : « ورد كتاب المجلس السامي ـ حرس الله به نظام المجد ، وأطلق فيه لسان الحمد ، ودامت مساعيه مصافحة ليد السعد .. » [٨/٢] إلخ الرسالة .

فنقل هذه الرسالة تامة دون تصرف ، ثم نقل بعض الأجوبة التي كتبها القاضي الفاضل وبعض رسائله الأخرى .

أما ابن عبد المجيد اليماني ، فقد عرّفه أولاً بهذه الألفاظ : هو الذي أتقن

---

(١) هو أبو علي عبد الرحيم البياني اللخمي ، كاتب الديار المصرية وصاحب الطريقة الفاضلية والكتابة البديعية ، ولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ وتوفي سنة ٥٩٦

صناعة الأدب في غرة شبابه ، وبرز على من اكتهل في طلبها ، وشاب في الترقي إلى رتبها ، فما ظنك بأترابه ، وجارى ذوي الفضل في الأقطار اليمنية ..

وبعد الاستمرار في التعريف به إلى صفحة تقريباً من كتابه .. يقول : وقد قدمنا من كلامه في هذا الكتاب ماباسمه ترجمناه ، ولفضائله نسبناه ، مما تقف عليه في مواضعه ، فنورد له في هذا الباب غير ماتقدم إيراده وتأخر ، ونأخذ لتصنيفنا من بلاغته بالنصيب الأوفى والحظ الأوفر .

ثم نقل نموذج إنشائه بقوله [١٥٢/٨] : « فمن إنشائه كتاب عن الخليفة المستكفي بالله أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان لملك اليمن ، عمله تجربة لخاطره عندما رسم بمكاتبته ابتداءً بأن قال : أما بعد حمد الله مانح القلوب السليمة هداها ، ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبتداها .. » .

إلى آخر هذه الرسالة التي تستمر أكثر من ست صفحات من الكتاب ، أوردها من غير تصرف أو تغيير .

وقد سار على المنهج نفسه عند نقله العهود والمواثيق الرسمية ، وكيفية كتابة الضمانات والعهود وغيرها من الكتابات الرسمية ، التي أوردها في الجزء التاسع من كتابه النهاية .

ولقد نقل النويري لهذا المنشئ المعاصر نفسه وهو تاج الدين عبد الباقي[1] بن

(١) هو الأديب البارع تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله ، ولد بمكة المشرفة في رجب سنة ٦٨٠ هـ . وكان إماماً فاضلاً أديباً بليغاً . قدم القاهرة ، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها مدة سبع سنين يقرئ الطلبة (المقامات الحريرية) والعروض وغير ذلك من علوم الأدب . ثم سافر إلى اليمن وأقام بها مدة وولي الوزارة وعزل وصودر ، ثم عاد إلى القاهرة وولي التدريس بالمشهد النفيس وشهادة البيمارستان المنصوري ، ثم توجه إلى طرابلس ودمشق فلم تطل مدته ، وعاد إلى القاهرة ومات بها سنة ٧٤٣ هـ . وله عدة تأليفات منها : مطرب السمع في شرح حديث أم زرع ، ولقطة العجلان المختصر في وفيات الأعيان ، وعمل تاريخاً =

عبد المجيد اليماني رسالة أنشأها في سنة ست أو خمس وسبع مئة ، ويقول النويري عنها : « وسمعتها من لفظه ونقلتها من إملائه وهي : يقبل اليد العالية الفلانية ، لا زالت ترسل إلى الأولياء سحائب كرمها ، وتقلد الأوداء قلائد نعمها ، ولا برح المرهفان طرازي حاشيتها وخدمها ، حتى ينوب القلم عن صليل مرهفها والصمصام عن صرير قلمها ، لتتساوى في الإنفاذ مواقع كلمها ، ومراسم كلمها ، ولا فتئ ظاهرها قِبلة القُبل وغاية الآمال ، وباطنها مورد الكرم ومصدر الأموال »[١٠/ ٧٥] .

إلى آخر الرسالة التي تستمر ثلاث صفحات من الكتاب . وهذه الرسالة هي الفريدة من نوعها ، إذ نقلها قائلاً إنه سمعها منه ونقلها لفظاً وحرفاً ، تسجيلاً لمآثر أحد أصدقائه ومشاركيه في المهنة ، وهي مهنة كتابة الرسائل الديوانية .

وهناك رسالة ثانية من هذا النوع نفسه ، وهي للمولى الفاضل العالم الأديب البليغ شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان الحلبي الكاتب ، والرسالة تتعلق بالخيل ، عملها تجربة ورياضة لخاطره ، فيقول النويري : « ولم يكتب بها ، سمعتها من لفظه ونقلتها من خطه ، وهي : أدام الله إحسان الجناب الفلاني ولا زالت الآمال في أمواله محكمة ، والأماني كالمحامد في أبوابه مخيمة ، والمعالي كالعوالي إليه دون غيره مسلمة ، والمكارم تغريه في الندى حتى يبذل ما حبب إليه من الخيل المسومة ... » [١٠/ ٧٠] إلى آخر الرسالة[1] .

فقد نقل هذه الرسالة دون تصرف وتغيير في الكلام ، مما يؤكد أنه يتحاشى التصرف والتبديل ، حتى في صورة التهذيب والتقويم ، خاصة حين تكون الشخصية من الشخصيات المشهورة في هذا الفن المخصوص .

= للنحاة ، واختصر الصحاح . وسمع منه البرزالي والذهبي (وذكراه في معجميهما) وابن رافع وخلائق ، وكتب عنه الشيخ أبو حيان وأثنى عليه كثيراً . (راجع شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ، والمنهل الصافي) .

(١) راجع هذه الرسالة في كتاب (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) .

ومن أمثلة النقل دون تصرف مانقله عن هذا المنشئ نفسه ، أي شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الكاتب ، صاحب كتاب (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) من رسالة عن رمي البندق قائلاً : « وقد أوردتها بجملتها ، لحسن التئامها واتساق نظامها وجودة ترتيبها وبديع تهذيبها . وهي : الرياضة ـ أطال الله بقاء الجناب الفلاني ، وجعل حبه كقلب عدوه واجباً ، وسعده كوصف عبده للمسارّ جالباً وللمضار حاجباً ... » إلخ [١٠/٣٢٨] .

فهنا لم يتصرف النويري في الرسالة لأنها حسنة الالتئام بديعة التهذيب والترتيب ، فلا حاجة إلى التصرف والتغيير فيها .

وهكذا نجده يلتزم جانب الأمانة الشديدة في نقل الرسائل الديوانية ، والنماذج ، والأنماط الإنشائية الرائجة في تلك الحقبة من الزمن ، وفي ذلك الهيكل من التنظيم الإداري .

وهنا نختتم هذه العجالة لكي نلقي نظرة خاطفة على الفنون الأخرى التي نقلها في النهاية .

فنراه ينقل المعلومات عن النباتات المختلفة في (الفن الرابع) [جـ ١١] من مصادر شتى ، وينقل من مؤلفين كثيرين لهم نصيب وافر من العلم والمعرفة بالنبات ، ويراعي في نقله الأمانة فلا يمس العينات والاقتباسات بتصرف أو تعديل أو ترميم . وذلك لأنه ضئيل المعرفة سطحي العلم بهذا الفن . وقد اعتمد النويري في النقل في هذا الفن على الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا الفيلسوف أبي الأطباء الشهير ، في كتابه (القانون) ، فنقل منه أكثر المعلومات إضافة إلى أنه نقل أيضاً من كتاب (الفلاحة النبطية) لكاتبه (أبي بكر بن وحشية) ـ كاتب غير معروف ـ كما نقل من (فقه اللغة) للثعالبي أسماء الخضراوات والنباتات ومختلف مدارجها من البذر إلى أن تصبح شجراً أو شجيرات . والجدير بالذكر أن

النويري في هذا الفن قد اختصر كتاب القانون كله بأمانة ودقة .

فإن ألقينا النظر على مانقله في الجغرافية نره ينقل النصوص دون تصرف أو تعديل ، من كل من (مروج الذهب) للمسعودي ، و (المسالك والممالك) لأبي عبيد البكري ، ولابن حوقل ، و (نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق) للإدريسي ، و (تقويم البلدان) لأبي الفداء ، ينقل من كل هؤلاء المؤلفين ومن غيرهم أيضاً بأمانة وصدق دون تصرف .

وقد سار على المنهج نفسه فيما يتعلق بالتأريخ ، فقد نقل ـ في هذا الجزء نفسه ـ أشياء كثيرة عن تاريخ البلاد والأصقاع والمعاقل والحصون والقلاع ، ناقلاً إياها عن تاريخ مكة للأزرقي ، وتاريخ مصر للحسن بن إبراهيم ، والسيرة لابن هشام ، والكامل لابن الأثير ، والروض الأنف للسهيلي ، في مواضع متفرقة من الكتاب دون تصرف أو مس بالكلام المنصوص في هذه الكتب .

وذلك هو دأبه في السيرة النبوية أيضاً ، بل هو يلتزم في هذا الموضوع الحساس جانب الحذر الشديد ويتمسك بمبدأ الحياد التام . وخير مثال له ما نقله حول اختلاف أقوال النسابين في كون المحمول معد بن عدنان أو عدنان نفسه .

فنقل أولاً عن السهيلي قائلاً : « قال السهيلي : أوحى الله تعالى إلى إرميا أن احمل معد بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ، فإني مستخرج من صلبه نبياً اسمه محمد ، فحمل معه معداً وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة . قال أبو الربيع بن سالم : ويقال المحمول عدنان ، والأول أكثر . قال : وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه : أن الله تعالى بعث ملكين فاحتملا معداً ، فلما رفع الله تعالى بأسه عن العرب ردّاه إلى موضعه من تهامة فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جرهم » .

وبعد أن نقل النويري قول الزبير بن بكار قصة إجهاز بني معد على عسكر

موسى عليه السلام ، ودعائه عليهم ، وقول الله في عدم استجابة دعائه « يا موسى دعوت على قوم فيهم خيرتي في آخر الزمان » .

قال النويري موضحاً موقفه من هذا الاختلاف :

« وفي هذه الرواية ما فيها من المنافاة لما تقدم من أنه كان مع إرميا ، ومن قال إنه كان على عهد عيسى عليه السلام والله أعلم بالصواب وإليه المرجع » ، وهكذا تبرأ النويري من الانغماس في هذا الاختلاف وإظهار رأيه تأييداً لهذا القول أو لذاك لكي يبقى على حياده وأمانته .

ولكن ليس معنى ذلك أن النويري يلتزم جانب الحياد في جميع المسائل المختلف فيها ، بل نجده أحياناً ينحاز ويصحح بعض الأقوال في مسألة خلافية ، إذا كانت تمس العقيدة الثابتة بالحديث الصحيح ، ويحاول في نقله أن يأتي بأقوال المؤيدين لهذه العقيدة ، وأقوال من يحل مشكلة وقوع اختلاف في مثل هذه المسائل الهامة . وأحسن مثال لطريقته هذه القول إن كنانة تزوج زوجة أبيه بعد وفاته على طريقة الجاهلية وأنجبت له النضر بن كنانة ، وبهذه الزيجة أصبح نسب النبي فاسداً ، والحال أن النبي ﷺ قال : « ما زلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من أمي وأبي » . قال : ومن اعتقد غير هذا فقد كفر وشك في هذا الخبر . قال : والحمد لله الذي طهره من كل وصم وطهر به . [١٥/١٦] ، فقد اعتمد في نقل السيرة الشريفة على كل من الجواني النسابة ، وطبقات ابن سعد ، ودلائل النبوة للبيهقي (مخطوط بدار الكتب المصرية ٢١٢ ـ حديث) ، وسيرة ابن هشام ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ، والطبري ، ونقل منهم بكل أمانة ودقة ، دون تغيير وتبديل ، (راجع نهاية الأرب الأجزاء ٦ ، ١٧ ، ١٨ وهو الجزء الأخير المطبوع من هذه الأسفار) .

لاحظنا إذن أن النويري بصفته الناقل لتراثنا من العلوم والفنون والمعرفة

والحكمة القديمة ، قد التزم الأمانة كاملة في مثل هذه الفنون الحساسة من تراثنا الضخم الزاخر ، المبعثر في مختلف بطون الأسفار ، المضمر في طيات مختلف المؤلفات والمصنفات ، المخطوطة منها والمطبوعة ، أنى تسنى ذلك له ، لكي لا يتهم بالتحريف والتصحيف ، والتغيير والتبديل ، فيما بلغت يداه من تراثنا القيم الثمين.

٥ ـ يتصرف ... ولكن لينقح ويهذب المنقولات والمقتبسات

وليس معنى ماأسلفناه من القول حول عدم تصرف النويري في منقولاته ، وما أبديناه من رأي حول عدم تغيير النويري للعينات والمقتبسات ، أنه لا يتصرف إطلاقاً ، بلى ، يتصرف ، ولكن بصفة المنقح للنصوص والمهذب للمختارات ، وذلك لكي يقدمها في صورة رائعة جذابة ممتعة ، تميل إليها النفوس والأهواء ، وتبتهج بها القلوب والأفئدة ، وتتلذذ بها المشاعر والأحاسيس ، وتترنح لها العواطف والخواطر ، وتستسيغها الأذواق والميول . أليس هو القائل « وما أوردت فيه (أي كتاب نهاية الأرب) إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه » ؟ (مقدمة الكتاب صفحة ٢٦) .

ولذا ، فإنه تحقيقاً لمرماه هذا ، يتصرف أحياناً في المنقولات والمقتبسات ، وتصرفه هذا يتجلى أحياناً في تغيير الترتيب الذي وضعه صاحب الكتاب ، لكي يوافق خطة النويري في وضعه لهذه المقتبسات في كتابه ، وخير مثال لهذه الظاهرة نقله الأنساب من النسابة الجواني ، فإن الجواني ـ كما علمنا ـ سرد النسب من نبينا محمد ﷺ إلى أن رجع به إلى سيدنا آدم عليه السلام . ولكن النويري قلب الترتيب فجعله من آدم ليوصله إلى نبينا محمد ﷺ ، كما هو المألوف ، وكما أشرنا في غير هذا المكان .

والنويري أحياناً يقدم شيئاً ويؤخر شيئاً آخر من المنقولات في كتابه . وخير مثال لهذه الظاهرة نقله من كتاب (ذم الهوى) لابن الجوزي ، فقد أورد

ابن الجوزي في كتابه هذا خمسين باباً بترتيب خاص ، ولكن النويري عندما نقل باب (الغزل والنسيب والهوى والمحبة والعشق) [٢/١٢٥] قدم بعض أبواب ابن الجوزي على بعض ، وأخر بعضها عن بعض ، كما حذف بعض الأبواب وبعض المواد الواردة فيها بحسب خطته .

وأحياناً كان يحذف التفاصيل وأحياناً يختصرها ويوجزها . وخير مثال لهذه الطريقة ما نقله من الأخبار والحكايات والوقائع من كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، حول مختلف الأشخاص ، من المغنين والمطربين والشعراء والعلماء والخلفاء والقضاة وأولياء الأمور . فالنويري ، إلى جانب تنقيح وتهذيب العينات والأخبار ، يصحح بعض بياناته أيضاً ، كسرد الاسم أو اللقب أو الولاء خطأ ، وكذلك عند نقله للأمثال من كتاب الميداني وغيره .

وأحياناً يختار النويري العينات حول موضوع من كتاب واحد ، ويوزعها في أجزاء مختلفة من كتابه ، وفي مختلف أقسامه وأبوابه وفصوله . ومثاله نقله الموضوعات من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه ؛ فلقد نقل منه نبذاً كثيرة ، كما علمنا من قبل ، ولكنه وزعها في كتابه بحسب خطته المرسومة . لذلك قد نجد شيئاً ذكره ابن عبد ربه في الجزء الأول من كتابه ، ونقله النويري في الجزء الخامس من كتابه ، والذي ذكره ابن عبد ربه في الجزء الرابع من كتابه يجد متسعاً من كتاب النويري في الجزء الأول مثلاً .

وكذلك الحال عند نقله من كتاب (فقه اللغة) للثعالبي ، ونقله المعلومات عن الحيوان في الفن الرابع من كتابه ، حيث استقى النويري معظم معلوماته عن الحيوان والبهائم والخيول والماشية ، حتى الأسماك والحيوانات المائية الأخرى من كتاب (مباهج الفكر ومناهج العبر) لجمال الدين الوطواط الوراق الكتبي ، ولكنه لم يتبع ترتيب الوطواط ، بل أدرج ضمنه معلومات حصل عليها من

مصادر أخرى غيره ، مثل (كتاب الحيوان) للجاحظ حيناً وكتاب (مروج الذهب) للمسعودي حيناً آخر .

وأحياناً يحذف النويري الجمل ويشطب الكلمات والتفاصيل غير الضرورية من الكتب المنقولة منها الموضوعات . وخير مثال لهذه الظاهرة (ذكر ما قيل في الجود والكرم وأخبار الكرام) [٢٠٤/٣] ولنقف وقفة قصيرة لنلقي نظرة عاجلة نقف فيها على طريقته هذه . والباب المشار إليه هو أقصر باب نسبياً .

استهل النويري هذا الباب بذكر حقيقة الجود فقال : هو بذل المال . ثم أورد بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، إضافة إلى قول علي بن عبد الله وأقوال بعض الحكماء ، إلى أن نقل من (العقد الفريد) الجزء الأول فقال : « وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه : لو لم يكن في الكرم ... إلخ » منقولاً من الصفحة ١١٢ ، إلا أنه اختصر بعض الأشياء وزاد بعضها ؛ حين حذف الحديث الثاني الوارد في (العقد الفريد) حيث يقول : « وفي الحديث المأثور : الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله » . وحين أراد نقل الكلمات التالية : « وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت » [العقد ١١٣/١] . حذف النويري : « قال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر » ، واستمر في نقله إلى الآية الكريمة . أما جملته : « وقال أكثم بن صيفي حكيم العرب » فإنها غير موجودة إلى الأشعار التالية لها . ثم استأنف نقله من (العقد الفريد) قائلاً : « وكتب رجل من البخلاء ... إلخ » وحذف كلمة خالد بن عبد الله القسري ، وقول الحطيئة ، وذكر قول سعيد بن العاص الذي أورده (العقد الفريد) ، واستمر في نقله من (العقد الفريد) لفظاً وحرفاً إلى الشعر القائل :

من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظن المرء بالله

وحذف بعده كل ماأورده (العقد) إلى أن استأنف نقله من « وقيل لأبي عقيل البليغ العراقي » إلى « أن اسمه لم يقع في حمد قط » [٢٠٦/٣] ولم يذكر الكلام الذي ورد في (العقد) بعده وكذا الأشعار .

ثم قال النويري : « وقال أسماء بن خارجة » ، إلا أن (العقد) ذكر هذا الاسم بالتأنيث قال : « وقالت أسماء بنت خارجة » [١١٥/١ طبعة قديمة] .

ثم حذف النويري حوالي صفحة من (العقد الفريد) الجزء الأول ، ليستأنف نقله منه عند حكاية إبراهيم بن المهدي حيث يقول « وقال إبراهيم بن المهدي : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها[١] » .

أما قصة « طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ، من أجود قريش في زمانه » عندما قالت له امرأته : إن إخوانك يأتون إليك إذا كثر مالنا ويهجرونك إذا عسرنا ، فقال : « يأتوننا في حال القوة عليهم ويتركوننا في حال العجز عنهم » ، وحكاية شيخ أتى سعيد بن سالم فأدمى قدمه بزج عصاه فلم يقل شيئاً خوفاً من أن يستحي فلا يذكر حاجة ، فلم تردا في (العقد) ، وقد نقلها النويري من مصدر آخر .

ومن أمثلته أيضاً (ذكر من انتهى إليهم الجود في الجاهلية) [٢٠٨/٣] فقد سلك النويري النهج نفسه في هذا الباب أيضاً .

ومن أمثلته تهذيب وتغيير بعض الكلمات محل بعض في (فصل في عوارض العين) [٢ / ٤٤] فقد نقل الفصل من (فقه اللغة) للثعالبي ، غير أنه اختصر بعض المصطلحات . مثلاً قال الثعالبي : « اسمدرت عينه إذا لاحت لها سمادير ، وهي ما يتراءى لها من أشباه الذباب وغيره عند خلل يتخللها » فحذف منه

---

(١) نهاية ٢٠٧/٣ والعقد ١١٦

« عند خلل يتخللها » . وكذلك لم ينقل ما ورد في (فقه اللغة) « عن الأصمعي » .

ثم واصل النويري نقله من فقه اللغة حتى نهاية (فصل في كيفية النظر) بألفاظه ، إلا أنه حذف من الفقه « عن أبي عمرو » وزاد بعد القرآن كلمة « العزيز » . وكذلك ترك « عن أبي عمرو » قبل نقله « فإن نظر إلى أفق الهلال » وزاد كلمة « ليراه » . واستمر في النقل من الفقه إلى ص ٥٢ ، لينقل « ومما قيل في أدواء العين » ، وأوله « الغمص ألاّ تزال العين ترمص » . ولقد زاد النويري على الفقه فأورد شعر النابغة استشهاداً لكلمة (العائر) وهو الرمد الشديد ، فقال :

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

ولم يذكر الثعالبي هذا الشعر في كتابه . ولقد أفاض الثعالبي في شرح كيفية (ورم العين) ولكن النويري حذفه كله واكتفى بذكر معناه .

تلك أمثلة وجيزة أوردناها شاهداً على طريقة تصرف النويري في منقولاته . وقد لاحظنا أن النويري في تصرفه وتهذيبه للمنقولات يضع نفسه موضع المهذب والمنقح ، لا موضع المحرف أو المصحف ، فإنه لا يحرف في الأصل ، ولا يدخل فيه شيئاً من عنده فيتغير المعنى أو ينقلب المراد والمطلب ، وإنما يضع مكان كلمة كلمة يراها أنسب وأجمل وأفصح للمعنى المقصود ، وهذا في الموضوعات الأدبية فحسب ، كما لاحظنا في تمثيلنا لطريقته هذه عند نقله من الثعالبي .

وليس بدعاً من رجل كالنويري ألاّ يرى بأساً في مثل هذا التهذيب أو التبديل في الألفاظ ما دام المعنى لم يتغير ، فإن له فيه أسوة من رواية الحديث بالمعنى عند بعض أئمة الحديث والفقهاء . فإن كان من المسموح به رواية الحديث بالمعنى دون الاقتصار على اللفظ ، فإنها أنسب وأولى في بعض الأحيان ، ولا سيما

في العلوم الأدبية ، حين يبقى المعنى واضحاً بوضع لفظ محل لفظ . أليست الألفاظ أداة للتعبير عن المعنى بأوضح وأكمل وضع ؟ ذلك هو السبب في أن النويري لا يرى غضاضة في مثل هذه المواضع أن يهذب أو ينقح أو يبدل كلمة أو لفظاً أو تعبيراً أو جملة ويضع محلها بديلاً أنسب وأجمل وأفصح وأوضح منها . فإن النويري لا يريد الحصر والاستيعاب لما ينقله من الكتب والمصادر . وقد ألمح إلى هذا في بعض مواضع كتابه وهو يوضح موقفه من نقله الأسماء من كتاب (المؤتلف والمختلف) أثناء نقله الحديث لمؤلفه عبد الغني بن سعيد المصري ، قال : « هذا مختصر ما ألفه عبد الغني ـ رحمه الله ـ وفيه زيادة في مواضع نبهنا عليها ، ولم يكن الغرض بإيراد ما أوردناه من المؤتلف والمختلف استيعابه وحصره إنما كان الغرض التنبيه على ذلك ، وأن الناسخ يحتاج إلى ضبط ما يرد عليه من هذه الأسماء وأمثالها ، وتقييدها والإشارة عليها ، وقد أخذ هذا الفصل حقه » . وهكذا لاحظنا أن النويري كان يعمد إلى الزيادة على النصوص للإفادة والاستفادة .

ومن الملاحظ أن النويري يسلك هذا المسلك ، ليس عفواً دون فكر وروية ، بل يضع لطريقته خطة مرسومة محكمة التنسيق دقيقة التنظيم والترتيب . فما هي هذه الخطة ؟ ذلك ما نتناوله بالبحث والدراسة في الصفحات الآتية .

خطة النويري في كتابه

إنما ينهج النويري هذا المنهج ، ويتبع هذه الخطوة وفق خطة مرسومة ونهج معين محكم التنسيق والتنظيم ، يضعه بعد فكر وروية وتدبر بالغ ، فلقد راعى في تأليفه هذا أن يوزع الفنون والأقسام والأبواب والفصول والذيول (أنى احتاج إليها) في ترتيب جيد الحبك متين النسج دقيق النظم والنسق ، يسهل

تناوله والاستفادة منه بأحسن طريق ممكن . فلم يجمع كل رطب ويابس قرأه أو وصلت إليه يداه ، دون أن يفكر فيه من ناحية جودته والاستفادة منه والإفادة بحسب تقسيمه في الفنون والأقسام المعينة . وذلك لكي لا يدخل شيئاً في شيء لا يوافقه ، أو فناً في فن يغايره ، كما فعله الجاحظ وابن قتيبة من الأدباء والمنشئين قبله في كتبهم وأسفارهم المتعددة . فإنهم (أي القدماء من المؤلفين بسبب نظرتهم إلى الأدب على أنه الأخذ من كل شيء بطرف) كانوا يخلطون بين فن وفن وعلم وعلم . فحكمة بجانبها بيتان من الغزل ، ونادرة لطيفة بجانبها خطبة بليغة ، وقصص في البخل بجانبها أخبار عن الخوارج وهكذا[1] . بل اتخذ النويري فيه منهجاً يضاهي منهج العصر الحديث في توظيف التأليف وتنسيقه تنسيقاً لائقاً منظماً . فكان النويري ينتخب فناً خاصاً من الفنون ليطالعه ، فيجمع الكتب المتعلقة به أولاً ، ثم يطالعها مطالعة دقيقة وافية ، وبعد ذلك يضع لهذا الفن أو القسم أو الباب خطة مرسومة واضحة دقيقة ، يثبت فيها ترتيب كتابته ، وكيفية نقله من هذا الكتاب ، فتأتي كل نبذة في محلها ، ويثبتها حيث يقتضي المقام إثباتها ، بحسب طول الفن أو القسم أو الباب أو قصره ، ثم يبدأ النقل . فيبدأ نقله مثلاً من كتاب معين ، ويستمر فيه إلى كلام أو بحث خاص يحب نقله ، ليترك هذا الكتاب ويشرع في نقله من كتاب آخر ، وقد انتخب فصلاً منه فعلاً من قبل ، لنقله في كتابه ، وفي موضع خاص منه ، فيشبعه نقلاً واقتباساً ، وبعد أن ينتهي من نقله من هذا الكتاب العينة أو المقتبس من الفصل الذي يريد ، ينتقل إلى كتاب ثالث ، ليستأنف نقله منه إلى أن ينتهي الباب من كتابه النهاية .

وخير مثال لطريقته هذه ما أورده في القسم الخامس (في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية ، وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به

(١) د . عبد اللطيف حمزة ـ القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ص ١٨

ذكر الوزراء وقادة الجيوش وأوصاف السلاح وولاة المناصب) .

فتلك هي خطته المرسومة وضعها للقسم الخامس من كتابه ، لكي يسهل عليه جمع المعلومات والمواد وتحديد الفصول والصفحات بحسبها من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكي لا ينسى شيئاً أو يخلط شيئاً بشيء لا يلائمه أو لا يليق به . وبعد أن تم له هذا كله ، بدأ النقل ، فوضع الباب الأول من هذا القسم في (شروط الإمامة) وفق خطته ، وقسمها قسمين : أحدهما (الإمامة الشرعية) ، وثانيهما (الإمامة العرفية) . واستهل الباب (بالإمامة الشرعية) واختار لهذا الفصل كتاباً وجده أحسن الكتب وأقومها وأغزرها في هذا الموضوع ، في حسن الجمع والاختيار وإجادة الاختيار والانتخاب مع مراعاة أصول الإيجاز والاختصار ، وهو كتاب أبي عبد الله الجرجاني فقال : « أما الشروط الشرعية فقد ذكر منها الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن الحليم الحليمي الجرجاني الشافعي رحمه الله[1] في كتابه المترجم بـ (المنهاج) لمعة واضحة البيان حسنة التبيان اكتفينا بإيرادها عما سواها واقتصرنا عليها دون ما عداها ، لجمعها أكثر الشروط مع إيجاز اللفظ وإصابة الغرض على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى » [٦ / ١] .

وبعد هذا التعريف البسيط للكتاب ، وذكر وجه تفضيله على سائر الكتب في الموضوع يبدأ النقل منه . فيقول : « قال الحليمي : إذا أراد أهل الاجتهاد نصب إمام حين لا إمام لهم ، أول شروطه أن يكون من قريش ، وثانيه أن يكون عالماً بأحكام الدين من الصلاة وأخذ الصدقات ومصارفها والقضايا والجهاد بالمسلمين وقسم الغنائم والنظر في حدود الله تعالى إذا رفعت إليه فيقيمها أو يدرأها وغير ذلك » .

---

(١) توفي سنة ٤٠٣ هـ راجع كشف الظنون للإلمام به

ثم استمر في النقل من هذا الكتاب فأورد منه (اشتراط النسب) في الإمام و (اشتراط العلم) و (اشتراط العدالة) ، إلى أن نقل منه خمسة فصول وبعض الأقوال للفلاسفة والحكماء حول الشروط العرفية والاصطلاحية للإمام ، إلى أن ختم هذا الباب بقول بعض الفرس : أحزم الملوك من غلب جده هزله ، وقهر رأيه هواه وعبر عن ضميره فعله ، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيده [٦ / ٥] .

ثم وضع الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الثاني : في صفات الملك وأخلاقه وما يفضل به على غيره ، وذكر ما نقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالة على علو هممهم وكرم شيمهم .

وابتدأ هذا الباب بنقله من كتاب (العقد الفريد ـ لابن عبد ربه) فقال « قال أحمد بن محمد بن عبد ربه : السلطان زمام الأمور ونظام الحقوق وقوام الحدود » واستمر في نقله من هذا الكتاب باختصار وإيجاز حتى أتى بفصول : « وأما ما يفضل به الملك على غيره .... وأما فضيلة الآلات ... وذكر شيء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء الملوك ... » وغير ذلك من الكلام ليختتم هذا الباب بكلام المنصور : « يحتمل الملوك كل شيء إلا ثلاثة : القدح في الملك وإفشاء السر والتعرض للحرم » [٦ / ٥ ـ ٨] . إلى الباب الثالث من الفن الثاني الذي ينتهي بأقوال الحكماء والأدباء وآخرها قول الشعبي إذ قال : « قال لي ابن عباس قال لي أبي : إني أرى هذا الرجل ـ يعني عمر بن الخطاب ـ يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ وإني موصيك بخلال أربع : لا تفشين له سراً ، ولا تجربن عليه كذباً ، ولا تطو عنه نصيحة ، ولا تغتابن عنده أحداً . قال الشعبي فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف ، قال : إي والله ومن عشرة آلاف » [٦ / ١٦] .

ومن هنا أخذ ينقل من كتاب (الأدب الكبير)[1] و (رسائل ابن المقفع) فقال : « وقال ابن المقفع : من خدم السلطان فعليه بالملازمة من غير معاتبة . وقال : إن سأل السلطان غيرك فلا تكن المجيب » إلى آخر هذا الفصل . فلقد أورد جميع هذه الأقوال من كتاب ابن المقفع (الأدب الكبير) .

وفضلاً عن هذه الأقوال فإن النويري أورد جميع الوصايا وطرق ملازمة الملوك وغيرها من كتاب ابن المقفع (الأدب الكبير) ومن (رسائل ابن المقفع) . إلى أن أورد كتاب سيدنا علي رضي الله عنه ، الذي أرسله إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر ، فقال النويري : « لم أر فيما طالعته من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشمل من عهدٍ كتبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر ، حين ولاه مصر » ثم نقل هذا العهد بتمامه وهو طويل[2] . وقد أتى به من كتاب (نهج البلاغة) للشريف الرضي ، الجزء الثاني ص ٨٩ (طبع بيروت) .

ثم عاد فاستأنف نقله من كتاب (العقد الفريد) ، و (عيون الأخبار) لابن قتيبة ، و (أدب الدين والدنيا) للماوردي ، وذلك في الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الثاني (فيما يجب على الملك للرعايا) ، وفي الباب السادس (في حسن السياسة وإقامة المملكة ويتصل به الحزم والعزم) ، وفي الباب السابع (في المشورة وإعمال الرأي والاستبداد) [ص ٦٩] ، وفي الباب الثامن (في حفظ الأسرار والإذن والحجاب) وهو ينتهي بذكر ما قيل في النهي عن شدة الحجاب [ص ٩٠] ، وقد ختمه بقول جعفر المصري :

وتفضَّلْ عليَّ بالإذن إن جئـ ـتُ فإني مخفِّف في اللقاء
ليس لي حاجة سوى الحمد والشكـ ـر فدعني أقرئْكَ حُسن الثناء

(١) الأدب الكبير لابن المقفع ص ٤٥
(٢) من ١٩/٦ إلى ٣٢/٦

ولكنه حين يبدأ البابُ التاسع نجده قد انتقل إلى كتاب آخر ليأخذ منه ما أورده حول (الوزراء وأصحاب الملك) [٦ / ٩٢] . وهذا الكتاب هو أدب الوزير المعروف بـ (قوانين الوزارة وسياسة الملك) للماوردي[1] ، فإنه نقل منه صفات الوزراء وحاشية الملوك وما يجب عليه من الإلمام بالثقافة والعلم والدين والمروءة والأخلاق ، إلى غير ذلك من الصفات التي أوردها الماوردي في كتابه هذا . واستمر في نقله من هذا الكتاب ، يختصر تارة ويلخص أخرى ، حتى لخص الكتاب كله تقريباً [إلى ص ١٤٣ من ج ٦ من النهاية] .

ثم عاد أدراجه إلى ابن المقفع ولكن في كتاب له جديد ، وهو (الأدب الكبير) حيث نقل وصايا أصحاب السلطان وابتدأه قائلاً : قالت الحكماء : إذا نزلت من الملك بمنزلة الثقة فاعزل عنه الكلام الملق ، ولا تكثر من الدعاء له في كل كلمة .... الخ .

وبعد أن أورد ما يحسن ، حول الوزراء وحاشية الملوك ، ساق لنا ما يحتاج إليه قواد الجيوش والأمراء من الأوصاف . وإيفاء بهذا الغرض يعود بنا مرة أخرى إلى المصنف الذي بدأ منه نقله في هذا الباب ؛ وهو الشيخ الحليمي الجرجاني الشافعي في كتابه المنهاج . وذلك في الباب العاشر من القسم الخامس من الفن الثاني من النهاية . حيث يفتتح الباب قائلاً : « قال الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الحليمي الجرجاني الشافعي في كتابه المترجم بـ (المنهاج) ما مختصره ومعناه : إذا أنفذ الإمام جيشاً أو سرية فينبغي أن يؤمّر عليهم رجلاً صالحاً أميناً محتسباً ... » الخ ، ويستمر في الاختصار منه قدر صفحة تقريباً [٦ / ١٥١] .

وبعد أن ينتهي منه يقدم لنا كتاباً آخر جديداً ، وهو في هذه المرة

---

(١) الماوردي هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب

(الأحكام السلطانية) للماوردي السالف الذكر ، فيقول في فصل (وأما ما يلزم قائد الجيش) : « قال أبو الحسن الماوردي في كتابه المترجم بـ (الأحكام السلطانية) ما معناه أن أمير الجيش يلزمه ستة أحكام » [٦ / ١٥٢] ، ونقل هذه الأحكام كاملة من هذا الكتاب في ١٥ صفحةً من النهاية . إلا أننا نجد اختلافاً واضحاً بين الكتابين في وضع عنوان الفصل . فبينما قال الماوردي « الباب الرابع في تقليد الإمارة على الجهاد ، القسم الأول في تسيير الجيش : وعليه في السير بهم سبعة حقوق أحدها الرفق بهم ... إلخ » ـ الأحكام السلطانية ٣٤ ـ نقل النويري هذا الفصل تحت عنوان « أما ما يلزم قائد الجيش . قال أبو الحسن الماوردي ... » إلى أن بدأ النقل من الأحكام السلطانية كما ورد الفصل فيه ، مع اختلاف بسيط في الحديث الذي أورده الماوردي قائلاً : قال النبي ﷺ : « هذا الدين المتين ... إلخ » . أما النويري فإنه قال : إن هذا الدين ـ بزيادة (إن) . وكذلك هناك بعض الاختلافات البسيطة بين الأحكام السلطانية وبين النهاية .

وقد استمر في النقل من هذا الكتاب إلى الصفحة ١٦٧ من النهاية الجزء السادس ، لخص فيها جميع ما كتبه الماوردي في هذا الموضوع[(١)] ، ليعود بنا مرة أخرى إلى الحليمي في كتابه (المنهاج) ، حيث يأتي بفصل (وأما وصايا أمير الجيش) قائلاً : « قال الحليمي : يوصي الإمام أمير السرية والجند بتقوى الله ... » [٦ / ١٦٧] ويضمّنه مختارات من (العقد الفريد) ، مثل قوله : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرّاح » [٦ / ١٦٧] فإنه منقول من العقد الفريد ص ٤٩ إلى أن يعرفنا بكتاب آخر هو (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة ، فينقل منه قصة دهاء معاوية قائلاً : « كان معاوية بن أبي سفيان من الدهاة ، وله أخبار في الدهاء تدل على بعد غوره وحدة ذهنه ... » . ثم قصة تزويج ابنه يزيد من زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي [٦ / ١٨٠] . فلقد

(١) الأحكام السلطانية للماوردي

أتى ابن قتيبة بهذه القصة في الجزء الأول من كتابه ص ٣٠٤ . إلا أن النويري كتب اسم خصيّ معاوية (رفيق) وهو في (الإمامة والسياسة) (رقيف) ، وجميع نسخ الكتاب الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة ، وعددها ست نسخ ، تذكر اسمه (رفيق) . كما أن النويري أورد اسم المرأة التي أحبها يزيد (زينب بنت إسحاق) ، وابن قتيبة يذكر اسمها (أرينب بنت إسحاق) . ونعتقد أن (زينب) أنسب من (أرينب) لأن هذا الاسم ، فضلاً عن كونه غريباً عن اللغة والسمع ، تصغير لـ (أرنب) وهو لا شك مؤنث ، ولكنْ نادراً ما سمعنا امرأة سميت في الماضي أو تسمى الآن باسم أرينب ، وخاصة إذا كانت من صميم أسرة عربية .

ثم استمر النويري في نقله من هذا الكتاب عن أحوال معاوية ودهائه حوالي عشر صفحات ، لينهي نقله من (الإمامة والسياسة) بقصة دهاء معاوية في الانتقام من البطريق الذي لطم أحد القرشيين وهو في أسر الروم ، فاستنجد بمعاوية ، فاحتال معاوية للقبض على هذا البطريق بوساطة أحد قواده بالثغر الرومي ونجح فيه . فلما وقف البطريق المعتدي أمامه طلب القرشي وقال له : اصنع به ما صنع . فقام القرشي ولطم البطريق انتقاماً لما صنع به . وختم النويري اقتباسه قائلاً : « وهذه الواقعة محاسنها تستر مساوئ ما تقدمها » [٦ / ١٨٥] .

وبعدئذٍ نقل بعض الأشعار حول نعوت العساكر ، من دواوين مختلف الشعراء وخاصة العقد الفريد ، مثل قول الشاعر :

كأن الأفق محفوف بنار وتحت النار آساد تزير

وقول الآخر :

ويوم كأن المصطلين بحرّه وإن لم يكن جمر وقوف على جمر

ومما قال البحتري :

حمر السيـوف كأنمـا ضَربت لهم أيدي القيون صفائحاً من عسجـد

وقال النابغة الجعدي :

تبـدو كـواكبـه والشمس طـالعـة لا النور نور ولا الإظـلام إظـلام

ومن أحسن ما قال أحمد بن محمد بن عبد ربه قوله :

ومعترك تهـز بـه المنـايـا ذكـور الهنـد في أيـدي ذكـور
لـوامـع يبصر الأعمى سنـاهـا ويعمى دونهـا طرف البصير
تحـوّم حـولهـا عقبـان مـوت تخطّفت القلـوب من الصـدور
وخـافقـة الـذوائب قـد أنـافت على حمراء ذات شبـا طرير
بيـوم راح في سربـال ليـل فمـا عرف الأصيـل من البكـور
وعين الشمس ترنـو في قتـام رنـو البكر من خلف الستـور
فكم قصّرت من عمر طـويـل وكم طـولت من عمر قصير

وغيرها من الشعر الجزل في هذا الموضوع .

ثم رجع إلى (فقه اللغة) للثعالبي لينقل منـه ترتيب الجيش وأسماءه في القلـة والكثرة [٦ / ١٨٩] ثم عاد كرة أخرى إلى الحليمي الجرجاني في كتابه (المنهـاج) في فصل (ذكر ما ورد في المرابطة) [٦ / ١٩٩] فنقل منه ما طاب لـه النقل . وبعد أن نقل (ذكر ما قيل في السلاح وأوصافـه) من كتـاب (العقـد الفريـد) الجـزء الأول ص ٩٠ ، و (عيـون الأخبـار) لابن قتيبـة ص ١٢٨ ، (والأغـاني) ١٤ / ١٢٧ ، أتى بقصة عمر رضي الله عنه عند مـا سـأل عمرو بن معـد يكرب عن السلاح ، فأجاب ، ثم سأله عن السيف : ما تقول فيـه ؟ فـأجـاب عمرو قـائلاً : « هنالك قارعتك أمـك من الثكل » ولكننـا نلاحـظ بعض الاختلاف بين عبـارة

النويري والكتب المنقولة منها القصة . فقد أورد ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار ص ١٢٨ الجملة المذكورة هكذا « قال : ثم قارعتك أمك عن الثكل » . وقال الأغاني ١٤ / ١٣٦ وهو يسرد هذه القصة : « قال عنه : قارعتك لأمك الهبل » . أما العقد الفريد ص ٩٠ فإنه أورد هذه الجملة بقوله : « قال : هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين ، فضربه عمر بالدرة .

وبعد أن انتهى من الاقتباس من هذه الكتب انتقل إلى كتاب آخر لم يقدمه إلينا من قبل ، وهو كتاب (خزائن السلاح) ، ونقل منه (ما قيل في السيف من الأسماء والنعوت) ، وأتى بمختلف الأسماء والنعوت والأوصاف للسيف مرتبة على حروف المعجم مبتدئاً بقوله : « فمن ذلك (إبريق) : وهو الشديد البريق ... إلخ » ، ليأتي بعده بأشعار قيلت في السيف . ومن أحسنها ما قاله البحتري وهو يصف السيف :

يتناول الروح البعيد مناله ... عفواً ويفتح في القضاء المقفل
ماض وإن لم تمضه يد فارس ... بطل ، ومصقول وإن لم يصقل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة ... من حده والدرع ليس بمعقل
مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى ... لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل

(إلى آخر الأبيات) وكذلك قول عبد الله بن المعتز :

ولي صارم فيه المنايا كوامن ... فما ينتضى إلا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنه ... بقية غيم رق دون سماء

ومن أحسن ما قيل فيه قول أحمد بن محمد بن عبد ربه :

وذي شطب تقضي المنايا بحكمه ... وليس لما تقضي المنية دافع
فرند إذا ما اعتنّ للعين راكد ... وبرق إذا ما اهتز بالكف لامع
يسلل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه الموت والموت رائع

وكـذلـك أقـوال كل من ابن الرومي والطغرائي والنمر بن لـولب وغيرهم وتستمر أقوالهم في هذا الموضوع من ص ٢٠٩ إلى ص ٢١٤ ، وقد نقل هـذه الأشعـار من العقـد الفريـد والأغـاني . ومن الصفحـة ٢٢٠ إلى الصفحـة ٢٢٢ نقـل بعض الأشعار لمختلف الشعراء حول مختلف أسماء الأسلحة .

ولما كان النويري منشئ رسائل بطبيعة المهنة ، آثر أن يدرج في كتابه رسالة عن أوصاف السلاح أيضاً ، إتماماً للفائدة وجمعاً للمعلومات كلها عنهـا ، فطلب إلى معاصره تاج الدين اليماني أن يكتب رسالة في هذا الشأن ، فقـال : « وقـد كتبت إليه ألتمس رسالة من كلامه في أوصاف السلاح ، وذلـك في شهور سنـة سبع وسبع مئة » وكان قد سبق له أن نقل منه بعض الرسائل كما أشرنـا سـابقـاً ، فكتب هـذا الأخير يقول :

« أمرتني ـ أعزك الله ، وأعلى في مراتب السعـود جـدودك ـ أن أبعث إليـك بشيء من كـلامي يتضمن وصف سـلاح متنـوع الأجنـاس ، مرهـوب بـالسطـو والبـأس ، فـامتثلت مرسومـك وبـادرت إلى ذلـك ، لمـا يتجـه عليّ من حقوقـك الواجبة ، ومن مفترضات خـدمتـك اللازبـة ، وأنشـأت لـك هـذه النبـذة مرتجلاً فيها ، ورتبتهـا على التهيؤ لمراتب القتـال ، وقـدّمت الـدرع ، وتلوتـه بـالقوس ، وأعقبتـه بـالرمـح ، وختمتـه بـالسيف ، فمن ذلـك في وصف درع : .... » [٦ / ٢٤٥] .

ثم كتب عن كل من الـدرع والقـوس والرمـح ، وأخيراً السيف كما وعـد بـه النويري . ونقل النويري هذه الرسالة كاملة مع ذكر شهر ورودها ، وبهـا ينتهي الباب العاشر من الكتاب . وبانتهائه نجد أنفسنا مرة أخرى إزاء كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي ، في البـاب الحـادي عشر [٦ / ٢٤٨] ، وهو (في القضـاة والحكام) حيث يبدأ نقله من هذا الكتـاب بقولـه : « ولا يجوز أن يقلـد القضـاء إلا مَن اجتمعت فيـه ثمـانيـة شروط » ، إلا أن المـاوردي عـد هـذه الشروط سبعة

فقط . وسبب الاختلاف بينهما هو أن النويري عد (صفة البلوغ) صفة على حدة و (الذكورة) صفة منفردة بذاتها ، ولذلك أصبحت شروطه ثمانية ، بينما عد الماوردي صفة البلوغ والذكورة صفة واحدة ، فكانت الشروط عنده سبعة فقط[1] . فقد قال الماوردي في كتابه وهو يبحث في شروط القضاء : « أن يكون رجلاً » وهذه الصفة تجمع بين صفتي البلوغ والذكورة .

أما دليل النويري في عد الذكورة والبلوغ صفتين منفردتين ، فإنه يقوم على قول الله عز وجل وقول النبي ﷺ ، إذ يقول النويري مستمداً من هذين المصدرين الإلهيين : « أما الذكورة فلقوله عز وجل : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ [النساء ٤ / ٣٤] قيل : المراد بالتفضيل هنا (العقل والرأي) . ولما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « النساء ناقصات عقل ودين » ولنقص النساء عن (رتب) الولايات » [٦ / ٢٤٨] .

كان الماوردي قد كتب بعد (عن) كلمة (رتب) إلا أن النويري لم يأت بهذه الكلمة في نصه . وقد أضافها إلى النص المطبوع من الكتاب مصححوه ، وأشاروا إليه .

وفيما يتعلق بحجته في عد البلوغ صفة منفردة ، فإنه يقول في هذا الصدد : « وأما البلوغ فلأن غير البالغ لا يجري عليه قلم ، ولا يتعلق بقوله على نفسه حكم ، فكان أولى ألا يتعلق به على غيره » ولكن الماوردي لم يذكر هذا الحديث في كتابه .

استمر النويري في نقله من هذا الكتاب إلى (العلم بأحكام الشريعة) حيث كتب يقول : فالعلم بها يشتمل على معرفة أصولها وفروعها .. ثم أورد أصول الأحكام في الشرع ، وهي أربعة : العلم بكتاب الله ، ثم العلم بالسنة ، ثم العلم

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦٦

بـأقـاويل السلف ، وأخيراً العلم بـالقيـاس الموجب لرد الفروع المسكوت عنهـا إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها .

ثم انتقـل مرة أخرى إلى كتـاب الحليمي الجرجـاني لينقـل منـه مـا يجب على الملك من تولية الحكم إلى الرجال المثقفين فقال نـاقلاً عنـه : « وينبغي للإمـام ألا يـولي الحكم بين النـاس إلا من جمـع إلى العلم السكينـة والتثبت ، وإلى الفهم الصبر والحلم » [٦ / ٢٥١] . إلى آخر مـا قـال فيـه : « فـإذا كان هـذا في القعـود معهم فكيف بإقرارهم والاستحسـان لهم » .

ثم رجع إلى (الأحكام السلطانية) في (ذكر الألفـاظ التي تنعقـد بهـا ولايـة القضاء والشروط) واستمر في النقل منه إلى خمس صفحات ونصف ، حيث يختتمـه بكتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء ، وهو الذي قال فيه : « أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة » الخ . (والكتـاب معروف) ليعود بعده إلى الحليمي الجرجاني مرة أخرى في (ذكر ما يـأتيـه القـاضي ويـذره في حق نفسه) [٦ / ٢٥٨] ثم عاد كرةً أخرى إلى الأحكام السلطـانيـة ، واستمر ينقل إلى الباب الثاني عشر من القسم الخامس من الفن الثاني (في ولاية المظالم ، وهي نيابة دار العدل) فنقل منه (ذكر من نظر في المظالم في الجـاهليـة والإسلام) و (ذكر ما يحتاج إليه ولاة المظـالم في جلوسهم لهـا) و (ذكر الفرق بين نظر ولاة المظـالم ونظر القضاة) و (ذكر ما ينبغي أن يعتمده ولاة المظـالم عنـد رفعهـا) و (ذكر توقيعات متولي المظالم وما يترتب عليها من الأحكام) وكذلـك (البـاب الثـالث عشر من القسم الخامس من الفن الثاني في نظر الحسبـة وأحكامهـا) ، وفيـه ثلاثـة فصول تشتمل على خمسين صفحة من كتاب النهايـة . وهنـا ينتهي الجزء السـادس من النهاية .

ولنأخذ مثالاً آخر لنهجـه هـذا ، من موضوع آخر تعرض لـه في الجزء السـابع من كتابه . وذلك في الباب الرابع عشر في الكتابة وما تفرع من أصناف الكتاب .

فقد عمد النويري إلى أنسب كتاب في هذه الموضوعات ، وهو لمؤلف يمتاز بين أقرانه بسعة النظر وغزارة العلم وبلوغ الغاية القصوى من تضلعه في العلوم والفنون . ألا وهو كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه . فاقتبس منه أول ما كتب في هذا الباب من تعريف ووصف للبلاغة وما يتعلق بها ، حتى استمر في النقل منه حوالي عشر صفحات . ليبدأ بعده فصلاً جديداً بعنوان (أما صفة الكاتب وما ينبغي أن يأخذ به نفسه) وقد أخذه من كتاب آخر لمؤلف آخر هو (كتاب الآثار) لإبراهيم بن محمد الشيباني . ولما أخذ نصيبه من النقل والاقتباس من هذا الكتاب بدأ الكتابة عن (آلات الكتابة) لم يجد أحسن من (زهر الآداب) للحصري القيرواني[1] فنقل من هذا الكتاب من الجزء الثاني ص ٢٠٦ ، واستمر في النقل منه يختصر تارة ويلخص أخرى حتى أتى على جميع ما كتبه الحصري عن الكتاب والقلم .

ولما بدأ الكتابة عن (ما قيل في حسن الخط وجودة الكتابة) [٧ / ١٤] ذهب إلى مؤلف جديد في كتاب جديد هو (أدب الكتّاب) للصولي[2] . فأخذ وصف جودة الخط من (زهر الآداب) للحصري القيرواني ، وأخذ صفة جودة الكتابة من (أدب الكتّاب) للصولي .

ولما أراد الكتابة عن (ما يحتاج إليه الكاتب) عمد إلى كاتب جديد لم نألفه من قبل ـ وقد وجده أحسن مؤلّف في الموضوع ـ هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي الحنفي[3] ، فتناول كتابه (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) ، ونقل منه كل ما يحتاج إليه الكاتب في صناعة الكتابة وحسن القيام بها .

---

(١) أبو إسحاق الحصري القيرواني المتوفى ٤٨٨ هـ بالأندلس

(٢) الصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى الصولي

(٣) توفي الحلبي سنة ٧٢٥ هـ وكان صاحب إنشاء بدمشق . وكتابه يبحث في المبتدأ والخبر والتقديم والتأخير وأصول البلاغة والبيان والبديع وسائر الفنون التي تتعلق بالكتابة وصناعتها .

وما إن انتهى من النقل أو الاقتباس من هذا الكتاب حتى مال إلى كتاب آخر جديد لم نألفه في كتاب النهاية إلى الآن ، وهو لمؤلف معروف من أساطين الأدب العربي وليس غريباً علينا ، هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، أما كتابه فهو (المحاسن والأضداد) الذي نقل منه (كون الكتاب نعم الذخر والعقدة) . وبعد أسطر نجد اختلافاً بسيطاً بين النويري والجاحظ . فلقد كتب النويري يقول « فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن »[1] وردت هذه العبارة في كتاب (المحاسن والأضداد) هكذا « وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في ردن » . وكذلك كتب النويري « تقلب في حجر » بينما أوردها الجاحظ « تنقل في حجر » . إلا أن هذه العبارة وردت في كتاب الحيوان للجاحظ « تقل في حجر » .

قال النويري مواصلاً نقله من (المحاسن والأضداد) : « وأحضر لما استحفظ من الأميين ومن الأعراب المعربين ... » إلى « وفي أياديه الجسام » [٧ / ١٩] . ولم نجد هذه العبارة في المحاسن والأضداد ، وإنما أخذها من كتاب الحيوان ج ١ ، من باب (نعت الكتاب) . ومن هنا يتجلى أن النويري كان قد وضع أمامه الكتابين معاً عند نقله في هذا الباب ليكون أوفى للغرض وأكمل للغاية المنشودة . وبعد هذه الجملة يتفق نص الكتابين لينفردا فيما بعد من جملة « ولا أعلم جاراً آمن ولا خليطاً أنصف ... إلى : ما حسنت الحياة بك » (المحاسن ص ٦) .

أما الشعر الذي كتبه النويري ضمن (محاسن الكتابة والكتب) وهو :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

فإن الجاحظ أورده ضمن (محاسن المخاطبات) ص ١٠ وليس ضمن ما أورده النويري .

---

(١) نهاية ١٨/٧ والجدير بالذكر أن عبارة النويري نفسها وردت في كتاب (الحيوان) ٣٩/١

وبعد الأخذ من المحاسن والأضداد ، رجع النويري [٧ / ٢٠] مرة أخرى إلى ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد ، الجزء الثاني ، ليقتبس منه قول الحسن بن وهب « يحتاج الكاتب إلى خلال .... » . قال النويري وهو ينقل منه : « بعد إشباع الحروف » إلا أن العبارة الواردة في الفريد هي « بقدر اتساع الحروف » . وكذلك نقل النويري [٧ / ٢١] ، من كتاب العقد الفريد كتاب علي بن الأزهر إلى صديق له يطلب منه أقلاماً ، وبعد أن مضى أشواطاً معلومة في النقل من العقد الفريد عاد كرة أخرى إلى شهاب الدين الحلبي الحنفي ، في كتابه المذكور سابقاً وهو كتاب (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) وأخذ ينقل من فصل (ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته) فقد بدأ اقتباسه من هذا الكتاب من الصفحة الأولى ، واستمر فيه تلخيصاً واختصاراً إلى نهاية الفصل المذكور . وعندما وضع (ذكر ما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه) [٧ / ١٨٥] أخذنا مرة ثالثة إلى (العقد الفريد ـ الجزء الثاني) ونقل منه باختصار شديد ، ثم عاود نقله من كتاب (حسن التوسل) . والجدير بالذكر هنا أنه ذكره باسمه الكامل فقال : قال المولى الفاضل شهاب الدين .... إلخ . ونقل من كتابه إلى ص ٩٣ ، واستمر فيه حتى لخص الكتاب كله اللهم إلا بعض الفصول ؛ رآها غير ضرورية لخطته ونهجه .

أما في (ذكر شيء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة) [٢١٣/٧] فيقدم لنا كتاباً جديداً ومؤلفاً جديداً أيضاً . أما الكتاب فهو (ثلاث رسائل) وأما المؤلف فهو أبو حيان التوحيدي[١] وقد أورد منها رسالة السقيفة حيث يقال إن علياً ـ رضي الله عنه ـ لما تخلف عن بيعة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أرسل إليه رجلاً فحدثه في هذه المسألة . وهي شديدة اللهجة ، ولكنها نموذج رائع لأدب راق .

---

(١) رسائله الثلاث تشتمل على رسالة السقيفة ورسالة في علم الكيمياء ، ورسالة (الحياة) .

وقد وردت بعض الاختلافات بين النهاية والنص الأصلي . أما كلام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى معاوية بن أبي سفيان فقد اقتبسه النويري من (نهج البلاغة) الجزء الثاني ، طبع بيروت ص ١٧ . أما كلمة الأحنف في الرد على خطبة زياد ابن أبيه المنقولة في نهاية الأرب ٢٣٨/٧ ، فإنها في (البيان والتبيين) .

ثم يأخذنا النويري مرة أخرى إلى ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) ، لينقل منه كلام أم الخير بنت الحريش البارقية ، فنرى بين الكتابين في بعض المواضع اختلافات كبيرة في النصوص . فمثلاً قال النويري : [٢٤٢/٧] إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطؤوا مدة الآخرة فسعوا لها . بينما قال صاحب (العقد الفريد) : ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا لها .

استمر النويري ينقل فنقل بعض الخطب مثل خطبة الحجاج بدير الجماجم وقد أخذها من (البيان والتبيين) للجاحظ ، ومن (العقد الفريد) . وهكذا إلى آخر هذا الباب المليء باقتباسات وعينات من كتب كثيرة تلائم خطته وتوافق نهجه .

وكذلك الحال في الباب الثالث من القسم الرابع من الفن الأول في (طول الأرض ومساحتها) [٢٠٧/١] ، والباب الخامس من القسم الرابع من الفن الأول (في الجبال) [١ / ٢١٨] ، والباب السادس من القسم المذكور ، وغيرها من الأبواب الواردة في الجزء الأول من الكتاب ، فإنها منقولة كلها من الكتب الآتية : ١ ـ مروج الذهب للمسعودي

٢ ـ تقويم البلدان لأبي الفداء

٣ ـ الملل والنحل للشهرستاني

٤ ـ مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط
٥ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي
٦ ـ كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
٧ ـ المسالك والممالك لأبي عبيد البكري
٨ ـ نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق للإدريسي
٩ ـ التنبيه والإشراف لابن رسته
١٠ ـ التاريخ اليمني للعتبي
١١ ـ كتاب الهند للبيروني ، وغيرهم من المؤلفين الآخرين وكتبهم .

وقد انتهج النويري هذا المنهج نفسه في الفنون الثلاثة الباقية[١] ، إلا أنه اقتصر على كتابين أو ثلاثة كتب رئيسية في نقل الموضوعات المدرجة فيها . وذلك لأن هذه الفنون الثلاثة تحوي موضوعات تعد فنوناً ، تناولها عدد من المؤلفين العرب أقل ممن تناولوا الفنين السابقين ، لأن المؤلفين العرب لم يعيروها اهتماماً كبيراً لندرة وجود هذه الأشياء في الجزيرة العربية . ولنأخذ مثلاً الفن الثالث الذي يبحث في الحيوان الصامت ، فقد أورد فيه النويري ذكر جميع أنواع الحيوانات من السباع وأجناسها ، ومن الوحوش والظباء وما يتصل بها ، والخيل وأوصافها ونعوتها ، والحيات والعقارب وسمومها ، وسباع الطير وأنواعها ، والسمك ومختلف أنواعه . فإن هذه الحيوانات تفتقدها الجزيرة بصفة خاصة . ولذلك لم يجد النويري كتباً قيمة في هذه الموضوعات لينقلها في موسوعته ، فاقتصر عند النقل لهذا الفن على كتاب واحد هو (مباهج الفكر ومناهج العبر) لجمال الدين الوطواط الوراق الكتبي ، مع أنه نقل حيناً آخر من كتاب الحيوان للجاحظ ، ومروج الذهب للمسعودي . أما الخيل وصفاتها ونعوتها ، التي يَتَفرّد العرب بين الأمم والشعوب في تربيتها والحفاظ عليها وإنعاش نسلها ، وفي

(١) الفن الثالث في الحيوان ، والفن الرابع في النبات ، والفن الخامس في التأريخ .

الفروسية وركوب الخيل ، فإن العرب كتبت عنها كثيراً ، فقد ذكر صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم الحيوان ستة كتب للمؤلفين العرب ، فضلاً عن (كتاب الفرس) للأصمعي . وهذه الكتب هي :

كتاب الخيل لابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) ولابن الأعرابي (١٥٠ ـ ٢٣١ هـ) ولأبي عبيدة (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ) ولأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (٢٤٥ هـ) ولأبي محلم محمد بن هشام الشيباني ، المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ولأحمد بن حاتم .

إلا أن النويري اعتمد في نقله عن الخيل ـ وهو كثير المقارنة بالحيوانات الأخرى ـ على كتاب واحد هو كتاب (فضل الخيل) للإمام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي المصري المتوفى سنة ٧٠٥ هـ ، وقد اعترف بنقله من هذا الكتاب حين ذكر : « وقال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه فضل الخيل : ألوان الخيل : أدهم ... » [١٠ / ١١] . والجدير بالذكر أن الدمياطي هذا استقى معلوماته عن الخيل من كتاب آخر هو كتاب (آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد) لسليمان بن بنين بن خلف . وأعتقد أن النويري مع حرصه الشديد على مطالعة جميع الكتب المتصلة بفن خاص والاستفادة منها في النقل والاقتباس ، لم يتسنّ له أن يطالع الكتب الكثيرة التي كتبتها العرب عن الخيل ، إما لفقدانها في تلك الحقبة المضطربة من التاريخ ، وإما لجهله بها . ولذلك نراه يقتصر على النقل من الكتاب المذكور . أما في بقية الحيوان فإنه اعتمد على (مباهج الفكر ومناهج العبر) للوطواط اعتماداً خاصاً .

ولسنا نعني بقولنا فقدان الكتب العربية عن الحيوان أن العلماء العرب لم يتناولوا هذا الفن كتابة ونقلاً على الإطلاق . بلى ، كتبوا وأكثروا فيه إلى حد ما . فلقد ذكر صاحب كشف الظنون ، وصاحب وفيات الأعيان ، وبغية الوعاة ، ونزهة الألباء ، وصاحب فهرسة ابن النديم ، ومعجم الأدباء ، كتباً كثيرة عن مختلف الحيوانات ، منها :

كتاب الإبل : لكل من المؤلفين : الأصمعي (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ) وأبي حاتم السجستاني (٢٤٨ هـ) وأبي عبيدة (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ) والنضر بن شميل (١٢٢ ـ ٢٠٣ هـ) وأبي زياد الكلابي[1] وأحمد بن حاتم الباهلي (٢٣١ هـ) .

كتاب الخيل : كما ذكرنا في صفحة سابقة .

كتاب الغنم والشاة : لكل من :

أبي الحسن الأخفش (٢١٥ هـ) والنضر بن شميل والأصمعي السالفي الذكر .

كتاب الوحوش : لكل من :

الأصمعي وأبي زيد أستاذ الجاحظ (١١٩ ـ ٢١٥ هـ) وأبي حاتم السجستاني .

وكتاب الطير : لكل من :

أبي حاتم السجستاني والنضر بن شميل وأحمد بن حاتم الباهلي .

كتاب البازي والحمام والحيات والعقارب : لأبي عبيدة .

كتاب في النحل والحشرات لأبي حاتم السجستاني .

كتاب في النحل والعسل للأصمعي .

إلا أن هذه الكتب أكثرها كتب لغة ومعاجم . يقول عبد السلام محمد هارون محقق (كتاب الحيوان) للجاحظ : « ولكن هذه الكتب كلها تقريباً تتناول هذه الحيوانات من الناحية اللغوية ، فهي بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له . فهي لا تبحث في طبع الحيوان وخصائصه بحثاً ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعاداته ، وإنما تجعل همها الأول والثاني هو اللغة ، أما البحث العلمي فهو على سبيل الاستطراد ومشايعة القول » .

---

(١) الكلابي هو يزيد بن عبد الله بن الحرار أبي بدوي ، قدم بغداد أيام المهدي ، وأقام بها أربعين سنة ومات بها ، وكان شاعراً من بني كلاب (ابن النديم ، نقلاً عن مقدمة عبد السلام محمد هارون لكتاب الحيوان للجاحظ) .

وثمة ظاهرة أخرى أكاد ألمح إليها إلماحاً ، وهي أن معظم هذه الكتب مستقاة من الكتب اليونانية التي ترجمت فيما بعد إلى اللغة العربية . فاليونان لهم فضل السبق في تأليف الكتب عن الحيوانات مثل (كتاب الحيوان) لديمقراطيس ، الذي ذكر فيه طبائعه ومنافعه ، و (كتاب الحيوان) لأرسطاطاليس نقله ابن البطريق من اليوناني إلى العربي . ولأرسطو[1] أيضاً كتاب في نعت الحيوان غير الناطق وما فيه من المنافع والمضار[2] .

وذلك هو السبب الثاني فيما نعتقد لعدم نقل النويري من هذه الكتب ولو كانت في متناول يده ، لأنه لا يبحث في كتابه هذا عن الحيوان من الناحية اللغوية ، إلا لماماً ، بل إنه يركز اهتمامه على أن يأتي في هذا الفن بمقتبسات ومنقولات تلقي الضوء على طبائع الحيوانات وخصائصها وغزائر طبعها وأحوال حياتها ومظاهرها وعاداتها ومألوفاتها ومساكنها ومكامنها ومضارها ومنافعها ، وعلى القصص والحكايات الغريبة والنوادر والفكاهات ، مما يشبه الأساطير ، ويدخل بعضها في الأباطيل ونسج الخيال والأوهام ، ولا شك أنه نجح فيه أي نجاح .

ولما كانت هذه المعلومات التي أوردها النويري في كتابه عن الحيوان ، قد استقاها جامعها أيضاً من مصادر ثانوية ، نجد فيها بيانات كثيرة عن عدد من الحيوانات ، ليست من الصحة في شيء ، في ضوء التجارب والمشاهدات والمألوفات عن هذه الحيوانات . ولنذكر على سبيل المثال قول النويري نقلاً عن (مباهج الفكر ومناهج العبر) ـ وهو مصدره في هذا الفن ـ في عادة الأسد حيث يقول :

---

(١) وإليه أشار الجاحظ في كتابه الحيوان بقوله « قال صاحب المنطق » وتهكم بعض الأحيان من أقواله معارضاً مفنداً حيناً آخر .

(٢) كشف الظنون ٤٥٦/١

« وإذا شبع ـ أي الأسد ـ من فريسته تركها ، ولم يعد إليها ولو جهده الجوع » [٢٢٩/٩] وهذا خلاف المشاهَد والمجرب والمألوف ، فعادة العودة إلى الفريسة ثانية هي الظاهرة الكبرى للأسد في الهند على الأقل ، فإن الأسد بحسب مشاهدتنا وتجربتنا بعد أن يشبع من فريسته يسوقها إلى مكان غير الذي افترسها فيه ، حيث تكثر الآجام والأعشاب ويخفيها فيها ، ليعود إليها ليأكل منها ثانية . وبسبب عادته المألوفة هذه يعمد الصيادون عندنا إلى البحث عن فريسة افترسها الأسد في الغابة ، فإن بلغهم خبر افتراسه لماشية من المواشي التي ترعى في الغابات أوْ وحش من الوحوش التي تسكنها ، حاولوا البحث عن المكان الذي يكون قد أخفاها فيه ، وضعوا فوق شجرة قريبة من الفريسة مثل الأرجوحة ، يصعدون إليها ويختفون فيها ومعهم بنادقهم وأسلحتهم ، وينتظرون مقدمه . وعادة يعود الأسد إلى فريسته بعد ساعة أو ساعتين من مغيب الشمس ، وعندما يرونه يطلقون عليه الرصاص فيردونه قتيلاً .

وكذلك من عادة الصيادين عندنا أن يربطوا جرو جاموس في أصل شجرة بموضع من الغابة تكثر فيه الأسود أو تتردد عليه طلباً للفريسة ، فإن افترسه الأسد أتوا في مساء اليوم التالي ، وتسلقوا الشجرة التي كانوا قد ربطوا بها الجرو ، ويختفون في الأرجوحة المعدة من قبل والمعلقة فوقها ، وينتظرون مقدمه ، فإن جاء وانهمك في نهش الفريسة أطلقوا عليه الرصاص فقتلوه ، وهي أنجح وأسهل طريقة لصيد الأسد عندنا .

وكذلك نقل النويري « وأكل لحم الجيف أحب إليه من أكل اللحم الغريض الغض » وهذا خلاف الواقع والمشاهد عندنا في الهند على الأقل . فالأسود عندنا دائماً تفضل اللحم الطري الطازج ، ولذلك نجده يأكل بقرم شديد وبقدر كبير من الفريسة بعد اصطيادها مباشرة . وعندما يعود إليها ثانية فإنه عادة يقضم العظام ويكسرها ليجرد اللحم المفضل لديه منها أولاً ثم يأكله .

وكذلك قوله « وإن رماه أحد ولم يصبه شد عليه ، فإن أخذه لم يضره ، وإنما يخدشه ثم يخليه كأنه منّ عليه بعد الظفر به ، وهو إذا شم أثر الصيادين عفا أثره بذنبه » [٩/٢٣١] .

وهذا من وهم الخيال ؛ فإن الأسد الجريح أخطر السباع كلها وأشدها افتراساً وانتقاماً ممن جرحه فيمزقه إرباً إذا ظفر به . فإن لم يظفر بالصياد ، فإنه يهاجم كل إنسان يصادفه في هذه الحالة ويفترسه وينهشه نهشاً . ولذلك من المحظور في الهند رسمياً إصابة الأسود بالجراح . فإن جرح صياد أسداً وهرب منه ، يجب على الصياد أن يخطر به المسؤولين في الغابة ليكونوا على أهبة الحذر والانتباه وقتله إن أمكن ، لكي لا يصبح خطراً محققاً على الماشية التي ترعى في الغابة ، والناس الذين يشتغلون فيها من قاطعي الأشجار والحراس المكلفين بحراستها ، ولكي لا يتحول إلى مفترس للإنسان إذا كانت جروحه خطرة ، يعجز بها عن الهجوم والوثوب والاصطياد .

ومن غريب ماأورده النويري في موضوع الأسد قوله « والأسد لا يدنو من المرأة الطامث » وليت شعري هل جربته امرأة حائض ؟ كلا ، إنه أيضاً من الأباطيل والأوهام التي يرويها الرواة تفكّهاً ومن غير تجربة ولا دليل .

وكذلك أجدني غير مصدق لقصة بعض الغوارنة بالشام[1] كيف تمكن من أسد رابض بنهر الأردن وظهره إلى الماء وذنبه فيه ، فقبض الغوراني على أذنيه وضربه بسكين كان معه فقتله ، فهذا أيضاً من نسج خيال الرواة وأكاذيب الرحالة . فإن الأسد ، هذا السبع الضاري الفتاك الهائل ، عظيم البأس والشدة ،

---

(١) (غور الشام) بين بيت المقدس ودمشق وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس ولذلك سمي الغور ، وفيه نهر الأردن ، وبلاد وقرى كثيرة ، على طرفه طبرية وبحيرتها ، وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية . والغوراني نسبة إلى الغور . هامش الكتاب ص ٢٣٢

هل يخضع وينقاد بمثل هذه السهولة ، ليقتله إنسان بسكين عادي ؟ كلا ، فالواقع أن ضربة من براثنه ، مهما كانت خفيفة ، كافية لتردي المرء قتيلاً فاقد الروح . فإنه من المجرب والمشاهد أن ضربة قاصمة وعنيفة منه ، تطيح بعض الأحيان برأس الغنم ، فيطير في الهواء ، كأنه ورقة يابسة في مهب الريح . فكيف إذا أصابت هذه الضربة إنساناً وهو أضعف خلق الله بنياناً وجسماً .

وكذلك نكاد لا نصدق بيانه المنقول عن المسعودي حين قال عن (الفيل) : «. والفيل إذا ورد الماء الصافي كدره قبل أن يشربه كعادة الخيل » [٣٠٥/٩] فأما فيما يتعلق بالخيل فلسنا بمجربين له ولا خبيرين بعادته ، ولكننا فيما يتعلق بالفيل رأينا مراراً أنه لا يكدر الماء قبل شربه . وقد شاهدنا ذلك مراراً أثناء ركوبنا إياه في سفر الصيد في الغابات ، وفي مواكب الزفة ، وخاصة عند اغتساله في نهر قرب مزارعنا ، فلاحظنا أنه يشرب دائماً من موضع لا كدر فيه ولا عشب ولا شجيرة من هذه الشجيرات التي تكثر في الأنهار الضحلة ، نعم إنه يكدر الماء ، ولكن عندما يستحم ويغتسل ويلعب فيه .

وكذلك أشك كثيراً فيما رواه النويري على لسان (الإمام الحافظ أبي نعيم محمد بن عبد الله الأصفهاني) في كتابه الموسوم بـ (حلية الأولياء) الذي ذكر هذا الأخير فيه ، رواية عن محمد بن الحسن ، قصة أبي عبد الله القلانسي عند ركوبه البحر وانكسار السفينة به ، وقسمه ألا يأكل لحم الفيل إذا نجاه الله من هذه المصيبة ، وكيف نجا من الموت لعدم أكله لحم ولد الفيل الذي أكله أصحابه الآخرون ، فقتلتهم الفِيْلة ، وهي تفتقد ولدها ، بعدما شمّت كل واحد منهم ، وداست بقدميها من أكل من لحم ولدها ، وتركته بعد أن شمّته أيضاً ، بل أركبته ظهرها ، وأوصلته إلى مكان آمن ، فيه المزارع والعمران ، وقد بلغت هذا المكان بعد مسيرة ليلة واحدة فقط ، مع أن هذا الموضع كان على مسافة ثمانية أيام بالمشي العادي [٣٠٧/٩] .

فهذه القصة أيضاً من الخرافات والأوهام الخيالية ، ومن الطرائف والغرائب التي اعتاد الرحالة في ذلك الزمن سردها أمام الجهلة والغفلة من الناس ، في الأسمار والمجالس ، وأعجب كيف أجاز النويري لنفسه نقل هذه الخرافة ، وما ذلك إلا لأن النويري ناقل أمين ، ينقل الأشياء دون النظر في صحتها وإمكانها ، وخاصة إذا كان الموضوع مما لا يمس فكرة أو نظرية معلومة مقبولة ، أو علماً وفناً يمكن وضعه تحت المحك .

أما في الفن الرابع - في النبات [ج ١١] - فإن النويري في الفصل الأول منه وهو يختص بأصل النبات ، نقل معلوماته عن المسعودي من كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ، ثم عمد إلى الثعالبي في (فقه اللغة) لينقل منه ترتيب النبات من الابتداء إلى الانتهاء وبعده نقل عن أبي بكر بن وحشية[1] أنواعاً من النبات توجد في أرض ولا توجد في غيرها ، ليعتمد أخيراً في نقل المعلومات في هذا الموضوع على كتاب (القانون) للشيخ أبي علي بن سينا . أما الشعر المتعلق بهذا الفن فإنه نقله من (مباهج الفكر ومناهج العبر) للوطواط ومن (ديوان المعاني) . وهنا ينتهي الجزء الحادي عشر من الكتاب والقسم الرابع من هذا الفن .

أما القسم الخامس من هذا الفن وهو في أصناف الطيب والبخورات ، والغوالي والندود والمستقطرات ، والأدهان والمنضوحات ، وأدوية الباه والخواص ، وبه يبتدئ الجزء الثاني عشر من كتاب النهاية . فقد نقله من كتاب (جيب العروس وريحان النفوس) لمحمد بن أحمد التميمي المقدسي ، وقد اعترف بنقله منه في الصفحة ٧٠ من كتاب النهاية ، ولخص الكتاب في الأبواب التسعة من هذا القسم .

---

(١) كتابه (الفلاحة النبطية) .

أمـا البـاب العـاشر والبـاب الحـادي عشر من هـذا القسم فهـو يتعلـق بـ (الأدوية) التي تزيد في الباه وما يتصل بـه ، وفيما يفعل بـ (الخصيـة) وبهما ينتهي الجزء الثاني عشر من كتاب النهايـة ، وقـد نقلهما من كتـاب (الإيضـاح) لشهاب الدين عبد الرحمن بن نصر الشيرازي .

أما الفن الخامس ـ ففي التأريخ . وهو يشتمل على خمسـة أقسـام كالمعتـاد . وبه يبتدئ الجزء الثالث عشر من الكتاب . يفتتح بالقسم الأول وينتهي بـالقسم الخـامس في « أخبـار الملـة الإسـلاميـة ، وذكر شيء من سيرة النبي ﷺ وأخبـار الخلفـاء وأخبـار الـدولـة الأمويـة ، والعبـاسيـة والعلـويـة ودول ملـوك الإسـلام وأخبارهم وما فتح الله عليهم » وفيه اثنا عشر باباً . فالباب الأول منه يحوي سيرة سيدنا محمد ﷺ ، التي تبتدئ من الجزء السادس عشر وتنتهي بالجزء الثـامن عشر منه ، وذلك بوفاة النبي ﷺ وبرثائه نظماً ونثراً . وبهـذا الجزء ينتهي مـا طبع من هذه الأسفار[1] .

أما الأبواب الأحد عشر الباقية من الفن الخامس ـ القسم الخامس ـ فلم تطبع بعد . لأن دار الكتب المصرية المسؤولة عن طباعة ونشر هذه الأسفار لم تكّمل بعـد الأجزاء المتبقية من الكتاب .

فالقسم الأول من الفن الخامس هذا منقول من كتـابين : أحـدهمـا (يواقيت البيان في قصص القرآن) لأبي إسحاق أحمـد بن محمـد بن إبراهيم الثعلبي . والثـاني هـو (المبتـدأ) لأبي الحسن محمـد بن عبـد الله المعروف بـالكسـائي . ولا يعرف الكتابان باسميهما ، وإنما باسمين آخرين ، فكتـاب الثعلبي مكتوب عليـه (قصص الأنبياء المسمى بالعرائس) وقد طبع بالمطبعة البهية بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ . أمـا

---

(١) كان ذلك في سنة تأليف هذا البحث ـ وقد ظهرت بعد ذلك أجزاء أخرى .

كتاب الكسائي فمخطوط منذ سنة ٨٠٣ هـ ولم ينشر بعد ، واعترف النويري بنقله من الكتابين المذكورين .

أما القسم الخامس الأخير من الفن الخامس من كتاب النهاية الذي يحوي الباب الأول منه سيرة سيدنا رسول الله ﷺ ، فإن النويري اعتمد عند النقل فيه على الكتب الآتية :

١ ـ مقدمة الجواني النسابة (وقد تكلمنا عنه سابقاً)

٢ ـ طبقات ابن سعد (هو أبو عبد الله محمد بن سعد الواقدي) وهذا روى عن الكلبي ولا سيما ذِكر أمهات الرسول ٥/١٩

٣ ـ دلائل النبوة للبيهقي ـ مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم ٢١٣ حديث

٤ ـ سيرة ابن هشام (هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري)

٥ ـ الروض الأنف للسهيلي

٦ ـ الكامل لابن الأثير

٧ ـ تاريخ الطبري

٨ ـ الكلبي (وهو أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي النسابة ت ٢٠٤ هـ)[(١)]

٩ ـ كتاب الاكتفا بما تضمنه من مغازي المصطفى ـ لسليمان بن موسى بن سالم الكلاعي الأندلسي أبو الربيع (٥٦٥ ـ ٦٣٤هـ) وهذا يروي عن الزبير بن بكار بن عبد الله . وهو : أبو عبد الله بن أبي بكر النسابة القاضي المدني (١٧٢ ـ ٢٥٦ هـ) ـ تهذيب التهذيب ٣١٢/٣

أما الباب الثاني من القسم الخامس من (الفن الخامس وهو الأخير من النهاية) ، فإنه سيكون فاتحة الجزء التاسع عشر من سلسلة المطبوعات التي تقوم

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥٨/٢

بها دار الكتب المصرية بالقاهرة منذ خمسة عقود من الزمن .

لاحظنا من الأمثلة التي أسلفناها أن النويري كان يعد فنونه المختلفة وفق خطة مرسومة منسقة منظمة محكمة ، فهو يطالع كتباً مختلفة في هذا الفن ، ثم يختار منها الأفضل والأحسن بحسب خطته وغرضه من تأليف هذا الكتاب ، ثم يثبت عصارة مطالعته في أبواب وذيول عيّنها من قبل لكي تأتي منقولاته ومقتبساته كعقد نظمت درره بأحسن طريقة ممكنة ، ليصبح العقد تحفة نادرة وسلكاً فريداً يتيم الدهر . ولهذا السبب يأخذ بالتجوال بين الكتب المنقولة منها العينات والموضوعات . فيبدأ النقل من كتاب معين ، لينتقل إلى كتاب آخر ، فإذا وفّى غرضه منه انتقل إلى كتاب ثالث ، ليعود إلى الكتاب الأول مرة أخرى ، ليأخذ منه موضوعاً عين له المكان في فصل معين أو باب خاص من قبل . وكذا نجده يلخص الكتب أحياناً ، ويختصر بعضها أحياناً أخرى ، وهو متصرف في النقل حيناً ، ناقل أمين صادق في أكثر الأحيان ، مغير لترتيب المؤلف الأصلي في بعض الأحيان .

وفيما يلي قائمة بأهم الكتب التي لخصها واختصرها ، وتصرف فيها ، والتي لم يتصرف فيها ، والتي غير ترتيبها على حسب خطته المرسومة :

قائمة بالكتب التي لخصها أو اختصرها النويري في كتابه

الكتاب الملخص	مكانه في النهاية
١ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني	٢٥/٢ و ٤ و ٥ كاملين و ٣ و ٦ في مواضع متفرقة
٢ ـ الأحكام السلطانية للماوردي	١٥٢/٦ فما بعد و ٧ في مواضع متفرقة و ١٩٦/٨
٣ ـ إحياء علوم الدين للغزالي	١٥٥/٤ و ٢٠٢/٥ ـ ٢٧١
٤ ـ أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك للماوردي	٩٢/٥ فما بعد و ٦ في مواضع متفرقة
٥ ـ تاريخ الكامل لابن الأثير	٣٦٧/١ و ٣٨٢ فما بعد . و ١٦ و ١٨ في مواضع متفرقة
٦ ـ تاريخ مكة للأزرقي (أبو الوليد)	٢٨٧/١ فما بعد
٧ ـ جيب العروس وريحان النفوس لمحمد بن أحمد التيمي المقدسي	١٠ في مواضع متفرقة و١٢ و١٣ فما بعد
٨ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين أبي الثناء محمود الحلبي	٢٧/٧ فما بعد و ٣٢٨/١٠
٩ ـ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري	٢١٠/٢ ـ ٢٧٦ و ١٨٢/٣ ـ ٢٠٣ و ١٤٩/١٠ و ١٢٠/١١
١٠ ـ سيرة ابن هشام	٣٧٠/١ و ١٦ و ١٨ في مواضع متفرقة
١١ ـ طبقات ابن سعد ومغازيه	١٦ و ١٨
١٢ ـ الفلاحة النبطية لابن وحشية (مصورة مخطوطة)	١٠ فما بعد

الكتاب الملخص	مكانه في النهاية
١٣ ـ العقد الفريد	٧/٢ ـ ١٥ . ١٦ ـ ٥٨ و ٣ مقدمة و ١٥٣ و ١٧٢ ـ ١٨٢ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ في مواضع متفرقة
١٤ ـ فقه اللغة للثعالبي	٩٥/١ و ١٩٣ ـ ٢١١ و ١٢/٢ ـ ١٧ و ٤٢ ـ ٥٨ و ٦/١١ و ١١ و ١١٣
١٥ ـ القانون لابن سينا	١٤/١٠ إلى نهاية الجزء
١٦ ـ كتاب المنتحل للثعالبي	٦١/٣ ـ ١١٥
١٧ ـ كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة	١١٦/١ إلى آخر باب الأزلام
١٨ ـ كتاب الأذكار للنووي	٣٠٠/٥ إلى آخر باب الأدعية وغيرها
١٩ ـ كتاب المؤتلف والمختلف في أسماء نقلة الحديث لعبد الغني سعيد المصري	١٦٠/٩ فما بعد
٢٠ ـ كتاب فضل الخيل للدمياطي المصري[1]	١٠
٢١ ـ مروج الذهب للمسعودي	٦٣/١ و ١٥٠ و ١٧٦ ـ ١٨٨ و ٤/١١ و ١٣ في مواضع متفرقة و ١٤ في مواضع متفرقة
٢٢ ـ مباهج الفكر، ومناهج العبر للوطواط	٨٦/١ و٣٨٤ و٢٢٤/٩ ـ ٢٢٧ و٣١٠/١٠ ـ ٣٢٦ و ٣٤/١١ فما بعد
٢٣ ـ مجمع الأمثال للميداني	١ و ٢ في مواضع متفرقة و ٢/٣ ـ ٦١
٢٤ ـ مقدمة الجواني النسابة	٢٨٦/٢ فما بعد و ٣/١٦ فما بعد
٢٥ ـ المنهاج ـ لمعة واضحة البيان وحسنة التبيان للحَليمي الجرجاني	٥/٦ فما بعد

(١) هو الإمام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي المصري (٧٠٥ هـ) .

أهم المخطوطات

الكتاب الملخص	مكانه في النهاية
١ ـ ذم الهوى لابن الجوزي	٢١٠/٢ فما بعد
٢ ـ العرائس أو نفائس العرائس أو (خلق الدنيا وما فيها) لأبي الحسن الكسائي	٤٠/١٣ فما بعد
٣ ـ دلائل النبوة للبيهقي	٣/١٦ فما بعد
٤ ـ أصول الأحساب وفصول الأنساب للجواني	٢٨٦/٢ فما بعد
٥ ـ المنهاج للحَليمي	٥/٦ فما بعد
٦ ـ الفلاحة النبطية لابن وحشية	١١ فما بعد
٧ ـ مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط	١ و ٩ و ١٠ و ١١

☆ ☆ ☆

قائمة بأهم الكتب التي نقل منها النويري في كتابه غير التي لخصها أو اختصرها

الكتاب	مكانه في النهاية
١ ـ الملل والنحل للشهرستاني	٤٩/١ و ٥٦ فما بعد
٢ ـ المدخل إلى أحكام صناعة النجوم لابن الجوزي	٣٢٥/١
٣ ـ المخصص في اللغة لابن سيده	٥٧/١ فما بعد (أسماء القمر)
٤ ـ تفسير الكشاف للزمخشري	١ (الصواعق والرعد)
٥ ـ سنن البيهقي	٩٢/١
٦ ـ تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر لابن الجوزي	٧٠/١ فما بعد

الكتاب	مكانه في النهاية
٧ ـ كتاب الحيوان للجاحظ	١٠٠/١ و٤ و٥ و٧ في مواضع و٩/٢٥٥ و١٠ في مواضع متفرقة
٨ ـ مفاتيح العلوم للخوارزمي (طبع في ليدن)	١٤٩/١
٩ ـ الروض الأُنف للسهيلي	١٦٠/١ و٣٦٨ و ج ١٦ في مواضع متفرقة
١٠ ـ السيرة النبوية لابن إسحاق	١٥٩/١
١١ ـ أعياد الفرس لعلي بن حمزة الأصفهاني	١٧٨/١
١٢ ـ تقويم البلدان لأبي الفداء	١ في مواضع متفرقة
١٣ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي	١ في مواضع متفرقة
١٤ ـ كتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر	٥٠/١
١٥ ـ المسالك والممالك لأبي عبيد البكري	٢٢٠/١ و ٣٢١/١٠ و ج ١٣ في مواضع متفرقة
١٦ ـ نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق للإدريسي	٢٥٩/١ و ٣٦٠ فما بعد
١٧ ـ التنبيه والإشراف لابن رسته	١ في مواضع متفرقة
١٨ ـ التأريخ اليميني للعتبي (نقلاً عن مقدمة مروج الذهب للمسعودي)	١ في مواضع متفرقة
١٩ ـ المسالك والممالك لابن حوقل	٢٦١/١ و ٢٣٧ و ٣٥١
٢٠ ـ كتاب الشفا للقاضي عياض	٢٨٦/١
٢١ ـ تاريخ مصر للحسن بن إبراهيم	٣٢٨/١

الكتاب	مكانه في النهاية
٢٢ ـ كتاب النظر في التجارة (رسالة) للجاحظ	٣٥٣/١
٢٣ ـ كتاب لطائف المعارف لم يذكر مؤلفه (شعر في وصف غزنة)	٣٥٣/١
٢٤ ـ كتاب الأمطار للجاحظ	٣٥٨/١
٢٥ ـ الكامل لابن الأثير	٣٦٧/١ و ٣٨٢ و ج ١٦ ـ ١٨
٢٦ ـ سيرة ابن هشام	٣٧٠/١ و ج ١٦ ـ ١٨
٢٧ ـ سلوة الأحزان لابن الجوزي	٣٨٥/١
٢٨ ـ فتوح السند للواقدي	١ في مواضع متفرقة
٢٩ ـ الأمالي لابن الشجري	٥/٢ فما بعد
٣٠ ـ صحيح البخاري (باب القدر)	٢ في تكوين الإنسان في رحم أمه
٣١ ـ زهر الآداب للحصري القيرواني	٢ في مواضع متفرقة (الشعر) ٧ في مواضع
٣٢ ـ الذخيرة لابن بسام	٢ في مواضع متفرقة (الشعر)
٣٣ ـ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري	٢١٠/٢ ـ ٢٧٦ (الغزل والنسيب)
٣٤ ـ يتيمة الدهر للثعالبي	٢ في مواضع متفرقة (الشعر)
٣٥ ـ كتاب المنتحل للثعالبي	٦١/٣ ـ ١١٥ (الشعر الجاهلي)
٣٦ ـ تفسير القرطبي	١١٦/٣
٣٧ ـ نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح للسيد المرتضى الزبيدي (طبع في ليدن ١٣٠٣ هـ)	١١٧/٣ فما بعد
٣٨ ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني	١٣٠/٣ فما بعد (مادة بحر : البحيرة)

الكتاب	مكانه في النهاية
٣٩ ـ العرافة والزجر والفراسة للجاحظ	١٣٤/٣
٤٠ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ و٥ و٨	١٤٠/٣ فما بعد (الفال والطيرة)
٤١ ـ تفسير الطبري ج ٧	٥٨/٣
٤٢ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر	١٥٣/٤
٤٣ ـ أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي	٤ في مواضع متفرقة
٤٤ ـ الترمذي	٤ في مواضع متفرقة
٤٥ ـ أبو داود	٤ في مواضع متفرقة
٤٦ ـ اللمعة النورانية للبوني	٢٨٨/٥
٤٧ ـ خزائن السلاح	٥ في مواضع متفرقة
٤٨ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة	٦ في مواضع متفرقة
٤٩ ـ الأدب الكبير لابن المقفع	٦ في مواضع متفرقة
٥٠ ـ رسائل البلغاء لابن المقفع	٦ في مواضع متفرقة
٥١ ـ نهج البلاغة للشريف الرضي	٦ في مواضع متفرقة
٥٢ ـ أدب الدين والدنيا للماوردي	٦ في مواضع
٥٣ ـ كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ	٦ في مواضع
٥٤ ـ الجامع الصغير	٦ في مواضع
٥٥ ـ المحاسن والأضداد للجاحظ	٧ في مواضع
٥٦ ـ أدب الكتّاب للصولي	٧ في مواضع
٥٧ ـ ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي	٧ في مواضع
٥٨ ـ البيان والتبيين للجاحظ	٧ في مواضع
٥٩ ـ محاضرات الأدباء للراغب	١٨٠/٨

الكتاب	مكانه في النهاية
٦٠ ـ معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي	١٨٠/٨
٦١ ـ تفسير أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي	٣٤٣/٩
٦٢ ـ كتاب الأموال لأبي عبيد	٣٧١/٩
٦٣ ـ مختصر المكاتبات البديعة لابن الصيرفي(١)	٩/٩
٦٤ ـ كتاب الروضتين لشهاب الدين أبي شامة المقدسي	٩/٩
٦٥ ـ أدب الكاتب لابن قتيبة	١٤/١٠
٦٦ ـ كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الأجدابي الطرابلسي	١٤/١٠
٦٧ ـ رسائل الصابي (مخطوطة)	١٠ في مواضع متفرقة
٦٨ ـ كتاب الإيضاح لنصر الشيرازي	١٢ في مواضع متفرقة
٦٩ ـ قصص الأنبياء المسمى بالعرائس لأبي إسحاق محمد بن إبراهيم الثعلبي	١٣
٧٠ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة	١٦ (أخبار عبد المطلب)
٧١ ـ الطبري	١٦ في مواضع متفرقة
٧٢ ـ صحيح مسلم	

(١) الاسم الكامل للكتاب هو : مختصر المكاتبات البديعة فيا يكتب من أمور الشريعة . وهو مختصر لكتاب جامع العقود في علم المواثيق والعهود لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المخزومي المعروف بابن الصيرفي .

الكتاب	مكانه في النهاية
٧٣ ـ الكامل للمبرد	
٧٤ ـ كتاب البخلاء للجاحظ	
٧٥ ـ كتاب الآثار لإبراهيم بن محمد الشيباني	
٧٦ ـ لسان العرب لابن منظور	

☆ ☆ ☆

فهرس الكتب التي نقل النويري الشعر منها في كتابه

١ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه
٢ ـ زهر الآداب للحصري القيرواني
٣ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام
٤ ـ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري
٥ ـ كتاب المنتحل للثعالبي
٦ ـ كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط
٧ ـ ذم الهوى لابن الجوزي
٨ ـ يتيمة الدهر للثعالبي
٩ ـ البيان والتبيين للجاحظ
١٠ ـ كتاب الحيوان للجاحظ
١١ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
١٢ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري
١٣ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل للحليمي الجرجاني

الباب الرّابع

على هامش الاقتباس والنقل

اختصر النويري أو لخص في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) بأجزائه الثانية عشر المطبوعة ، بحسب خطته المرسومة ونهجه المعين حوالي ٣٠ كتاباً . ونقل من أكثر من ٧٦ كتاباً بين مخطوط ومطبوع ، لكبار الأدباء والمنشئين والمؤرخين وأصحاب الأنساب والسير والفلاسفة والحكماء وغيرهم من الأعلام والشخصيات البارزة التي أنجبتها الأمة الإسلامية خلال القرون الثمانية من تاريخها الحافل ، التي تركت آثاراً خالدة ، لا تزال تعدّ غرة جبين العصر ودرة الدهر يتيمة إلى يومنا هذا ، ومعيناً عذباً تستقي منه العقول والأذهان ، وترتوي منه القلوب والأفئدة . هذه الشخصيات والأعلام التي استلهم منها فيما بعد العباقرة وأولو الفضل والعلم في كل عصر ومصر . كما أورد نخبة ممتعة من هذا الشعر الجزل العذب ، الذي فاضت به قرائح الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى وقته (القرن الثامن الهجري) وقد تحمل في اختيارها وانتقائها مشقة المراجعة والمطالعة لأكثر من ١٣ مجموعة شعرية وديواناً ، قام بترتيبه رهط من النقاد والمتضلعين في كلام العرب إلى القرن الثالث الهجري ، حين تم تدوين جميع أصناف الأدب العربي أو كاد.

ومن الجدير بالذكر أننا وضعنا قائمة بالكتب المختصرة والكتب التي نقل منها النويري في كتابه هذا ، إلى جانب قائمة للمجموعات الشعرية والدواوين التي اقتبس منها الشعر ، وهذه الكتب والدواوين هي أهم ما نقل منه النويري .

ولقد بدا لنا ، ونحن ندرس هذه الأسفار ، أن طريقة تلخيصه أو اختصاره

تختلف بعض الشيء من كتاب لكتـاب ، ومن سفر لسفر ، فبينما نجـده مثلاً يغيّر ترتيب بعض الكتب أثناء تلخيصه أو اختصـاره لهـا ، يعمـد في البعض الآخر إلى انتخاب العينات منها وحذف أشياء والإبقاء على أشياء ، ثم ينقلهـا بحسب خطتـه المرسومة . وهكذا نلاحـظ أنـه تتبعاً لخطتـه هـذه ، اختصر كتـاباً يحوي مئـات الصفحـات في بضـع ومئـة صفحـة تقريبـاً بـل أقـل . وانتخب من آلاف الأمثـال والأشعار مالا يتعدى بضع مئات . وهنا يروق لنا ، ونحن أمـام هـذه الظـاهرة ، أن نوازن بين بعض الكتب المختصرة ، وما نقله النويري في كتابه بعـد الاختصـار والتلخيص ، لنلم بطريقتـه الخـاصـة في الاختصـار والتلخيص . وقـد انتخبنـا لموازنتنا هذه أربعة كتب ، اثنان منها مخطوطان واثنان مطبوعان .

فأما الكتابان المخطوطان فهما :

١ ـ مقدمة الجواني النسابة

٢ ـ ذم الهوى لابن الجوزي

أما المطبوعان فهما :

١ ـ مجمع الأمثال للميداني

٢ ـ والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

ونستهل موازنتنا هذه بمخطوطة مقدمة الجواني النسابـة في الأنسـاب . وقبل البـدء في المـوازنـة نستحسن أن نلم بشيء عن صـاحب المخطـوطـة (الجـواني) . فالجواني هو :

أبو البركات سناء الدولة أسعد بن علي بن المعمر بن عمر بن علي ابن النسابـة أبي هـاشم الحسن ابن النسـابـة أبي العبـاس أحمـد ابن النسـابـة أبي الحسن علي بن إبراهيم بن أبي جعفر محمد ابن المحدث أبي الحسن الحسيني بن محمد الجواني . ولد ليلة الأربعاء سلخ جمادى الآخرة سنة ٥٢٥ هـ وتوفي سنة ٥٨٨ هـ

وصف الكتاب

أما كتابه المشار إليه فهو :

(أصول الأحساب وفصول الأنساب) ، ويسمى تحفة الأنساب ، ويسمى تحفة ظريفة ومقدمة لطيفة وهدية منيفة في أصول الأحساب وفصول الأنساب .

والكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩ م والمنقول منه برقم ٢٠١٥ تاريخ .

والنسخة الخطية هذه تشتمل على ٦١ ورقة ، كتبت بحرف نسخ جميل ، وقد زينت العلامات مثل الوقف وغيره بحبر أحمر . وكذلك كتبت عناوين الكتاب بالحبر الأحمر . والكتاب مجلد بالجلد وله لسان كاللسان الذي يكون في مجلدات القرآن الكريم في الهند .

وعلى ظهر الورقة الثانية من المخطوطة ذات الرقم ١٩ م وجدت العبارة الآتية بقلم السيد العلامة محمد المرتضى الحسْيني الزبيدي البلجرامي الهندي شارح القاموس :

« وللمصنف ولد اسمه محمد وكنيته أبو عبد الله تولى نقابة الأشراف بعد أبيه ، وتوفي بعد أبيه باثنتين وثلاثين سنة » .

والجدير بالذكر أن العلامة البلجرامي سمى هذه المقدمة بـ « المقدمة الفاضلية » لأن الجواني ألفها باسم القاضي الفاضل ، وجعلها مقدمة لكتابه « الجوهر المكنون في القبائل والبطون » . وقد جاء النص الذي نقله النويري عنها في الورقة ٩ ب ـ ١٤ أ ، من المخطوطة المشار إليها .

اختصر النويري هذه المقدمة في الباب الرابع من القسم الأول من الفن الثاني في الأنساب[1] . وقبل بدء الاختصار أتى بمقدمة مناسبة لهذا الباب كعادته ،

---

(١) النهاية ٢٩١/٢

ابتدأها بآية قرآنية ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... ﴾ [الحجرات : ٤٩ / ١٣] ثم أشاد بعلم الأنساب ومعرفتها مستنداً إلى ما للعرب من فخر على الأعاجم فقال :

« ومعرفة أنساب الأمم مما افتخرت به العرب على العجم لأنها احترزت على معرفة نسبها ، وتمسكت بمتين حسبها ، وعرفت جماهير قومها وشعوبها ، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها ، واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها ، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها ... الخ » [٢ / ٢٧٦]

ثم اعترف النويري أنه لخص هذا الباب من مقدمة الجواني النسابة فقال :

« وقد وقفت على المقدمة التي وضعها الشريف أبو البركات الجواني ، فرفعت له علماً ونصبت له إلى المعالي سلماً ... » .

وبيّن سبب اعتماده عليه في هذا الموضوع ، واقتصاره في النقل عليه دون الكتب الأخرى قائلاً :

« لأنه (أي الجواني) أتقن أصولها وحرر فصولها وأورد فيها من الأنساب ما ينتفع به اللبيب ، ويستغني بوجوده الكاتب الأريب »

ومن هنا يبطل ما كتبه المستشرق Mr.S.D.F.Gortein محقق كتاب أنساب الأشراف للبلاذري (٢٧٩ هـ) في الجزء الخامس منه[١] حين قال في مقدمته للكتاب المذكور :

---

(١) وهذا الجزء الخامس طبع في القدس تحت إشراف الجامعة العبرية عام ١٩٣٦ م في القدس ، وبه مقدمة باللغة الإنكليزية مبسوطة . تسرد كيفية الحصول على النسخة المخطوطة والعمل على نشرها وطباعتها وغير ذلك من التفاصيل الهامة عنها . ويبتدئ الكتاب من سيرة عثمان بن عفان . أما التاريخ قبله فإنه قد ضاع ، بما لعبت به يد الحدثان مع بعض الكتب النفيسة التي ضاعت واندثرت على يد الحملات والكوارث .

« ... وقـد كان هـذا الكتـاب (أي أنسـاب الأشراف للبـلاذري) مرجـع كثيرين من رجال التاريخ والسير المشهورين ، وأئمّة الأدب واللغة مثل المسعودي في مروج الذهب ، والشريف المرتضى في الشافي ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وياقوت في كتـابيـه معجم البلـدان و إرشـاد الأريـب ، وابن الأثير في الكامل في التاريخ ، **والنويري في نهـايـة الأرب** ، وابن حجر العسقلاني في الإصـابـة في تمييز الصحـابـة ، وأبي المحـاسن ابن تغري بردي في النجوم الـزاهرة في ملـوك مصر والقاهرة ، والسيد محمد المرتضى الزبيدي (البلجرامي الهندي) في تـاج العروس ، وغيرهم » .

دليل إبطال رأي المستر غورتين

وإننا في الوقت الذي لا ننكر فيه ولا نعترف بـاستفـادة الأعلام المـذكورين في هـذه المقـدمـة ، من أنسـاب الأشراف للبـلاذري ، ننكر كل الإنكار ، استفـادة النويري منه . وذلك لأن النويري نفسه أكّد اعتماده واقتصاره في هذا البـاب على الجواني فقط . فقد قال بالحرف الواحد :

« ... هـذا والله رجـائي من كرم ربي ، وإنْ قـل عملي وكثر ذنبي ، وعلى الشريف العمدة فيما أوردته ، والعهدة فيما نقلته . فمن تـأليفـه نقلت وعلى مقـالتـه اعتمدت » [٢ / ٢٧٧]

فأمـام اعتراف النويري هـذا من المتعـذّر جـداً أن نقول إنـه نقل من كتـاب البلاذري . ثم إننا أثناء دراستنا لهذا السفر ، وجـدنـا منقول النويري طبق النص الموجود في مقدمة الجواني لفظاً وحرفـاً . زد على هـذا أن النويري خـالف ترتيب الجواني . وقد أشار إلى ذلك بقوله :

« فوجدته (أي الجواني) بدأ فيها (أي في مقدمته المذكورة) بـذكر سيـدنـا رسول الله ﷺ ، ثم بآبائه ، وشرح جملة من نسبـه الطـاهر وأبنـائـه . فرأيت أن

أسرد النسب من أصله ، وأبدأ بآدم عليه السلام ثم بنسله ، وأجعل العمدة على سرد عمود النسب المتصل بسيد البشر ، وأذكر من ذلك ما اشتهر عند أهل الأنساب وانتشر . إلى أن أنتهي إلى اسمه الشريف فأجعله خاتمة النسب » [٢ / ٢٧٧]

وهكذا نرى أن المستر غورتين كتب عن استفادة النويري من هذا الكتاب ظناً وتخميناً ، دون الرجوع إلى النهاية ، وتحمل مشقة الموازنة بين ما نقله النويري وما كتبه البلاذري في هذا الموضوع ، ليتأكد من أن النويري استفاد منه أم لا ؟ والواقع كما رأينا ، أن النويري لم ينقل شيئاً من أنساب الأشراف للبلاذري ، بل اعتمد على مقدمة الجواني المذكورة فقط . كما سنتأكد عند مقارنتنا بالمنقول منه في النهاية .

وقبل البدء في المقارنة نستحسن أن نلم بنهج الجواني في مقدمته ، لتسهل المقارنة ويتيسر الأمر .

نهج الجواني

١ ـ بدأ الجواني مقدمته بمقدمة كتبها على طريقة السجع ، نوّه فيها بعمله هذا ، وذكر أستاذه القاضي الأجل الفاضل الناصري أبا علي عبد الرحيم بن القاضي الأجل بهاء الدين أبي المجد علي بن الحسن بن أحمد اللخمي البيساني . وأسند إليه جميع ما يمتاز به هذا الكتاب من صفات ومن غزارة في المعنى ورصانة في الأسلوب ، وصحة في القول ، ودقة في الترتيب ... إلى غير ذلك من الصفات الحميدة .

٢ ـ ثم تناول سرد طبقة الأمم والشعوب بقوله :

« إن جميع ما بنت عليه العرب في نسبها أركانها وأسست عليه بنيانها عشر طبقات . وجعلت ترتيب ثماني منها في تفصيل جمل القضية ، تتنزل منزلة ثمانية

مفاصل من الصورة الآدمية لبيان ذلك بأوضح الطرق وأبين المسالك » ثم قال :

« الطبقة الأولى الجذم[1] وهو الأصل إمّا إلى عدنان وإما إلى قحطان . والجذم القطع ، يقال جِذْم وجَذْم » ثم أوضح تفصيل هذه الطبقة إلى أربع صفحات من كتابه ثم ذكر أن :

« الطبقة الثانية الجمهور ، فالطبقة الثالثة الشعوب ، فالطبقة الرابعة القبيلة ، فالخامسة العمائر ، فالسادسة البطون ، فالسابعة الأفخاذ ، فالثامنة العشائر ، فالتاسعة الفصائل ، فالعاشرة الرهط » .

ثم أتي بتمثيل التفصيل ليقول :

« والذي نبدأ به في هذه المقدمة ، بسط النسب الأطهر المحمدي إلى آدم ، ثم نعود إلى شرح ذلك ، وما تفرع من كل أب من القبائل والبطون على أتم اقتصار لا على أعم إكثار . إذ لاستيعابه مواضع من تواليفنا والمعونة في كل ذلك وتوفيقنا من الله خالقنا ومعيننا »[2] .

٣ ـ ثم سرد نسب النبي من أبيه عبد الله بن عبد المطلب إلى أن بلغ به إلى سيدنا وأبينا آدم عليه السلام .

٤ ـ ثم بدأ بسرد نسب نبينا بتفصيل ، ولكنه قبل أن يعمل بنهجه هذا أيّد عمله بسنة شيوخه فقال :

« هذه أحسن الطرق في إيراد عمود النسب على النسق ، وهي طريق شيوخنا في النسب رضي الله عنهم . كالشيخ الشريف أبي جعفر البغدادي المعروف بابن الجوانية ، والعمري ، وأبي الغنائم الزيدي والبطحاوي والشجري والأفطسي

---

(١) النسخة المخطوطة ص ٨ ـ ١٢

(٢) مقدمة الجواني المخطوطة ص ١٣

والأرقطي والعباسي وغيرهم ، وهي عن عبد الله بن العباس عليهما السلام ، وعليها استقر رأي أكثر أهل العلم » .

٥ ـ ثم ذكر نبينا وأباه عبد الله وأباه عبد المطلب ، ومنه أخذ يسرد نسبه ووجه تسميته بشيبة ، إلى أن تناول بني أبي طالب فالعلويين فالجعفريين فالعقيليين فالعباسيين ، إلى أن بلغ بني هاشم بحسب الترتيب الوارد في ص ١٦٩ .

٦ ـ انفرد الجواني في كتابه هذا بذكر عدد جدود النبي عند كل رأس قبيلة ، فمثلاً يقول : ابن هاشم : وهو ثالث جد لسيدنا رسول الله ﷺ ، ابن قصي : وهو الجد الخامس لرسول الله ﷺ ، ابن كلاب : وهو سادس جد لسيدنا رسول الله ﷺ ، ابن كنانة : وهو الجد الرابع عشر لسيدنا رسول الله ﷺ[(١)] .

بين النويري والجواني

بدأ النويري اختصار كتاب الجواني (المقدمة) بقوله : « قال السيد الشريف نقيب النقباء أبو البركات بن أسعد بن علي بن معمر الحسيني الجواني النسابة رحمه الله : إن جميع مابنت عليه العرب في نسبها أركانها وأسست عليه بنيانها عشر طبقات » .

وهنا يقف النويري ولا يذكر الجمل التالية التي وردت في كتاب الجواني والتي تقول : « وجعلت ترتيب ثماني منها في تفصيل جمل القضية ، تتنزل منزلة ثمانية مفاصل من الصورة الآدمية لبيان ذلك بأوضح الطرق وأبين المسالك » كعادته في سائر منقولاته بغية الاختصار والاكتفاء بجوهر الفصل .

وردت كلمة جِذم وجذم بكسر الجيم وسكون الذال في الأولى ، وبالفتحة بعدها سكون في الكلمة الثانية في النهاية . ولكن الكلمتين وردتا في النسخة

---

(١) مقدمة الجواني المخطوطة ص ٢١

المنقولة من المقدمة « جَذَمَ وجَذِم » بالفتحة على الحروف الثلاثة في الأولى ، وبالفتحة على الجيم والكسرة تحت الذال في الثانية . وهذا يطابق النسخة الأصلية .

حذف النويري كلمة « قوم من النسابين » الواردة في النسخة الأصلية من كتاب الجواني ، فقال : « وذهب قوم إلى أن ولد معدّ ... إلخ » [٢٧٩/٢] كما حذف النويري كلمة « جل اسمه » الواردة في النسخة الخطية ، واكتفى بقوله « تعالى » .

وفي بيان قيس قال النويري : « بيانه هاهنا أن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان بن أدّ بن أدد بن إسماعيل الذبيح » [٢٨٠/٢] ولكن الجواني أورد هذا النسب على هذا الوجه : « ... ابن أدّ بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار بن إسماعيل الذبيح » ... إلخ[١] .

وكذلك حذف النويري من الآية الواردة في النسخة الخطية ﴿ إلَهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة ١٣٣/٢] . وأضاف النويري كلمة ليست في الأصل فقال « فأقول : قريش من قريش » فإن هذه الجملة ليست في المخطوطة . وبعد هذه الجملة يطابق نص النويري نص المخطوطة حين يقول : « وهذا بعيد من وجه » وكذلك أضاف النويري جملة : « وأخ لهما أعني ربيعة وإياد » فإن هذه الجملة ليست في المخطوطة ولا في النسخة المنقولة منها . ورد في النسخة الخطية كلمة « الملك » ولكن النويري نقلها « الملوك » ، وحذف كلمة « الأزد » بعد المحرق الواردة في النسخة الخطية . قال النويري : « والعرب يطلبون العز » بينما وردت في النسخة الخطية : « فيطلبوا العز » .

ولقد كتب الجواني عن البطون فقال : « وبطون الأمالق البوالق ... إلى :

---

(١) أشار محققو كتاب النهاية أيضاً إلى هذا الاختلاف في الهامش .

لاعلى الظن المشتهر » ولكن النويري لم يذكر هذه الجمل بل أهملها لعدم جدواها أو لعدم صحة هذا البيان عنده . ولقد تنبه إليها ناشرو النهاية وعلّقوا على ترك النويري لهذه الجمل . [٢٨٣/٢] وكذلك جملة : « لما خلف على أمه الجرهمية بعدُ » فإن هذه الجملة أيضاً ليست في كتاب النهاية وإنما أضيفت إلى الكتاب المطبوع منه ، من نسخة الجواني المخطوطة . وهنالك اختلاف كبير بين النهاية ومخطوطة الجواني في اسم . فلقد ورد اسم (عمرو) في مخطوطة الجواني في ص ١١ منها ، لكن النويري ذكر هذا الاسم (عميرا) . وكذلك أضاف النويري جملة ليست في مخطوطة الجواني وهي « ألا ترى أنها قالت في عبد مناة بن كنانة » .

لقد ترك النويري ٩ أسطر من كتاب الجواني ولم يذكرها في كتابه مع شعر حسان بن ثابت الذي يقول فيه مشيراً إلى بني بكر وعامر ومرة أولاد عبد مناة بن كنانة :

ضَربوا عليّاً يومَ بَدْرٍ ضَرْبَة   دانتْ لِوَقعتِها جميعُ نزارِ

والسبب كما يبدو لي هو أن هذه السطور لاصلة لها بالأنساب ، وإنما ساقها الجواني دليلاً على أن الإسلام منع تقليب الأنساب كما فعل حسان بحجة الآية ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [الأحزاب ٥/٣٣] وقول رسول الله ﷺ « من ادّعى إلى غير أبيه ... إلخ » ولما كان هذا الكلام لا يتعلق بالأنساب تركه النويري حرصاً منه على تتبع الموضوع بدقة تامة ، وانتقل إلى الطبقة الثانية (الجمهور) ، إلا أن النويري كتب (الجماهير) بدل (الجمهور) .

وهكذا استمر النويري في النقل من مقدمة الجواني المخطوطة يحذف تارة ويختصر تارة أخرى ، حتى بلغ فصل (تمثيل التفصيل) بعد أن نقل قرابة ١١ صفحة منها . وهنا يختلف ترتيب النويري عن ترتيب الجواني .

أما (تمثيل التفصيل) الذي أورده الجواني فهو على الوجه الآتي : « فهر بن

مـالـك وهو قريش شعب ، قصيّ قبيلـة ، هـاشم عمـارة ، عليٌّ أمير المؤمنين عليـه السلام بطن ، الحسين عليه السلام فخذ ، علي بن الحسين وهو زين العابدين عليه السلام عشيرة ، جعفر بن محمد الصادق فصيلة ، ومـا دون ذلـك رهـط النبي الصادق »[1] .

بينما يسرد النويري هذا التمثيل على الوجه التالي :

« عدنـان جـذم ، قبـائل معـدّ جمهور ، نزار بن معـدّ شعب ، مضر قبيلـة ، خنـدف عمـارة : وهم ولـد إليـاس بن مضر ، كنـانـة بطن ، قريش فخـذ ، قصيّ عشيرة ، عبد مناف فصيلة ، بنو هاشم رهط » [٢٨٦/٢] .

وطبيعي إذن ، أن يختلف سرد النسب أيضـاً بين المـؤلفين . فـالجـواني يبـدأ بسرد النسب من نسب النبي ﷺ فيقول :

« والذي نبدأ به في هذه المقدمـة بسـط النسب الأطهر المحمـدي إلى آدم عليـه السلام . ثم نعود إلى شرح ذلك وما تفرع من كل أب من القبائل والبطون على أتم اختصـار لا على أعم إكثـار ، إذ لاستيعـابـه مواضع من تواليفنـا ، والمعونـة في كل ذلـك وتـوفيقنـا من الله خـالقنـا ومعيننـا . فنقـول بمشيئـة الله وهـدايتـه ، إن رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه ، خاتم النبيين وسيد المرسلين وخير العالمين » ثم يتناول نسب النبي ﷺ بقوله : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إلى آخره ...

أما النويري فقد قلب الترتيب الذي وضعه الجواني . فبدلاً من أن يبـدأ سرد النسب من النبي ﷺ ، ابتـدأ بـآدم عليـه السـلام . لأن النسب الإنسـاني يبتـدئ منه ، ثم يتدرج إلى سرد جميع العشائر والأفخاذ والرهوط ، من سيدنـا آدم إلى أن ينتهي إلى سيدنا محمد ﷺ ، ورهط بني عبد المطلب فهاشم .

---

(١) مقدمة الجواني الخطية ص ١٢

ولذلك نجد أن نسب بني هاشم الذي أورده النويري في نهاية الجزء الثاني من كتابه يأتي في أول كتاب الجواني[1] .

فترتيب الجواني في كتابه كما يلي :

« بني عبد المطلب ، بني هاشم ، بني عبد مناف ، بني قصيّ ، بني كلاب ، بني مرة ، بني كعب ، بني لؤي ، بني غالب ، بني فهر ، بني مالك ، بني النضر ، بني كنانة ، بني خزيمة ، بني مدركة ،بني إلياس ، بني مضر ، بني نزار ، بني معدّ ، بني عدنان ، بني أدّ ، بني الهميس ، بني سلامان ، بني بنت ، بني حمل ، بني قيذار ، بني الذبيح (إسماعيل) ، بني إبراهيم الخليل ، بني تارح ، بني تاحور ، بني ساروغ ، بني أُرغو ، بني فالخ ، بني عابر ، بني إلياس ، بني ربيعة ... الخ »[2] .

يستمر الجواني في سرد النسب إلى أن يبلغ (ثعلبة وذهل) ثم يقول « من الغوث بن طيء بن أدد بن زيد بن عمرو بن الغوث ، والعقب » وبهذه الكلمة (والعقب) تنتهي مقدمة الجواني . فالصفحات الباقية من المقدمة المخطوطة ليست في النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

أما النويري فإنه ظل ناقلاً من المقدمة إلى هذه الكلمة ... ثم أكمل بقية المعلومات فقال : « والعقب من الغوث بن طيء من عمرو بن الغوث » ثم يستمر في نقله من المقدمة الخطية إلى أن ينجز كتابه بـ (عبد المطلب بن هاشم) . وهذا الفصل يطابق تمام المطابقة كتاب الجواني اللهم إلا بعض الاختلافات الطفيفة .

وقد ختم النويري فصله في الأنساب بنسب رسول الله ﷺ ، إلى أن أوصله إلى أبينا آدم عليه السلام ، دون أن يذكر ترتيب أبوته لنبيّنا ﷺ .

وهكذا نجد أن نسب النبي ﷺ الذي كان الجواني قد جعله فاتحة مقدمته ،

(١) مقدمة الجواني المخطوطة ص ١٤

(٢) مقدمة الجواني ص ٢٣

جعله النويري خاتمة فصله في الأنساب . وبهذا الفصل الأخير ينتهي ، « الباب الرابع من القسم الأول من الفن الثاني في الأنساب » الذي بدأه النويري من ص ٢٧٦ من الجزء الثاني من كتابه ، ونقل فيه شعراً للعباس بن عبد المطلب ، فحواه أن الله لم يزل ينقل النبي من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجه من أبوين لم يلتقيا على سفاح قط . قال العباس ـ رضي الله عنه ـ :

من قبلها طبت في الجنان وفي   مستودع حيث يخصف الورق

إلى أن قال :

تنقل من صالب إلى رحم   إذا مضى عالَم بدا طبق

وهكذا نلاحظ أن النويري قد اختصر هذه المقدمة في ٨٥ صفحة أو ما يقاربها ، ناقلاً فيها المعلومات والأنساب الضرورية فقط مع التعديل في ترتيب الجواني لكي يلائم خطته ونهجه في باب الأنساب .

بين النويري وابن الجوزي

بعد أن فرغ النويري من الكلام عن الإنسان وما يتعلق به ، من اشتقاقه وتسميته وتنقلاته وطبائعه وما يتصل بذلك ووصف أعضائه كلها وإيراد ما قيل فيها من نثر ونظم وأمثال وتشبيهات ـ وذلك في البابين الأول والثاني من القسم الأول من الفن الثاني [ج ٢] ـ وضع الباب الثالث من هذا القسم (في الغزل والنسيب والهوى والمحبة والعشق)

وقد بدأ الباب كعادته بمقدمة ، قال فيها :

« ولنبدأ بذكر الهوى لأنه السبب الباعث على الغزل ، وذلك أنه إذا حل في الأجسام ارتاحت النفوس ورقت القلوب ، وانجذبت الخواطر وصفت الأذهان ، وسهل على القرائح فأبرزته الألسن ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم » .

ثم ذكر الموضوعات التي سيتناولها في هذا الباب ، بشيء من التفصيل فقال :

« ذكر شيء مما قيل في الهوى والمحبة والعشق ، وما قيل في ماهية العشق ، وحقيقته وسببه ، وما قيل في مدحه وذمه ، والممدوح منه والمذموم . وضر العشق في الدنيا ، والآفات التي تجري على العاشق من المرض والجنون والضنى ، والمخاطرات بالنفوس ، وإلقائها إلى الهلاك ، ثم نذكر أخبار من أخرجه عن دينه فكفر بربه ، ومن قتل وقتل فيه ، ومن قتل نفسه ...

ثم نذكر ما ورد في التحذير من فتنة النساء وذم الزنى ، والنظر إلى المردان والتحذير من اللواط وعقوبة اللائط ، وغير ذلك من أمر العشق على ما سنشرحه إن شاء الله تعالى .. فنقول وبالله التوفيق .. »

ثم يواصل كلامه قائلاً :

« أما ماهية العشق وحقيقته فقد تكلم عليه أوائل الحكماء والفلاسفة وغيرهم من المسلمين على ما سنشرحه إن شاء الله تعالى » .

ثم يبدأ نقله من كتابه المفضل لديه في هذا الموضوع كعادته :

فأما المقدمة التي ذكرناها سابقاً وكذلك (ذكر ماهية العشق وحقيقته) فإنه نقلها من كتاب مصارع العشاق لمؤلفه جعفر بن أحمد السراج[1] إلا أنه اختصر ما قاله السراج في كتابه هذا ، وحذف أسانيد الروايات التي يذكرها السراج ، واكتفى بذكر الراوي الأخير ومثال ذلك ما قاله النويري في فصل (فأما كلام

(١) السراج صاحب (مصارع العشاق) هو أبو محمد القارئ البغدادي جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج ، ولد في سنة ٤١٩ أو ٤١٧ أو ٤١٦ هـ ، وتوفي في ١١ من شهر صفر سنة ٥٠٠ هـ . ودفن بباب أبرز وله غير هذا الكتاب (كتاب زهد السودان) ونظم أشعاراً كثيرة في الزهد والفقه وغير ذلك . انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٥٣/٧ . وذكر ياقوت له نخبة من الشعر الجيد .

الحكماء والفلاسفة) قال بعض الفلاسفة : لم أر حقاً أشبه بباطل ولا باطل أشبه بحق من العشق . فلقد وردت هذه الحكمة في كتاب مصارع العشاق بأسانيدها الكاملة ، ولكن النويري حذف الأسانيد . وكذلك في فصل (أما كلام الإسلاميين وما قالوا فيه) [٢ / ١٢٦] فإنه أيضاً منقول من مصارع العشاق للسراج دون ذكر الأسانيد الواردة فيه .

وبعد هذه الاقتباسات من هذا الكتاب بدأ النويري نقل الموضوعات الرئيسية في هذا الباب من كتاب ذم الهوى لابن الجوزي . والجدير بالذكر أن السراج أيضاً استقى معلوماته من كتاب ذم الهوى لابن الجوزي . فمن هو ابن الجوزي هذا ، وما هو كتابه ذم الهوى[1] ؟

---

(١) ابن الجوزي هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ . والجوزي نسبة إلى فرضة الجوزي ، كما يقول ابن خلكان ، أو إلى محلة الجوز بالبصرة كما قال ابن العماد . كان إمام وقته في الحديث والوعظ . ولد سنة عشر وخمس مئة كما يقول ابن العماد ، وذكر ابن خلكان مولده بين سنة ثمان وعشر ، ومات سنة سبع وتسعين وخمس مئة هجرية . نشأ يتيماً ، إذ مات أبوه وله ثلاث سنين ، فربته عمته . كان محدثاً بارعاً ، وقد عانى في تحصيل الحديث عناءً بالغاً فقال : « كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى ، فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها » . وابن الجوزي عالم كثير التأليف ، كتبه متعددة ومتنوعة . ذكر ابن العماد الحنبلي أن ابن الجوزي سئل عن عدد تصانيفه فقال : زيادة على ثلاث مئة وأربعين مصنفاً ، وفيها ما هو عشرون مجلداً أو أقل . وكتابه في التفسير (التفسير الكبير) يقع في عشرين مجلداً . انظر في ابن الجوزي : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٣١٩/٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٢١/٢ وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٥/٤

كتاب ذم الهوى : كتاب يبحث في الحب والهوى ومضاره ومنافعه وأسبابه وعلاجه وسائر الأمور المتعلقة بالحب والهوى . فقد عاش ابن الجوزي في بغداد ، تلك المدينة الناعمة الوادعة المشرقة ، في الحقبة التاريخية التي اكتملت بها المدينة من جميع الاعتبارات ، فسادها الترف والنعيم وما يتلوهما من فساد ودعارة ومجون ورغبة في الملذات والمخازي . عندئذٍ قام الرجل =

وضع ابن الجوزي الباب الخامس والثلاثين في ذكر ماهية العشق وحقيقته (ص ٢٨٩) دون أن يضيف إليه التفاصيل الأخرى التي أوردها النويري من كتاب مصارع العشاق للسراج . ويبدأ ابن الجوزي بابه هذا قائلاً : « اختلف كلام الناس في ذلك ، وأكثرهم سموه باسم سببه باسم ما يؤول إليه » ثم قال (ذِكْر كلام الأوائل في ذلك) وهكذا فإنه بدلاً من أن يقدّم للباب ومحتوياته بشيء من التفصيل كبداية الاستهلال ، كما فعل النويري ، دخل في الموضوع مباشرة فقال : « قال أفلاطون : العشق حركة النفس الفارغة بغير فكرة » . ثم أتى بأقوال كلٍ من (ديو جانس) و (أرسطاطاليس) و (فيثاغورس) إلى أن أنهى هذه الأقوال بقول المتنبي :

وما العشق إلا غرة وطماعة ... يعرض قلبٌ نفسَه فيصاب[1]

ثم أتى ابن الجوزي برواية عن شهدة بنت أحمد[2] يرفعها إلى أبي بكر بن المرزبان

= وكتب كتابه هذا يحذر ويصيح ، ويحاول أن ينقذ الأمة العربية من الضلال والهوى فلم يجئ كتابه حديثاً عن الحب وسرد الأخبار فحسب ، بل جاء كتاب توجيه أيضاً تحس فيه بحرارة الغيرة وقوة الدافع ، وترى فيه حلقة من حلقات المقاومة التي بذلها رجال مجاهدون في تاريخ هذه الأمة (باختصار عن مقدمة كتاب ذم الهوى بقلم محققه مصطفى عبد الواحد) وكان الكتاب إلى سنة ١٩٥٧ م مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢٧٦ أدب تيمور . ويقع من القطع الصغير في مجلدين يحوي كل جزء ٢٤٤صفحة . وقد حققه مصطفى عبد الواحد ونشره ببيروت عام ١٩٦٩ م في مجلد واحد في مظهر جذاب جميل حسن الطباعة ، وإليه أشرنا في بحثنا هذا . يشتمل كتاب ذم الهوى على خمسين باباً منقسماً إلى عدة فصول . ويبلغ بعض الأبواب ٥٦ فصلاً كما في الباب الثالث ، أو أكثر كما في الباب السابع والأربعين الذي يشتمل على ٦٠ فصلاً أي ما يعادل ٧٥ صفحة من الكتاب .

(١) ديوان المتنبي ص ٤٠٩ والنهاية ١٢٦/٢

(٢) شهدة بنت أحمد هي : شُهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الأبري (٤٨٢ ـ ٥٧٤ هـ) ، فقيهة من كبار العلماء في عصرها ، أصلها من دينور ومولدها ووفاتها ببغداد . روت الحديث وسمع عليها خلق كثير وطار صيتها ، وتزوج بها ثقة الدولة بن الأنباري . عرفت بالكاتبة لجودة خطها . الأعلام ٨١٤/٢ وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان .

قال : قال سقراط الحكيم : العشق جنون وهو ألوان كما أن الجنون ألوان .

ثم أتى برواية لابن خيرون عن قول بعض الفلاسفة في العشق ، وبعد ذلك أتى برواية ابن عمران عن ابن عائشة حول رأيه في العشق ، وبعد ذلك أتى برأيه هو فيه فقال : قلت : قد ذهب بعضهم إلى أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا (ص ٢٩٠) .

أما النويري فإنه يبدأ نقله من ذم الهوى بقول أفلاطون السابق الذكر ، ثم ديوجانس وأرسطاطاليس وفيثاغورس بترتيب ابن الجوزي نفسه ... إلى شعر المتنبي السابق الذكر . ولكنه أهمل رواية شهدة بنت أحمد في قول سقراط الحكيم ، لينقل رواية ابن خيرون السابقة ولكن دون ذكر إسناد الرواية . قال : قال بعض الفلاسفة : لم أر حقاً أشبه بباطل ... إلخ كما ورد في ذم الهوى ، وقد ترك رواية ابن عمران عن ابن عائشة لينقل قول ابن الجوزي فيه ، ولكن دون أن يشير إلى أنه قوله ، مكتفياً بالقول : وقد ذهب بعضهم إلى أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا [١٢٦/٢] .

وهنالك ملاحظة هامة هي أن ابن الجوزي كتب اسم الفيلسوف اليوناني الشهير (ديوجانس) : يوزجانس ، إلا أن النويري أتى باسمه الصحيح ولم يتبع فيه ابن الجوزي ، ليتجنب الخطأ الذي ارتكبه ، وفي ذلك دلالة على أن النويري كان قد بلغ من العلم درجة التميز بين الخطأ والصواب حتى في الأسماء الأجنبية كهذا .

ثم أورد ابن الجوزي (ذكر كلام الإسلاميين في ذلك) ص ٢٩٠ وابتدأ برواية لشهدة بنت أحمد الأبري ترفعها إلى أبي العالية الشامي ، قال : « سأل أمير المؤمنين يحيى بن أكثم عن العشق ما هو ؟ فقال : هو سوانح تسنح للمرء فيهمّ بها قلبه وتؤثرها نفسه . قال : فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب

في مسألة طلاق أو مُحرمٍ صاد ظبياً أو قتل نملة ، فأما هذه فمسائلنا نحن . فقال له المأمون : قل يا ثمامة ماالعشق ؟ فقال له ثمامة : العشق جليس ممتع ... إلى : فقال له المأمون : أحسنت والله يا ثمامة . وأمر له بألف دينار » .

أما النويري فإنه حذف الأسانيد كلها ونقل هذا الخبر من ذم الهوى كأنه من اكتشافه ، فبدلاً من أن يشير إلى الرواية قال بصيغة المجهول « فقد حكي عن أبي العالية الشامي قال : سأل المأمون » بدلاً « من أمير المؤمنين » الذي أورده ابن الجوزي دون ذكر المأمون . ثم هنالك اختلاف بسيط بين لفظي ابن الجوزي والنويري . قال ابن الجوزي : « فيهمّ بها قلبه » أما النويري فإنه قال : « يهيم بها قلبه » وكذلك قال ابن الجوزي : « وصاحب ملك » ولكن النويري قال : « وصاحب مملك » كما أضاف بعده : « ومالك قاهر » التي ليست في ذم الهوى لابن الجوزي . ثم واصل الرواية المذكورة فقال : « وعمي في القلوب مسلكه » ولكن النويري كتب بدل « عمي » « غيض في القلوب مسلكه » . ثم أتي ابن الجوزي برواية عن أبي منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز مرفوعة إلى الفضل بن يعقوب في معنى الرواية السابقة بكامل إسنادها ، ولكن النويري نقل هذه الرواية دون ذكر السند الكامل واكتفى بذكر آخر الرواة فقال ـ وهنا أيضاً بصيغة المجهول ـ « وحكي عن الفضل بن يعقوب » مع بعض الاختلاف في الألفاظ أيضاً كما لاحظنا في الرواية السابقة . قال ابن الجوزي وهو يورد هذه الرواية : « إذا امتزجت جواهر النفوس » ولكن النويري قال : « خواطر النفوس » وكتب ابن الجوزي : « تستضيء به بواصر العقل » بينما كتب النويري « تستضيء به نواظر العقول » بدل (بواصر) . كما قال ابن الجوزي في هذه الرواية نفسها : « ويتصور سن ذلك اللمع نور خاص بالنفس » أما النويري فاستعمل جمع النفس (النفوس) في هذا المكان . أما بقية الرواية فإنها منقولة لفظاً وحرفاً من ذم الهوى .

ومثل ذلك في رواية الأصمعي التي سأله فيها هارون الرشيد عن تعريف

العشق فوصفه له (ذم الهوى ص ٢٩١) ، فبين الكتابين اختلاف بسيط في الكلمات . فبينما كتب ابن الجوزي : « إذا تقادحت الأخلاق المتشاكلة ، وتمازجت الأرواح المتشابهة ألهبت لمح نور ساطع » كتب النويري : إذا تقاربت (بدل تقادحت) ، الأخلاق المشاكلة (بدل المتشاكلة) ، وتمازجت الأرواح المشابهة (بدل المتشابهة) .

وبعد أن ترك النويري روايتين اثنتين من ذم الهوى استأنف نقله من رواية الأصمعي بقوله : وحكي عن الأصمعي أنه قال ... إلخ [٢ / ١٢٨] إلا أن ابن الجوزي أوردها بقوله : وروي عن الأصمعي أنه قال[1] . واستمر النويري في نقله من ذم الهوى إلى « فيتجدد من شدة الفكر مرض » ثم بدأ ابن الجوزي فصلاً جديداً وهو في ذكر مراتب العشق . ولكن النويري أضاف إليه أشياء ليست في ذم الهوى مثل : « وقيل لبعضهم : ما العشق ؟ » وجوابه . ومثل : « وقال أبو العيناء : سألت أعرابياً عن الهوى فقال : هو أظهر من أن يخفى ، وأخفى من أن يرى ، كامن ككمون النار في الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى . وسئل يحي بن معاذ عن حقيقة المحبة فقال : التي لا تزيد بالبر ، ولا تنقص بالجفاء . وسئل بعض الصوفية عن الهوى والمحبة فقال : الهوى يحل في القلب والمحبة يحل فيها القلب » [١٢٨/٢] .

ثم قال : « وللعشق مراتب من ابتدائه إلى انتهائه » وهنا استأنف نقله من ذم الهوى من (فصل في ذكر مراتب العشق) فقال : « قالوا : أول ما يتجدد الاستحسان للشخص تحدث إرادة القرب منه » الخ . ولكن ابن الجوزي قال بدل « تحدث إرادة القرب » : « ثم يجلب إرادة القرب منه » كما أن النويري حذف بعد جملة : « فيصير محبة » جملة كاملة وردت في ذم الهوى وهي « ثم يصير خلة » فقد

---

(١) ذم الهوى ص ٢٩٢

ذكر الرواية دون هذه الجملة أما جملة « وهو أن يود لو ملكه » الواردة في ذم الهوى فقد نقلها بين قوسين . وكذلك الجملة الواردة بعد « يصير تتيّماً » في ذم الهوى ، كتبها كذلك بين قوسين كأنها توضيح للجملة السابقة . ولقد أورد ابن الجوزي قولاً لذي الرياستين نهى فيه عن العشق الحرام ثم قال « فإن عشق الحلال يطلق اللسان العيّ ويرفع التبلد .... إلخ » . ولكن الغريب في الأمر أن النويري عند نقله لهذا القول أخطأ فكتب « عشق الحرام » من غير أن يتنبّه إلى أن المعنى لا ينسجم مع لفظ الحرام [٢ / ١٢٩] .

وضع ابن الجوزي الباب الرابع عشر (في النهي عن النظر إلى المردان ومجالسهم)(١) وأورد فيه أقوال النبي والصحابة الكرام والتابعين وبعض الصوفية والصالحين ، وساق في هذا الباب ٣٩٤ قصة من حديث ورواية وقول . واستهل هذا الباب بمقدمة بسيطة أشارت إلى مافي النظر إلى المردان ومصاحبتهم من فتنة يقع فيها العالم والعابد أحياناً بإيعاز من الشيطان ، ولذلك نرى أن سلف هذه الأمة ساروا على منهج الحذر منهم ، وبه أمر العلماء والأئمة .

ثم أتى بحديث عن أبي منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز يرفعه إلى أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجالسوا أبناء الملوك » . قال : الأنفس تشتاق إليهم فلا تشتاق إلى الجواري ثم أتى بحديث آخر عن أحمد بن المبارك يرفعه إلى الشعبي قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة . فأجلسه النبي ﷺ وقال : « كانت خطيئة داود النظر » .

إلا أن الشوكاني ذكر أن هذين الحديثين موضوعان(٢) .

ثم أتى بحديث ثالث بسنده الكامل عن أبي هريرة قال : نهى رسول الله ﷺ

(١) ذم الهوى ١٠٥

(٢) الفوائد المجموعة

أن يحدّ الرجل النظر إلى الغلام الأمرد ص ١٠٦ ، ثم أتى بأقوال الصحابة والتابعين والصوفية والصلحاء وغيرهم ، حتى أتى على الباب كله الـذي استمر من ص ١٠٥ إلى ص ١٢٥ وفيه فصلان ، فصل (وقد افتتن بـالأحـداث خلق كثير من الأفـاضل) ص ١١٦ ، وفصل (وقد يقع للنفس تـأويل في مصـاحبـة الحـدث) ص ١٢٢ أتى فيهما بأقوال وأقاصيص حول هذا الموضوع .

أما النويري فإنه بعد أن طالع البـاب الرابع عشر من ذم الهوى لابن الجوزي انتخب من هذا الغث والسمين ٥ روايات فقـط من عِينـات وأقوال وقصص بحسب خطته ، ونقلهـا تـارة يختصرهـا ، وتـارة يـأتي بهـا كاملـة . ولقـد ترك الحـديثين الواردين في ذم الهوى لعلمه بوضعهما . وكذلك أهمل الروايـات والقصص التي تمس إما باسم عالم أو شخصية لها اعتبار ، وإما لأنهـا مخزيـة وفـاضحـة ، لا يستسيغهـا ذوق سليم ، ولا تبيح سردهـا أخلاق فـاضلـة ، أو لأنهـا تشير بـوضـوح إلى طبقـة معينة من المجتمع ، أو شخص معين منه ، مثل قول الحسن بن ذكوان : لا تجـالسوا أولاد الأغنياء ... إلخ ص ١٠٧ ، أو رواية القرشي : لا يبيت الرجل في بيت مع المرد ص ١٠٧ . أو كراهتهم مجـالسـة أبنـاء الملوك ص ١٠٨ . أو قصـة إحضـار أبي داود ابنه مجلس أحمد بن صـالح ليستمع الحـديث وكان أمرد ، وقـد شـد على ذقنـه قطعـة من الشعر ص ١٠٩ ، أو قول أبي عبـد الله أحمـد بن حنبـل لحسن بن البزار (أبو علي) وقد زاره مع غلام أمرد وهو ابن اخته فمنعـه ابن حنبل من المشي معـه ولو كان ابن أخته لكي « لا تؤثم الناس فيك » ص ١١٢ ، أو حكاية غشي محمـد بن عبيد الله بن الأشعث الدمشقي بالنظر إلى غلام جميل ومرضـه بسببـه ص ١١٣ ، وكذلك آفة الصوفية في محبة الأحداث ص ١١٤ ، وغيرها من القصص والروايـات التي أوردهـا ابن الجوزي في كتـابـه (تلبيس إبليس) ليـدعم بـه رأيـه ، وليضرب للنـاس أمثلـة حـول هـذه الآفـة التي كانت قـد فشت في ذلـك العصر في المجتمـع الإسلامي ولا سيما في العراق بسبب دخـول الأعـاجم ـ والفرس منهم خـاصـة ـ في

المجتمع الإسلامي ، فابتلي بها حتى بعض العلماء والصوفية . ولكن النويري لم يأتِ بشيء من هذا القبيل بل اقتصر على خمسة فصول انتقاها من هذا الرطب واليابس ، أو نقلها باختصار تاركاً ذكر الأسانيد الطويلة التي أوردها ابن الجوزي .

ومثال ذلك أن ابن الجوزي أتى بإسناد إلى ابن أبي السائب على الوجه التالي : أخبرنا ابن ناصر ، قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : أنبأنا أبو محمد الجوهري ، قال : أنبأنا ابن حيوية عن ابن المرزبان ، قال : حدثني أبو علي المروزي ، قال حدثنا محمد بن إبراهيم قال : سمعت قاسماً الجوعي يقول : سمعت ابن أبي السائب يقول : لأنا على القارئ من الغلام الأمرد أخوف مني عليه من سبعين جارية عذراء (ص ١٠٨) وكذلك أتى بالرواية عن طريق حمدان بن ناصر بسند طويل .... حدثنا عبد العزيز بن أبي السائب ، عن أبيه قال : لأنا أخوف على عابد من غلام من سبعين عذراء (ص ١٠٨) .

اكتفى النويري عند سرده للرواية الأولى بقوله « روى عن أبي السائب أنه قال : لأنا على القارئ إلخ » وفي الرواية الثانية اكتفى بالقول : « وفي لفظٍ عنه : لأنا أخوف على عابد ... إلخ » [٢ / ٢٠٢] .

أما الباب الثاني والعشرون ـ في التحذير من فتنة النساء[1] ـ فإن ابن الجوزي أورد هذا الحديث بأربعة أسناد ، ذكر أسماء رواتها كاملة ، والرواية الرابعة التي يرويها ابن الحصين حتى يرفعها إلى أسامة بن زيد « عن النبي ﷺ قال : ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء » إلا أن النويري بعدما حذف جميع الأسناد الواردة في ذم الهوى ، قال : فقد روي عن أبي أمامة بن يزيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما تركت في الناس بعدي ... » إلخ . وكذا فإنه

---

(١) ذم الهوى ١٥٢

دعا الراوي الأخير بأبي أمامة بن يزيد بدل أسامة بن زيد .

أما الحديث الثاني الذي يرويه ابن الحصين أيضاً ويرفعه إلى أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الدنيا حلوة خضرة .. » فإن النويري أورده للراوي أبي سعيد الخدري نفسه بعدما حذف الأسناد كلها .

أما حديث عبد الرحمن بن محمد القزاز المرفوع إلى علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمرة » فإن النويري أورده عن غير طريقه ، فقد رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه بدلاً من علي رضي الله عنه [٢ / ١٩٨] وقد ترك قبله خمس روايات لم ينقلها إطلاقاً ، ليواصل نقله من ذم الهوى من رواية ابن عباس قال ، قال : رسول الله ﷺ « قال إبليس لربه عز وجل يا رب قد أهبط آدم ، وقد علمت أنه سيكون له كتاب ورسل ، فما كتابهم ورسلهم » ؟ إلى آخر الرواية التي يخيّر الله فيها إبليس بأن يكون كتابه الوشم ومسجده الأسواق . وقد أخر هذه الرواية عن رواية « أخوف ما أخاف » إلخ السابق ذكرها ، ثم ترك قصة هاروت وماروت ، ليأتي برواية وهب بن منبه التي فحواها أن عابداً من بني إسرائيل ، أعبد زمانه ، ابتلي بكيد الشيطان ، حتى لوث نفسه بأختٍ بكرٍ لثلاثة إخوة غابوا عن المدينة تاركين أختهم في رعاية العابد الذي بعد أن ولدت له ابناً ، ذبحه ودفنه في مقبرة . ثم بدا له الشيطان مرة أخرى ووسوس له أن يذبح البنت أيضاً لعلها تفضح أمرك فيقتلك إخوتها ، فيذبحها ويدفنها مع ابنها . ثم إن الإخوة رأوا في المنام ما جرى لأختهم ، فحققوا في الأمر ، فلما تحققوا من جريمة العابد أرادوا أن يصلبوه . وهنالك يظهر له الشيطان مرة أخرى ويغريه بالكفر بالرب على أن يخلصه مما هو فيه . فما إن يكفر العابد بالله تعالى حتى ينسل الشيطان تاركاً إياه من غير داع ولا مجيب ، فيصلبوه جزاء ما ارتكب من الجريمة ، إلى الآية الكريمة ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... ﴾ إلى ﴿ وذلك جزاء

الظالمين ﴾[1] . وبهذه الحكاية ينهي النويري هذا الباب مع أن ابن الجوزي استمر في ذكر روايات أخرى في كتابه تستمر عشر صفحات . ولكن النويري لم يأت بأي رواية منها مخافة التطويل والملل من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه أتى في هذا الباب بروايات وقصص تفي بحاجته من التذكير والتمثيل .

والجدير بالذكر أن النويري لم يشر في بداية هذا الباب إلى أنه نقل أو سينقل من كتاب (ذم الهوى) بل اكتفى بنقل الروايات منه ، اللهم إلا بعد ٨ صفحات من بدء الباب ، حيث سمى مؤلّف كتاب ذم الهوى ، دون ذكر الكتاب نفسه فقال « قال أبو الفرج ابن الجوزي : البصر صاحب خبر القلب .... » الخ [٢ / ١٣٢] .

وبعد هذه الرواية أتى ببعض الأشعار حول ما يحدثه النظر من البلايا ، ليأتي بعده بفصلين دون ذكر ابن الجوزي . ثم يقول : « قال أبو الفرج ابن الجوزي .... » ويستمر في النقل من غير ذكر المؤلف أو الكتاب ، إلى أن يذكره باسمه الكامل مع ذكر الكتاب ، حيث يقول : « وحكى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي في كتابه المترجم بـ (ذم الهوى) بسند رفعه إلى هشام بن عروة » [٢ / ١٥٦] دون أن يذكر أن ما نقله في الصفحات السابقة أيضاً مأخوذ من هذا الكتاب نفسه ، مما يحيّر الباحث أكانت المقتبسات السابقة أيضاً من الكتاب نفسه أم لا . والحال أنها كلها مقتبسة من هذا الكتاب ، ولا يُهتدى إليه إلا بجهد جهيد وتعب بالغ في البحث والدرس والمقارنة بين نصوص الكتابين .

وقد سار النويري على هذا النهج في جميع الفصول التي نقلها من ذم الهوى ، والتي حوت من كتاب نهاية الأرب ـ السفر الثاني ـ ما يقارب ٨٥ صفحة ، وأنهى النويري نقله من كتاب ذم الهوى لابن الجوزي بآخر فصل اقتبسه منه حول

---

(١) ذم الهوى ١٦٢ والآيتان من سورة الحشر ١٦/٥٩ ـ ١٧

عقوبة اللوطي في الآخرة [٢ / ٢٠٨] ، فقال وهو يختتم نقله « هذا ما أمكن إيراده في هذا الفصل على سبيل الاختصار والإيجاز ، وإلاّ فالأخبار في العشق وتوابعه وما يتولد عنه كثيرة جداً ، وقفنا منها على كثير ولا يحتمل أن يورد في الكتب الشاملة لفنون مختلفة أكثر مما أوردناه ، فلنذكر الآن نبذة مما قيل في الغزل والنسيب » [٢ / ٢١٠] .

وهكذا ، فإنه في نهاية هذا الباب أورد (ذكر نبذة مما قيل في الغزل والنسيب) وأورد فيه ما قاله الشعراء حول مختلف معاني الغزل والنسيب ، وقال استهلالاً لهذا الفصل : « هذا الباب (أي باب العشق والهوى والمحبة) أكرمك الله وعافاك ، ووقاك من فتنة وكفاك ، باب متسع قد أكثر الشعراء القول فيه ، وتنوعوا في أساليبه ومعانيه ، ولو استقصيناه لطال به هذا التصنيف وانبساط هذا التأليف ... » إلى أن يقول « والذي نورده في هذا الباب نبذة مما قيل في المذكر والمؤنث والمطلق والمشترك ... » إلى نهاية قوله « وما قيل على لسان الورقاء والمراجعات ، والمردوف والجناس والموشحات » . ليبتدئ من الصفحة التالية في نقل الأشعار حول الموضوعات المذكورة سابقاً . فيقول : « فمما قيل في المذكر : قال العماد الأصفهاني الكاتب » ثم نقل الأشعار لمختلف الشعراء من الجاهليين والإسلاميين والْمُحْدَثين ، من أحسن ما قرضوا في هذه الموضوعات . فيبدأ النقل من ص ٢١٢ ويستمر فيه إلى ص ٢٧٦ ، أي قرابة ٦٥ صفحة من كتاب النهاية ، وبانتهاء الأشعار يبدأ الباب الرابع من القسم الأول من الفن الثاني في الأنساب [٢ / ٢٧٦] .

هذا والجدير بالذكر أن معظم الأشعار التي أوردها في هذا الباب منقولة من كتاب (ديوان المعاني) لأبي هلال العسكري[1] . أما الموشحات الواردة في هذا

(١) أبو هلال العسكري هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران المشهور بالعسكري أبي هلال توفي ٣٩٥ هـ

الباب فإنها منقولة من كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للمقّري[1] .

وبالمناسبة نذكر نخبة مختارة من روائع الشعر الذي أورده النويري في هذا الباب ، مع الملاحظة أن النويري لم يحسن الترتيب في اختيار الشعر ، فقد أتى بأشعار لشاعر واحد في مختلف المواضع من كتابه وفي موضوع واحد ، وليته جمع أقوال شاعر معين في موضوع معين في موضع معيّن من كتابه . مثلاً : أتى بمختلف القصائد لكل من أبي نواس وكشاجم وتاج الملوك وغيرهم في موضوع واحد ، ولكن في مواضع مختلفة دون ترتيب ، فكان يقدم هذا ويؤخر هذا ليقدم الأول ثانية وثالثة وهكذا .

وهاكم نخبة من الشعر مما وقع اختيارنا عليه[2] :

منتخبات من روائع الشعر الواردة في الغزل والنسيب في نهاية الأرب للنويري [٢ / ٢١٢]

مما قيل في المذكر :

١ ـ قال العماد الأصفهاني الكاتب :

وأحورَ يسبي بطرف يكل ... وتخجل منه الظُّبا والظِّباءُ
بخدّيه من حسنه والشباب ... تجمّع ضدان : نار وماءُ
وفي مقليته وقد صحّتا ... كما صحتا سَقَمٌ وانتشاءُ
عففتُ وعِفتُ الحيا في هوا ... ه حتى استوى صدّه واللقاءُ
وكل حياء يذود العفا ... ف عن ودّه فعليه العفاءُ

(١) المَقّري هو أبو العباس أحمد بن محمد المَقّري المؤرخ الأديب الحافظ صاحب (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) توفي ١٠٤١ هـ

(٢) أوردنا في الصفحات ٢٥٧ ـ ٢٦٣ مختارات أخرى وتحاشينا التكرار

٢ ـ **وقال أبو نواس :**

شبيـه بـالقضيب وبـالكثيبِ غريب الحسن ذو دلّ غريبِ
بعيـد إن نظرت إليـه يـومـاً رجعت وأنت ذو أجـل قريبِ
ترى للصمت والحركات فيـه سـوامـا لا يـذاد عن القلـوب
ويمتحن القلـوب بمقلتيـه فينكشف البريء من الْمُريبِ

٣ ـ **وقال الأمير تاج الملوك ابن أيوب :**

سلب الفؤاد فلا عـدمتُ السـالبـا ورنـا فكان اللحـظ سهماً صـائبـا
قمر مشـارقـه الجيـوب فـلا ترى أبـداً لـه إلا القلـوب مغـاربـا
ملـك الفـؤاد بمقلتين وحـاجب أمسى لحسن الصبر عني حـاجبـا
وحكى القضيب شمائـلا عبثت بـه أيـدي النسيم شمائـلاً وجنـائبـا

٤ ـ **وقال أبو نواس :** [٢ / ٢١٨]

جـال مـاء الشبـاب في خـديكا وتـلالا البهـاء في عـارضيكا
ورمى طرفـك المكحّـل بـالسحـ ـر فـؤادي فصـار رهنـاً لـديكا
أنـا مستَهْتَرٌ بحبـك صبّ لستُ أشكـو هـواك إلا إليكا
يـا بـديع الجمـال والحسن والـد لّ حيـاتي وميتتي في يـديكا
بـأبي أنت لـو بليت بـوجـدي لم يهن مـا لقيتُ منـك عليكا
أصبحتْ بـالهـوى سهام المنـايـا قـاصـداتٍ إليّ من عينيكا

٥ ـ **وقال آخر :** [٢ / ٢٢٠]

وأهيفَ مهـزوز القـوام إذا انثنى وهبت لعـذري فيـه ذنب اللوائمِ
بثغرٍ كما يبـدو لـك الصبح بـاسمٍ وشعرٍ كما يبـدو لـك الليـلُ فـاحمِ
مليح الرضا والسخط، تلقـاه عـاتبـاً بـألفـاظ مظلـوم وألحـاظ ظـالمِ

وممـــا شجـــاني أنني يــومَ بينِهم شكوتُ الـذي ألقى إلى غير راحمِ
وحمّلتُ أثقـال الجوَى غير حـامـل وأودعت أسرار الهــــوى غير كاتمِ
وأبرح مـــا لاقيتُــــه أن متلفي بمـا حـلّ بي في حبـه غير عـالمِ
ولو كنتُ مذ بانوا سهرتُ لسـاهر لهـــان ولكني سهرتُ لنـــائمِ

٦ ـ وقال أبو هلال العسكري : [٢ / ٢٢٢]

أقــول لمـــا لاح من خـــدره والليـل يرخي الفضـل من سترِهِ
أبـــدره أحسن من وجهـــه أم وجهـــه أحسن من بـــدرِهِ
قـــد مـــالت الرقـــة في شطره ومـــالت الغلظـــة في شطرِهِ
فـــأزُره غصت بـــأرْدافـــه ووُشحـــه جـــالت على خصرِهِ
أصبحت لا أدري وإن لم يكن في الأرض شيءٌ أنـــــا لم أدرِهِ
أشعره أحسن من قـــــده أم قـــــده أحسن من شعرِهِ
يـــا ليتـــه يعرف حبي لـــه عســـاه يجـزيني على قـــدرِهِ

ومما قيل في المؤنث :

٧ ـ ابن الرومي [٢ / ٢٢٦]

مخففـــة مثقلـــة تراهـــا كأن لم يعـــد نصفيهـــا غـــذاءُ
إذا الإغبــابُ جـــدّد حسن شيء من الأشيــاء جـدّدهــا اللقــاءُ
لهـا ريـق تشف لـه الثنـايـا ويَروى عنـه ـ لا منـه ـ الظماءُ
وأنفـــاس كأنفـــاس الخزامى قبيـل الصبـح بلتهـــا السماءُ
تنفس نشرهـا سَحَراً ، فجــاءت بـــه سحريـــة المسرى رخـــاء

٨ ـ سيف الدين المشد

وبهجتي من لـــو بـــدت للشمس من تحت النقـــابْ

سترت محـــــاسن وجههـــــا   خجـلاً ولاذت بـــالسحـــابْ

٩ ـ أبو نواس

يــــا قمراً أبصرتُ في مــــأتم   ينـــــدب شجـــواً بين أترابِ
يبكي فيــذري الـــدرّ من نرجس   ويلطم الــــورد بعُنّـــــابِ
أبرزه المــــأتم لي كارهـــــاً   برغم دايــــاتٍ وحجـــابِ
لا تبـك ميْتـاً حـل في رمسـه   وابـك قتيـلاً لـك بـالبـابِ

١٠ ـ عمارة اليمني :

طرقتهـا والليـل وحف الجنـاح   ومــا تلبّستْ بثـوب الجنـــاحْ
في ليلـــة بـــات نجـادي بهـــا   ذوائبـا يخفقن فـوق الـوشـاحْ
والحسن قــد ألفّ أشتـــاتــه   غصن تثنى فــــوق ردف رداحْ
نـــام رقيب الصبــح عن ليلتي   وبـــات لي كل مصـون مبـــاحْ
أجمــع من خـــــد ومن مبسم   بحمرة الـوردِ بيــاض الأقـــاحْ
حصلت من ريــق ومن منطــق   على اقتراح ونمير قراحْ
ترنحتْ من نشــوات الصّبــــا   فبتُ مسروراً بنشـوانَ صــاحْ
وفـــاح من نشر الصَّبـــا عنبر   أحرقـــه الفجر بجمر الصبـــاحْ

١١ ـ علي بن عبد الرحمن بن المنجّم [٢ / ٢٢٨]

شبهتُها بـالبـدر فـاستضحكتْ   وقـــابلتْ قـوليَ بـــالنكرِ
وسفّهتْ قــولي وقـــالت متى   سَمُجْتُ حتى صرتُ كالبــــدرِ
البــــدر لا يرنــــو بعين كما   أرنـــــو ولا يبسم عن ثغرِ
ولا يميـط المرط عن نــاهــد   ولا يشـــدّ العِقـــد في نحرِ
من قـاس بـالبـدر صفـاتي فلا   زال أسيرا في يـــدي هجري

١٢ ـ ابن الرومي [٢ / ٢٣٠]

من بنـــات الروم لا يكـــذبنـــا ... لـــونهـــا المشرق عن منصبهـــا
قـــامـــة الغصن إذا مـــا اعتـــدلتْ ... قـــامـــة الغصن إلى منكبِهـــا
تشفـــع الحسن بـــإحســـان لهـــا ... يجلب الأفراح من مجلبِهـــــا
تشرع الألحـــاظ في وجنتهـــا ... فتـــلافي الريّ في مشربِهـــا
وجَنْـــة للغنـــج فيهـــا عقرب ... وبـــلاء الصب من عقربِهـــا
وإذا قـــامت إلى ملعبهـــا ... كمهـــاة الرمـــل في ملعبِهـــا
ســـألتْ أردافهـــا أعطـــافهـــا ... هـــل رأت أوطـــأ من مركبِهـــا

١٣ ـ فخر الدين الوركاني شاعر الخريدة [٢ / ٢٣٢]

أأحبـــابنـــا أمـــا حيـــاتيَ بعـــدكم ... فمـــوتٌ ، وأمـــا مشربي فمُنَغَّصُ
وأسعـــــد شيء فيَّ قلبي لأنـــــه ... لـــديكم وجسمي بـــالبعـــادِ مُخَصَّصُ

١٤ ـ الطُّغَرائي

في القلب من حر الفراق شـــواظُ ... والـــدمـــع قـــد شرقتْ بـــه الألحـــاظُ
ولقـــد حفظتُ عهودكم وغـــدَرتُمُ ... شتـــان غَـــدرٌ في الهـــوى وحِفـــاظُ
لله أي مـــــواقف رقّت لنـــــا ... فيهـــا الـــوســـائـــل والقلـــوب غـــلاظُ

١٥ ـ أحمد بن محمد بن عبد ربه

أتقتلني ظلمـــاً وتجحـــــد في قتلي ... وقد قام من عينيكَ لي شـاهـداعـدلِ
أطلابَ ذحلي ليس لي غير شـــادن ... بعينيه سحر فاطلبوا عنـده ذحلي
أغـــــارَ على قلبي فلمـــــا أتيتُـــــه ... أطـــالبـــه فيـــه ، أغـــارَ على عقلي
بنفسي التي ضنّتْ بردِّ ســـلامهـــا ... ولـــو ســـألتْ قتلي وهبتُ لهـــا قتلي

١٦ ـ **وهذه الأبيات معارِضة لصريع الغواني في قوله** : [٢٣٤/٢]

أديرا علي الكأس لا تشربــا قبلي ... ولا تطلبـا من عنـد قـاتلتي ذحلي
فمـا حـزني إني أمـوت صبـابـة ... ولكن على مَن لا يحـل لهـا قتلي
فديتُ التي صدت وقـالت لِترْبهـا ... دعوه الثريا منـه أقرب من وصلي

١٧ ـ **الطُّغَرائي** [٢ / ٢٣٧]

رويــــدكم لا تسبقــوا بقطيعتي ... صروف الليالي إنّ في الدهر كافيـا
ويـا قلب عـاود مـا ألفتَ من الجوى ... مَعاذَ الهوى أن تصبح اليوم ساليـا
ويا كبـدي ذوبي ويـا مقلتي اسهري ... ويا نفس لا تبقي من الوجـد بـاقيـا
فـلا تَطمَعوا في برء مـابي فـإنـه ... هو الداء قد أعيا الطبيب المداويا

١٨ ـ **العماد الأصفهاني (في طيف الخيال)** [٢ / ٢٣٩]

ظبيٌ طربت لطيفــه المتــأوبِ ... طرب العليــل لرؤيــة المتطبّبِ
لم أدر زورتــه أكانتْ خطفــة ... من بـارق أم لمعــة من كـوكبِ
زار الكرى متهيّبــاً رقبــاءه ... أهــلاً بـــه من زائر متهيّبِ
لمـا رأى وجـدي تـأوَّه رحمـة ... لله من متــــأوِّهِ متــــأوّبِ
وأتى ليقرب من وســـاد متيّم ... لمـــا أحسّ بنــــاره لم يقربِ

١٩ ـ **المجنون** [٢ / ٢٤٠]

وإني لأستغشي ومـا بي نعســة ... لعلَّ لقـاهـا في المنـام يكـونُ
تخبّرني الأحــــلام أني أراكُمُ ... ألا ليت أحـلام المنــام يقينُ

٢٠ ـ **المؤمّل**

أتـاني الكرى ليـلاً بشخص أحبـه ... أضـاءت لـه الآفـاق والليـل مظلمُ

فكلّمني في النـوم غير مغـاضب وعهـدي بـه يقظـانَ لا يتكلمُ

٢١ ـ ابن الرومي (في الوصال) [٢ / ٢٤٢]

ولقـد يـؤلّفنـا اللقـاء بليلـة جُعِلتْ لنـا حتى الصباح نظـامـا
نجزي العيـون جزاءهن عن البكا وعن السهـاد ولا نصيب أثـامـا
فنبيحهن مرادهن ، يردنـه فيا ادّعين ، مـلاحـة ووَسـامـا
ونكافئ الآذان وهي حقيقـة إذ لا تـزال تكابـد اللـوامـا
فنثيبهن من الحـديث مشـوبـة تشفي الغليل وتكشف الأسقـامـا
ونكافئ الأفـواه عن كتمانهـا إذ لا يـزال لهـا الصمات لجـامـا
فنبيحهن مـلاثمـاً ومراشفـاً مـا ضرّهـا ألاّ تكـونَ مُـدامـا
نجزي الثـلاثـة أنصبـاء ثـلاثـة مقسـومـة آنـاؤهـا أقسـامـا

٢٢ ـ بعض الشعراء (في الوصال) [٢ / ٢٤٤]

فَلِمْ لا تُسْبَـلُ العبراتُ مني ولست على اليقين من التـلاقي
فـلا وأبيـكَ مـا أبصرت شيئـاً أمرَّ على النفـوس من الفراقِ

٢٣ ـ يزيد بن معاوية (في الوداع) [٢ / ٢٤٩]

جـاءت بوجـه كأن البـدر بَرْقَعَـهُ حسناً على مثل غصن البانة الثَّمِلِ
إحـدى يـديهـا تعـاطيني معتّقـة كخـدهـا عصفرتْـه حمرة الخجـلِ
ثم استبـدّت وقـالت وهي عـالمـة بمـا تقـول وشمس الكأس لم تفـلِ
لا ترحلنّ ، فما أبقيتَ لي جلـداً ممـا أطيـق بـه تـوديـع مرتحِـلِ
ولا من الصبر مـا ألقى الفراق بـه ولا من الدمع ما أبكي على الطَّللِ

٢٤ ـ البحتري (في التوديع) [٢ / ٢٤٦]

أقـول لـه عنـد تـوديعـه وكلٌّ بعَبْرتـه مبلسُ

لئن قعـدتْ عنـك أجسـامنـا لقـد سـافرتْ معـك الأنفسُ

٢٥ ـ **أبو عبد الله الحامدي [٢ / ٢٥٢]**

مشتاقة طرقت في الليل مشتـاقـا أهلاً بمن لم يخن في العهـد ميثـاقـا
أهلاً بمن ساق لي طيف الأحبة في ليل الـدُّجُنَّـة بل أهـلاً بما سـاقـا
يـا زائراً زار من قُربٍ على بُعـدٍ آنستَ مستوحشاً لاذقتَ مـا ذاقـا
الله يعلم لـو أنْي استطعتُ لقـد فَرَشْتُ ممشـاكَ آمـاقاً وأحـداقـا
يـا ليلُ عرِّجْ على إلْفَيْنِ قـد جَعَلا عقـد السواعـد لـلأعنـاق أطـواقـا

بين النويري والميداني

تعوّد النويري أن ينقل الأمثال السائرة بعد نقل الآيـات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في مطلع معظم الأبواب والأقسام من كتابـه ، وهي توافق موضوع هذه الأقسام والأبواب وموادها . وذلـك استشهـاداً وتمثيلاً وتثبيتـاً وتدعيماً لها ، وبعد ذلك يعمـد إلى نقل أقوال العلمـاء والحكمـاء والفلاسفـة والأمراء والخلفاء أنّى اقتضت الضرورة . وقد بدأ الاستشهاد بـالأمثـال من الجزء الأول من كتابه ، واستمر فيه إلى الجزء الثـالث منـه ، حيث وضع بـابـاً خـاصـاً منفرداً (في الأمثال المشهورة) . وذلك في القسم الثـاني من الفن الثـاني من موسوعتـه . وقـد نقـل الأمثـال المشهـورة عن رسـول الله ﷺ والخلفـاء الراشـدين وجمـاعـة من الصحابة ، لتعقبها أمثـال العرب العـامـة . ومع أنـه أتى ببعض الأمثـال من كتب أخرى وخاصة العقد الفريد لابن عبد ربه . فإنه اعتمد في نقل الأمثـال في البـاب المذكور خاصة ، وفي الأبواب الأخرى السابقة عامة ، على كتاب (مجمع الأمثـال) للميداني ، فقال :

« ومن أمثال العرب ما نقلته من كتاب الأمثال للميداني » [٣ / ٦] .

فَمَنْ هو هذا الميداني الذي استقى النويري معلوماته من كتابه المذكور ؟

الميداني هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النَيْسابوري ... توفي يوم الأربعاء ٢٥ من شهر رمضان سنة ٥١٨ هـ بنَيْسابور ودفن على باب ميدان زياد[١] .

أما كتابه (مجمع الأمثال) فقد وضعه امتثالاً لأمر الشيخ العميد الأجل السيد العالم ضياء الدولة منتخب الملك شمس الحضرة صفي الملوك أبي علي محمد بن أرسلان أدام الله علو كعبه وكبت حاسده وعدوه . فعمد الميداني إلى وضع الكتاب المنشود بعد عودته من سفر قد قام به فقال :

« فعدت إلى وطني ركض المنزع شمرة الغالي ، مشمراً عن ساق جدي في امتثال أمره العالي ، فطالعت من كتب أئمة الأعلام ، ما امتد في تقصيه نَفَس الأيام ، مثل كتاب أبي عبيدة وأبي عُبيد ، والأصمعي وأبي زيد ، وأبي عمرو وأبي فَيْد ، ونظرت فيما جمعه المفضَّل بن محمد والمفضَّل بن سلمة ، حتى لقد تصفحتُ أكثر من خمسين كتاباً ، نخلت ما فيها فصلاً فصلاً وباباً باباً ، مفتشاً عن ضوالّها زوايا البقاع ، مشذّباً عنها أبنَها بصارمي القطّاع ، علماً مني أني أمَتٌّ به الدينار في كف ناقد ، وأجلو منه البدر لطرْف غير راقد ، يزيده بالنظر فيه رونقاً وبهاءً ، ويكسبه بالإقبال عليه سَناً وسناءً ... وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم في أوائلها ، ليسهل طريق الطلب على متناولها ، وذكرت في كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغَلَق ، ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ويُسيغ الشَرَق ... وأفتتح كل باب بما في كتاب أبي عُبَيْد أو غيره ، ثم أعقبه بما على (أفعل) من ذلك الباب ، ثم أمثال المولّدين حتى آتي على الأبواب الثمانية

(١) راجع للتفاصيل عن حياته مقدمة كتاب الميداني (مجمع الأمثال) .

والعشرين على هـذا النسق ... وسميت الكتـاب (مجمع الأمثـال) لاحتـوائـه على عظيم ما ورد منها ، وهو ستة آلاف مثل ونيّف »[١] .

تلـك هي كلمـات وجيزة عن الكتـاب وصـاحبـه على سبيل الاختصـار لكي نأخذ منها فكرة لو كانت وجيزة مقتضبة .

أورد الميـداني في كتـابـه (مجمع الأمثـال) حوالي ستـة آلاف مثل ونيّف ، كما أشـار إلى ذلـك هـو نفسـه . وطريقتـه في نقـل الأمثـال المنتخبـة من الكُتُب المـذكـورة ، هي أنـه يـأتي بـالمثـل ، ثم يسرد سبب إطـلاق هـذا المثـل وقصتـه ، والشخصيـات المتعلقـة بـه وبـالقصـة ، وينقل مختلف الروايـات والأقـاويل التي يتناقلها المؤرخون والأدباء حوله ، ثم يورد أقوال النحاة والمتضلعين في اللغة حول الكلمة إن كان هناك اختلاف في نطقها أو تصريفها أو فصـاحتهـا وكل مـا يتعلق بالنـاحية النحوية والصرفية واللغوية ، ويسهب فيه إسهاباً ملحوظاً .

أما النويري فإنه عادةً ينتخب من الأمثـال ، السـائرةَ أو كثيرةَ الاستعمال في الأدب والكتب المتداولة ، أو الأمثال التي وردت كثيراً في الشعر ، أو الخفيفـة على اللسان الغزيرة المعنى والمراد الدقيقة التوضيح والتعبير . ثم ينقل المعنى الذي يحتمله هـذا المثل ، ولا يهتم بتحقيق الميـداني فيما أورده من الكلام حـول تصريف الكلمـة وصحتها من النـاحيـة اللغويـة والنحويـة ومـا أتى بـه من مختلف الأقوال في هـذا الصدد ، لمختلف مـدارس الفكر ، اللغويـة منهـا والنحويـة والأدبيـة . وإن أخـذ النويري منها شيئاً ، فتلك التي لا منـدوحـة لـه منهـا لفهم المثل وفهم مـدلولـه ، وهو يراعي فيه أيضـاً الاختصـار المرغوب فيـه ، تجنبـاً عن الإطنـاب والتطويل الممل .

---

(١) مجمع الأمثال ١٣/١ ، وراجع لتلخيص الأمثال الواردة في نهـايـة الأرب نقلاً من الميـداني البـاب الثاني من كتابنا .

استهل الميداني كتابه (مجمع الأمثال) بفصل يشتمل على معنى (المثل) وما قيل فيه ، فقال وهو يشرح اشتقاق كلمة المثل :

« قال المبرد : المثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر شُبِّه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه . قال (أي المبرد) : وقولهم : مَثَلَ بين يديه ، إذا انتصب ، معناه أشبهَ الصورةَ المنتصبة ، وفلانٌ أمثلُ من فلان أي أشبه »[1] .
ويستمر الميداني فيه إلى قول كعب بن زهير :

كانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً　　　وما مواعيدها إلا الأباطيلُ

وبعد جملة أخرى قال : « قال ابن السكيت : المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبّهوه بالمثال الذي يُعمَل عليه غيره »[1] .

أما النويري فإنه في القسم الثاني من الفن الثاني (في الأمثال المشهورة) والباب الأول من هذا القسم (في الأمثال) كتب أولاً مقدمة بسيطة بحسب منهجه ابتدأها قائلاً : ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه العزيز في آي كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُربَ مَثَلٌ فاستمعوا له ﴾ [الحج : ٢٢/٧٣] . ثم أتى بحديث للنبي ﷺ : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبي الصراط أبوابٌ مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخيّة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تعوجّوا » ، « فالصراط الإسلام ، والستور حدود الله تعالى ، والأبواب محارم الله ، والداعي القرآن » . وهذه المقدمة مع الآية والحديث منقولة من العقد الفريد ٢/٥٧ إلاّ أن صاحب العِقد ذكر أحاديث كثيرة ، والنويري اكتفى بسرد حديث واحد مع تفسيره من العِقد .

---

(١) مجمع الأمثال ١/١٣ و ١٤

ثم أخذ ينقل من مجمع الأمثال للميداني ، من الجملة : « قال المبرد المثل مأخوذ من المثال ... » إلى القول « وفلان أمثل من فلان » بعد ما حذف قول الميداني : « هذا فصل يشتمل على معنى المثل وما قيل فيه » وكذلك حذف قول الميداني : « بما له من الفضل » بعد « أي أشبه » . كما أن النويري حذف جملة الميداني : « فحقيقة المثل ما جُعِل كالعَلَمِ للتشبيه بحال الأول » إلى شعر كعب بن زهير المذكور سابقاً ، لينقل من الميداني قول ابن السكيت : « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه » ولم ينقل الجملة الواردة بعده . ثم عمد إلى الميداني فنقل منه قول إبراهيم النظّام كاملاً وقول ابن المقفّع كاملاً إلى قوله « وأوسع لشعوب الحديث » وترك بعده من قول الميداني : « قلت : أربعة أحرف سمع فيها فَعَلٌ وفِعْلٌ ... » إلى آخر الفصل[1] .

ثم بدأ النويري بنقل الأمثال فقال : وأول ما نبدأ به من ذلك ما تُمُثِّل به من أقوال سيدنا رسول الله ﷺ . وبدأ النقل من حديث « إياكم وخضراء الدمن » إلى أن ذكر للنبي ﷺ ٤٩ حديثاً اقتبسها أولاً من كتاب زهر الآداب للحصري القيرواني[2] ثم من مجمع الأمثال من مواضع متفرقة .

أما أقوال أبي بكر وعمر وعثمان فإنها كلها مقتبسة من مجمع الأمثال ، إلا قولين اثنين لعمر - رضي الله عنه - وهما : « اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة » و « لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً » [٣ / ٥] وكذلك لم ينقل قولي علي - رضي الله عنه - : « الناس من خوف الذل في الذل » و « إن من السكوت ما هو أبلغ من الجواب » .

ـه ومن الملاحظ أن الميداني استهل بابه فيما أوله همزة بقول النبي ﷺ : « إن

---

(١) مجمع الأمثال ١٤/١

(٢) زهر الآداب ٢٥/١

من البيان لسحراً » ليأتي بعده بالحديث الثاني وهو « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[1] .

أما النويري فإنه أتى بهذا الحديث الثاني كالحديث الخامس في كتابه . وذلك لأنه لم يلتزم أن ينهج نهج الميداني في نقل الأمثال بترتيب الميداني على حروف المعجم . ولذلك نرى أن الميداني ابتدأ حرف الهمزة بحديث غير الذي ابتدأ به النويري بابه في الأمثال . وهو الحديث القائل : « إياكم وخضراء الدمن » ثم وضع حرف الهمزة ، وأخذ ينقل الأمثال التي تبدأ بالهمزة . فأول مثل أتى به هو « إن المُوَصَّيْنَ بنو سهوان » .

قال النويري : « يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أُمِر به . وبنو سهوان بنو آدم عليه السلام حين عُهد إليه فسها ونسي » واكتفى بهذا القول . أما الميداني فإنه أتى بهذا المثل في الصفحة ١٧ من الجزء الأول من كتابه ، وقال وهو يشرح هذا المثل :

« هذا مثل تخبط في تفسيره كثير من الناس والصواب ما أثبتُه بعد أن أحكي ما قالوا . قال بعضهم : إنما يحتاج إلى الوصية من يسهو ويغفل ، فأما أنت فغير محتاج إليها لأنك لا تسهو.. وقال بعضهم : يريد بقوله بنو سهوان جميع الناس لأن كلهم يسهو . والأصوب في معناه أن يقال : إن الذين يُوَصَّون بالشيء يستولي عليهم السهو ، حتى كأنه موكّل بهم ، ويدل على صحة هذا المعنى ما أنشده ابن الأعرابي من قول الراجز :

أنشد من خوارة عِلْيانْ   مضبورة الكاهل كالبنيان

(إلى قوله) إن المُوَصَّيْنَ بنو سهوان

---

(١) مجمع الأمثال ١٥/١

يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أُمِر بـه . والسهوان السهو ، ويجوز أن يكون صفة أي بنو رجلٍ سهوان ، وهو آدم عليه السلام حين عُهد إليه فسها ونسي ، يقال : رجل سهوان وساه ، أي إن الذين يوصون لا بِدْعَ أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام » اهـ .

فقد رأينا أن النويري حذف جميع التفاصيل التي أوردها الميداني في سياق هذا المثل ، واكتفى بنقل ما يتعلق بالمثل وتوضيحه ، دون ذكر التفاصيل غير الضرورية .

قال النويري : وقولهم : « إن السلامة منها تَرْكُ ما فيها » في اللقطة وذم الدنيا ، واكتفى بنقل الشعر الذي أورده الميداني شاهداً على معنى هذا المثل حيث يقول :

والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت أن السلامة منها تَرْكُ ما فيها

وحذف كل الكلام الذي أورده الميداني في سياق هذا المثل .

والمثل الخامس الذي أورده النويري منقولاً من الميداني هو قولهم « إن العصا من العُصيّة » وقد ساق القصة التي أوردها الميداني حول هذا المثل ، إلا أنه حذف أقوال أبي عبيد ونقل من قول المفضل دون أن يذكر اسمه فقال النويري : « يقال : إن أول من قال ذلك الأفعى الجُرهُمي ، ذلك أن نزاراً لما حضرته الوفاة جمع بنيه مضر وإياداً وربيعة وأنماراً » فقسم ميراثه بينهم ، وكان قبة حمراء من أدم وفرساً أدهم وخباء وخادمة شمطاء وبدرة ومجلساً وقال « إن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجُرْهُمي ومنزله بنجران . فتشاجروا في ميراثه فتوجهوا إليه » . فبينما هم مسافرون رأوا أثر كلإٍ قد رُعي . وكانوا أذكياء أصحاب عقل وفطنة . فوصف كلهم البعير الذي رعى هذا الكلأ . فقال مضر : إن البعير الذي رعى هذا الكلأ أعور ، « وقال ربيعة : إنه لأزْوَر . وقال إياد : إنه لأبتر ، وقال

أنمار : إنـه لشرود » فسـاروا قليلاً فـإذا هم برجل يسـألهم عن بعير لـه قـد فقـده ، فيصفه كل واحد منهم للرجل على حسب ما خمّنه بمشـاهـدة الكلأ المرعيّ . فقـال الرجل : « هذه والله صفة بعيري ، فدلّوني عليه . فقالوا والله ما رأيناه . فقـال : هـذا والله الكـذب » فلمـا وصلوا نجران ، اختصمـوا إلى الأفعى في مسـألـة البعير . فقال الأفعى بعد ما سمع حديثهم : « كيف وصفتموه وأنتم لم تروه ؟ فقـال مضر : رأيته قد رعى جانباً وترك جانباً ، فعلمت أنه أعور وقال ربيعـة : رأيت إحـدى يديه ثابتة والثانية فاسدة فعلمت أنه أزور لأنه أفسدها بشدة وطئه . وقال إياد : عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ، ولو كان ذيّـالاً لمصع بـه . وقـال أنمـار : عرفت أنـه شرود لأنـه يرعى في المكان الملتفّ نبتـه ، ثم يجوزه إلى مكان أرقّ منـه » هنـالـك يسألهم الأفعى : من أنتم ؟ فيخبرونه بالغرض الذي جاؤوا من أجله إليـه فقـال : « أتحتـاجون إليَّ وأنتم كما أرى ؟ ثم أنزلهم وذبـح لهم شـاة وأتـاهم بخمر . وجلس لهم الأفعى حيث لا يُرى فقال ربيعة : لم أرَ كاليوم أطيب لحماً لولا أن شـاتـه غـذيت بلبن كلبـة . وقـال مضر : لم أرَ كاليوم أطيب خمراً لولا أن حبلتـه نبتت على قبر . فقال إياد : لم أرَ كاليوم رجلاً أسرى لولا أنه ليس لأبيه الـذي يـدعى لـه . فقـال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنـا من كلامنـا . وكلامُهم بـأُذُنِـهِ » فـدعـا الأفعى قهرمانه ، وسألـه عن أمر الخمرة فقـال : « هي من حُبْلَـة غرستهـا على قبر أبيك » ثم سأل الراعي عن الشاة فقال : « هي عناق أرضعتُها بلبن كلبـة ، وكانت أمها ماتت » ثم أتى أمه وسألها عن أبيه ، فقـالت : إن زوجي الملـك لم يكن يولـد له ، فمكّنت من نفسي ابن عم له كان نازلاً عندنا فولدتك . « فرجع إليهم وقـال : مـا أشبَـهَ القبـة الحمراء من مـال نزار فهو لمضر . فـذهب بـالإبل الحمر والـدنـانير ، فسميت مضر الحمراء . وأمـا صـاحب الفرس الأدهم والخبـاء الأسود ، فلـه كل شيء أسود . فصار لربيعـةَ الخيلُ الـدُهْم ومـا شـاكلهـا . فقيل : ربيعـة الفَرَس . وأمـا الخادم الشمطاء ، فلصاحبها الخيل البلق والماشية . فسميت إيـاد الشمطـاء . وقضى

لأنمار بالدراهم والأرض ، فصدروا من عنده على ذلك . فقال الأفعى : إنّ العصا من العصيّة وإنّ خُشَيْناً من أخشن . فأرسلها مثلاً » [٩/٣] ، إلا أن الميداني ساق هذه القصة مشيراً إلى المفضل في الرواية فقال :

« قال المفضل : أول من قال ذلك الأفعى الجرهمي ... » إلخ . وقال الميداني وهو يذكر الرجل الذي كان قد فقد بعيره : « فساروا قليلاً فإذا هم برجل ينشد جمله فسألهم عن البعير »[1] إلا أنّ النويري قال في معرض إشارته إلى الرجل : « فإذا هم برجل يوضع حمله فسألهم عن البعير » قال الميداني وهو يستمر في سرد القصة : « قال نعم وهذه والله صفة بعيري » إلا أن النويري أورد هذه الجملة دون ذكر « و » فقال : « نعم هذه والله صفة بعيري » ثم ذكر الميداني قول صاحب البعير بعد وصولهم إلى نجران أنه قال : « هؤلاء أخذوا جملي ووصفوا لي صفته » ولكن النويري قال : « هؤلاء أصحاب جملي وصفوا لي صفته » ثم حذف من الميداني جملة عن الأفعى حيث قال الميداني : « وهو حكم العرب » ليستمر في سرد القصة على منوال الميداني ، وهناك أيضاً يحذف النويري جملة أوردها الميداني ، وهي قول الأفعى بعد سماع كلام الفتيان سراً : « ما هؤلاء إلا شياطين » . ثم واصل نقله من الميداني ، من جملة : « ثم دعا قهرمانه » بدلاً من « لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها ... » ثم حذف جملة أخرى « ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها » . قال النويري وهو يواصل القصة : « ثم أتى (أي الأفعى) أمه فقال : اصدقيني مَن أبي ؟ » إلا أن الميداني ساق الكلام على الوجه التالي : « فأمكنت نفسي ابن عم له كان نازلاً عليه » ولكن النويري أضاف بعد هذه الجملة كلمة « فولدتك ، فرجع إليهم فقال : ما أشبه القبة الحمراء ... » الخ ولكن الميداني قال : « فخرج الأفعى إليهم فقص القوم عليه قصتهم وأخبروه بما أوصى به أبوهم . فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر » ولكن النويري حذف هذه الجملة

---

(١) مجمع الأمثال ٢٥/١

كلها واكتفى بالقول : « ما أشبه القبة الحمراء من مال نزار فهو لمضر » . ثم تابع النويري سرد القصة : « وأما الخادم الشمطاء فلصاحبها الخيل البلق والماشية فسميت إياد الشمطاء » وكذلك أضاف كلمة (والأرض) التي لم ترد في الميداني . وختم النويري هذه القصة قائلاً : « فقال الأفعى : إن العصا من العصيّة وإن خُشيناً من أخشن ، فأرسلها مثلاً » إلا أن الميداني أضاف بعد المثل الثاني مثلاً ثالثاً حيث قال : « ومساعدة الخاطل تعد من الباطل ، فأرسلهن مثلا » . ثم أوضح كلمة خشين وأخشن فقال : « وخشين وأخشن جبلان أحدهما أصغر من الآخر » إلى آخر الحديث الذي يستمر إلى ثلاثة أسطر . أما النويري فإنه لم ينقلها لعدم جدواها ، أو لعدم وجود هذه الأسطر في نسخته من كتاب الميداني التي كان يقتبس منها الأمثال .

قال الميداني وهو يواصل ذكر الأمثال في باب الهمزة : « إنك خير من تفاريق العصا »[1] قالته أعرابية لابنها واسمها (غنية) وساق في هذا الصدد قصة فحواها ؛ أن غنية الأعرابية هذه كان لها ابن ضعيف البنية ، دقيق عظام الجسم تشاجر يوماً مع فتى ، فقطع الفتى أنفه . فأخذت غنية دية أنفه فتحسنت حالتها البائسة . ثم تخاصم مع فتى آخر ، فقطع أذنه ، فأخذت الأعرابية الدية لأذنه ، فازدادت حالتها تحسناً . ثم اشتبك ابنها مع فتى ثالث فقطع شفته ، فأخذت الدية فتحسنت حالتها المالية كثيراً ، وصار لها من الديات الإبل والغنم والمتاع الكثير ، فحسن ظنها بابنها ، وقالت أرجوزة تثني عليه :

أحلف بالمروة حقاً والصفا ... إنك خير من تفاريق العصا

ثم أورد الميداني قول أعرابي سئل ما هي « تفاريق العصا » فصار يصفها وصفاً دقيقاً ، وفي أي الأغراض تستعمل ، وما هي أسماؤها بعد أن تقطّع

---

(١) مجمع الأمثال ٥١/١

وتفرّق . وبعد سرد التفاصيل عن تفاريق العصا على لسان الأعرابي ، قال الميداني في محل استعمال هذا المثل : « يضرب فيمن نفعه أعم من نفع غيره » .

أما النويري الذي أتى بهذا المثل في باب الهمزة من كتابه [٣ / ١٠] . فإن الغريب في الأمر أنه لم يذكر قطع أنف ابن الأعرابية على يد الفتى الذي تشاجر معه ، بل اقتصر على ذكر قصة قطع أذنه وشفته فقط ، وذلك بإيجاز شديد . وعند ما نقل الأرجوزة المذكورة على لسان الأعرابية من الميداني أورد كلام الميداني المتعلق بشرح تفاريق العصا على لسان الأعرابي إلى قوله : « وإذا فرق المهار جاءت منه تواد ، وهي الخشبة التي تشد على خلف الناقة » ولم ينقل الكلام الذي استمر فيه الميداني بعد هذه الجملة وهو في أربعة أسطر يذكر الأعرابي فيها ما تصير إليه العصا بعد أن تصبح تواد ، مع العلم أن فيه بعض النفع من الناحية اللغوية وشرح تفاريق العصا . فقد واصل الأعرابي وصفه بقوله : « التي تشد على خلف الناقة إذا صرّت . هذا إذا كانت عصا ، فإذا كانت قناة فكل شق منها قوس بندق ، فإن فرّقت الشقة صارت سهاماً ، فإن فرقت السهام صارت حظاء ، فإن فرقت الحظاء صارت مغازل ، فإن فرّقت المغازل ، شعب به الشعاب أقداحه المصدوعة وقصاعه المشقوقة ، على أنه لا يجد لها أصلح منها وأليق بها »[١] .

والأغرب من هذا وذاك ، أن النويري لم يذكر الغرض الذي يضرب فيه هذا المثل ، وبذا جعل المثل مجرداً من مفهومه ومضروبه ، وعديم الفائدة من ذكره ، مع أنّ الميداني صرح به قائلاً : « يضرب فيمن نفعه أعم من نفع غيره » .

وهكذا ذكر النويري في باب الهمزة من الأمثال ٥٣ مثلاً . إلا أن الميداني ختم باب الهمزة من كتابه بالمثل القائل « آخر البزّ على القَلوص »[٢] ولم يذكره

(١) الميداني ٥١/١

(٢) الميداني ١٠٨/١

النويري في كتابه النهاية . ثم إن الميداني أورد في هذا الباب الأمثال التي على وزن أفعل ، وآخرها : « آنس من الطيف ومن الحمى » ثم ما قاله المولدون من الأمثال نظماً ونثراً ، وآخرها « إيش في الضرطة من هلاك المنجل » . ولكن النويري أهمل كل هذه الأمثال مع العلم أنه أتى بأمثال على هذا الوزن في مختلف الأماكن والمناسبات من الكتاب ، مثل الصفحة ١١٧ من الجزء الثاني من كتابه ، وأولها « أسخى من حاتم » وثانيها « أجود من كعب بن مامة » واستمر في نقل الأمثال التي على هذا الوزن إلى الصفحة ١٢٤ من الكتاب .

لاحظنا مما سبق أن النويري يعمد إلى الاختيار والانتخاب من الأمثال والقصص المضروبة حولها والتفاصيل الأخرى المتعلقة بها .

وكذلك لا يهتم بتحقيق الميداني ـ كما أسلفنا القول حوله ـ فيما يتعلق بمختلف الأقوال حول الكلمات ومعناها ، فإن أخذ منها قولاً أو رأياً ، فإنه يراعي فيه الاختصار والإيجاز الكامل ولنأخذ له مثالاً :

أورد الميداني في باب الهمزة مثلاً يقول : « إن العوان لا تعلّم الخمرة » وذكر حوله مختلف الأقوال للأدباء والنحويين . فقال : « قال الكسائي : لم نسمع في العوان بمصدر ولا فعل : وقال الفراء : يقال عوّنت تعويناً وهي عوان بيّنة التعوين . والخِمرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس ؛ اسم للهيئة والحال ، أي إنها لا تحتاج إلى تعليم الاختمار . يضرب للرجل المجرّب » .

أما النويري فقد أورد المثل وحذف ما جاء حوله من الاختلاف في كلمة العوان وتشريح معنى الاختمار . وذلك لأنه ليس يكتب كتاباً في علم النحو أو اللغة أو المعاني ، وإنما يأتي بما يستفاد به من هذا المثل ، وهو مدلوله ، فاكتفى بنقل مضرب المثل وموقعه . فكتب يقول : « إن العوان لا تعلم الخمرة . يضرب للرجل المجرّب » ولم يزد عليه شيئاً [٣ / ٩]

وفي حرف الباء أتى النويري بعشَرة أمثال من الميداني ، وأولها « بلغ السيل الزبى » [٣ / ١٩] وهو المثل الثامن من سلسلة الأمثال الواردة في الباب الثاني فيما أوله باء ، حيث قال الميداني : « يضرب لمن جاوز الحد » ثم أتى برواية عن المؤرج يرفعها إلى ابن المعتمر ، فحواها أن ثلاثة أنفار قتلهم أسد . فأتي بهم إلى معاذ بن جبل ليفتيهم في هذه الحادثة . فتحير كيف يفتي فيهم . فرجع إلى علي - رضي الله عنه - وقصّ عليه قصة هلاك الثلاثة فأفتى للأول بربع الدية وللثاني بالنصف وللثالث بالدية كلها . فلما سمع النبي ﷺ هذا القضاء قال : « لقد أرشدك الله للحق » ولكن النويري بعد أن فسر كلمة (زبى) لغوياً قال : « يضرب لمن جاوز الحد » بدل « لما جاوز الحد » المذكور في الميداني كما إنه لم يذكر رواية المؤرج إطلاقاً .

والغريب في الأمر أن النويري لم يذكر المثل القائل « بعد اللتيا والتي » الذي أورده الميداني بالترتيب الثاني عشر من حرف الباء ، مع أنه لا يخلو من نفع أدبي ، إذ يحوي ضمن تفسيره تسمية الحية بلفظ التصغير حين يكثر السم بها ، فيأكل جسدها ، ومن ذلك قصرها . وكذلك قصة رجل من جديس تزوج امرأة قصيرة فلاقى منها الشدائد ، فسماها (اللتيا) بالتصغير . ثم تزوج بامرأة طويلة ، فقاسى منها ضعف ما قاسى من القصيرة فطلقها وقال : بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً ، فجرى ذلك على الداهية التي يضرب المثل بها ، لأن العرب تصغّر الشيء العظيم كالدهيم واللهَيم وذلك منهم رمز[١] .

أورد الميداني المثل القائل « أبرماً قَروناً » في باب الباء ، وبعد أن فسّر المثل ، وأشار إلى مضربه وهو « يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين » ساق قصة عمرو بن معديكرب ، وهو يشكو إلى عمر بن الخطاب ، قوماً نزل بهم فلم

---

(١) الميداني ١/١٣٦

ينحروا له ، بل اكتفوا بالثور وهو قطعة من الأقط ، وقطعة من السمن ، وبقية من تمر . مع أن هذا المثل يبدأ بالألف . فالهمزة التي في بداية هذا المثل ليست الهمزة الأصلية ، بل هي الهمزة الاستفهامية . لأن اللغة في برم ليست (أبرم) مع زيادة الألف ، ومع ذلك أخطأ الميداني في ذكره في جملة الباء إلا أن النويري انتبه إلى هذا الخطأ الواضح ، فنقل هذا المثل إلى أمثال حرف الهمزة [٣ / ١٢] ، وذلك هو الصحيح . ومن ذلك تبدو دقة نظر النويري في الأمور اللغوية ، وقدرته على تقويم الأخطاء ، حتى لأديب ولغوي مثل الميداني .

أورد الميداني المثل القائل « أبطش من دوسر » ضمن الأمثال التي على وزن (أفعل)[1] ولكن النويري نقل هذا المثل إلى الهمزة ، دون ذكر التفاصيل التي أوردها الميداني ، المتعلقة بكتائب النعمان بن المنذر ملك العرب ، اللهم إلاّ نقلَ البيت الوارد في الميداني وهو :

ضربتْ دوسر فيهم ضربة أثبتت أوتاد ملك فاستقر

وكان حقيقاً بالنويري أن ينقل هذا المثل ضمن باب أفعل ، لأن (أبطش) اسم تفضيل من (بطش) ، ولكنه لسبب لم نبلغ كنهه آثر أن يذكر هذا المثل ضمن أمثال الهمزة . ولو أراد أن يذكره ضمن الباء لكان قد فعل ، لأنه نقل الأمثال التي على وزن (أفعل) أيضاً في شتى المواضيع والأجزاء من كتابه .

أورد الميداني في باب الباء ١٣٧ مثلاً ، آخرها « بخ بخ ساقٌ بخلخال » ما عدا الأمثال التي على وزن أفعل وأولها « أبلغ من قسّ » وتعداد هذه الأمثال ٣٦٥ مثلاً . أما النويري فإنه اقتصر على ذكر (عشَرة) أمثال فقط في باب الباء .

رأينا فيما سبق أن النويري يُدخل التعديلات ، ويقوم بالإصلاحات بعض

---

(١) الميداني ١٦١/١

الأحيان في النصوص الواردة في الميداني ، مع الاختلاف معه في نقل بعض الأمثال إلى غير الأبواب التي نظمها فيها الميداني . ونجد لهذه الظاهرة أمثلة كثيرة في كتابه .

فمن أمثالها مثل الميداني « زيّن في عين والد ولد » حيث ساق حديثاً وقع لعمر بن عبد العزيز عندما سئل في مبايعة ابنه عبد الملك ، فاعتذر مستنداً إلى هذا المثل[1] . إلا أن النويري ذكر هذا المثل [٣ / ٣٣] بإضافة هاء إلى كلمة (ولد) الواردة في المثل الذي أورده الميداني .

ومن أمثلة الاختلافات البسيطة بين الميداني والنويري ، المثل القائل « ضربه ضرب غرائب الإبل » فإن النويري لم ينقل فيه قول الحجاج الذي نقله الميداني في سياق شرح المثل[2] . وكذلك المثل الوارد في الميداني « ضلّ دريص نفقه » ؛ ففي شرح المثل اختلاف بسيط بين المؤلفين . وكذلك المثل القائل « طويتُه على بلاله وعلى بُللته » ؛ فبين الكتابين اختلاف بسيط ؛ فلم يذكر النويري قصة الأعرابي الذي قدم على نصر بن سيار فقال : أتيتك من شقة بعيدة .

« عند الصباح يحمد القوم السرى » مثل ساق حوله الميداني قصة مسير خالد بن الوليد في المفازة عندما كلفه ذلك أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فساروا خمسة أيام ثم رأوا ماء قد اهتدى إليه رافع ، ثم أنشد خالد شعراً إلا أن النويري لم يذكر هذه القصة .

كانت تلك إشارات خاطفة عن الاختلافات البسيطة بين الميداني والنويري أثناء نقل الأمثال . والآن ندرس طريقة الاختصار والحذف عند النويري

---

(١) الميداني ٢٨١/١

(٢) نهاية ٢٨/٣ والميداني ٣٦٧/١

للقصص والروايات التي يوردها الميداني تفسيراً أو توضيحاً للأمثال المنقولة .

طريقة حذف القصص والروايات واختصارها

سردنا فيما سبق كيف كان النويري يهمل التفاصيل التي أوردها الميداني في الشرح اللغوي للعوان في المثل « إن العوان لا تعلّم الخمرة » . ونسوق الآن مثالاً آخر لمثل هذا النهج ، وهذا المثل هو « بخ بخ ساقٌ بخلخال »[(١)] . قال الميداني وهو يوضح معنى كلمة بخ : « بخ : كلمة يقولها المتعجب من حسن الشيء وكماله الواقع موقع الرضا ، كأنه قال : ما أحسن ما أراه ، وهو ساق محلاة بخلخال . ويجوز أن يريد بالباء معنى (مع) فيكون التعجب من حسنهما . يضرب في التهكم والهزء من شيء لا موضع للتهكم فيه » ثم أورد الحكاية التي من أجلها قيل هذا المثل .

ولكن النويري حذف الكلام الذي أورده الميداني حول معنى كلمة (بخ) وتفسيره للحرف (ب) في معنى (مع) والكلام الذي يليه . ونقل المثل مقتصراً على القول : « كلمة يقولها المتعجب من حسن الشيء وكماله » ثم أورد القصة التي قيل فيها هذا المثل باختصار .

فمن الملاحظ أن النويري لا يهتم أحياناً بالقصص التي يوردها الميداني حول الأمثال . والسبب فيه أن النويري يقصد بنقل هذه الأمثال إبراز معالم الأدب وخفاياه ، والأمثال إحدى دعائمه . ولذلك نراه يقتصر من القصة أو شرح الكلمة على القدر الذي يرى فيه أن المثل أصبح واضحاً لا يصعب فهمه . فإن رأى أن المثل غامض لا يمكن فهمه دون إيراد القصة المشهورة حوله ، لم يرَ بأساً في سرد القصة تاركاً الحشو والزوائد ، مقتصراً على لبها وخلاصتها . ومثال ذلك المثل السابق ؛ فإن الميداني بعد تفسير الكلمات الغامضة وتوضيحها ، أورد السبب الذي

---

(١) نهاية ٢٠/٣ والميداني ١٥١/١

قيل من أجله هذا المثل ، فقال : « وأول من قال ذلك الورثة بنت ثعلبة ، امرأة ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وذلك أن رقاش بنت عمرو بن عثمان من بني ثعلبة ، طلقها زوجها كعب بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، فتزوجها ذهل بن شيبان زوج الورثة ودخل بها ، وكانت الورثة لا تترك له امرأة إلا ضربتها وأجلتها . فخرجت رقاش يوماً وعليها خلخالان ، فقالت الورثة : بخ بخ ساق بخلخال ، فذهبت مثلاً .فقالت رقاش : أجل ساق بخلخال لا كخالك المختال ، فوثبت عليها الورثة لتضربها ، فضبطتها رقاش وضربتها وغلبتها ، حتى حجزت عنها ، فقالت الورثة :

فيا ويح نفسي اليوم أدركني الكبر أأبكي على نفسي العشية أم أذر ؟ »

هذه هي القصة بشيء من الاختصار ، أوردها الميداني بإسهاب وتفصيل حول المثل[1] .

أما النويري فإنه أخذ من هذه القصة لبها ، وطرح الباقي جانباً لعدم نفعها وتجنباً للانغماس في التطويل الممل ، فاكتفى بالقول : « وأول من قال ذلك الورثة بنت ثعلبة وذلك أن ذهل بن شيبان كان زوج الورثة وكانت لا تترك له امرأة إلا ضربتها . فتزوج رقاش بنت عمرو بن عثمان من بني ثعلبة ، فخرجت رقاش يوماً وعليها خلخالان ، فقالت الورثة ذلك ، فذهبت مثلاً » [٣ / ٢٠] وإلى هنا اكتفى النويري ولم يورد جميع التفاصيل التي أسهب فيها الميداني في كتابه .

وهاك مثالاً آخر ، حين اختصر النويري قصة المثل المضروب اختصاراً كبيراً ، بل حذف قصة أخرى كاملة حكيت بصدد هذا المثل . وذلك عند ذكره المثل القائل « رب ساع لقاعد وآكل غير حامد » .

---

(١) الميداني ٩١/١

أما الميداني فقد أورد هذا المثل على الوجه الآتي : رب ساع لقاعد ، ثم أضاف إليه الجزء الثاني من المثل بقوله « ويروى معه : وآكل غير حامد » وهكذا أكمل جزئي المثل . وساق قصتين مختلفتين توضيحاً لهذا المثل ؛ قال في القصة الأولى : « يقال إن أول من قاله النابغة الذبياني » ثم ذكر أن النابغة الذبياني وفد على النعمان بن المنذر مع جماعة من العرب فيهم عبسي اسمه شقيق ، فمات هذا العبسي . فلما حبا النعمان أعضاء الوفد بعث بحباء العبسي إلى أهله . فلما بلغ هذا الخبر النابغة قال : « رب ساع لقاعد » وأنشد للنعمان :

أبقيت للعبسي فضلاً ونعمةً ومحمدةً من باقيات المحامد
حباء شقيق فوق أعظُم قبره وما كان يُحبى قبله قبر وافد
أتى أهله منه حباء ونعمة ورب امرئ يسعى لآخر قاعد

تلك هي القصة الأولى حول هذا المثل .

أما القصة الثانية فيقول فيها : « ويروى : اسلمي أم خالد رب ساع لقاعد . قالوا إن أول من قال ذلك معاوية بن أبي سفيان » . ثم أورد قصة طريفة فحواها : أن معاوية لما أكمل البيعة ليزيد سأله هل بقيت له أمنية ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، غير أني أريد أن أتزوج من أم خالد زوجة عبد الله بن عامر بن كريز ، فهي منيتي في الدنيا . فاستقدم معاوية عبد الله هذا وأكرمه ثم طلب منه أن يطلق زوجته أم خالد ، ففعل . ثم أرسل أبا هريرة إليها ليخطبها ليزيد . فلما بلغ أبو هريرة المدينة لقيه كل من الحسن والحسين ابني علي وعبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مطيع ، فبعد أن عرفوا سبب مقدمه قال كل منهم أن اذكرني عندها . فلما زارها وعرض عليها خطبة يزيد وذكرهم لها ، قالت أشر عليّ واختر لي منهم وألحت عليه . فقال : أما أنا فاخترت لك سيد شباب أهل الجنة . فقالت : قد رضيت بالحسن بن علي . فزوجها منه . وعاد إلى معاوية وكان الخبر قد بلغه فعلاً . فلما سأله معاوية لماذا عمل كل هذا ؟

قال : إنها استشارتني والمستشار مؤتمن . فقال معاوية عند ذلك : « اِسلمي أم خالد رب ساع لقاعد وآكل غير حامد » فذهبت مثلاً[1] .

هذه هي القصة الثانية باختصار ، رواها الميداني بإسنادها إلى هذا المثل بتفصيل . إلا أن النويري لم يذكر هذه القصة مطلقاً . ولعله شعر أن القصة تمسّ كرامة أحد أصحاب النبي ﷺ وكاتب وحيه ، وهو أرفع من أن يستخدم نفوذه وحيلته في جلب طلاق لا يبيحه الشرع والأخلاق معاً . ثم إن شخصية أبا هريرة ومنزلته ومكانته من الورع والتقوى وصحبته للنبي ﷺ وتفقهه في الدين لا يبيح له أن يقوم بمثل هذا العمل في مثل هذه الظروف . ولذلك ـ كما يبدو لي ـ حذفها النويري وعدها من نسج الخيال . ومهما يكن من شيء فإن النويري رأى أن غرضه يستوفى بالقصة الأولى ، وفي سرد الثانية تطويل بلا فائدة . ثم إن سردها قد يكون بمثابة فضيحة لصحابي كبير ، فآثر حذف القصة الثانية وذكر القصة الأولى واكتفى بها . وكل ذلك باختصار شديد وبقدر يتضح منه مدلول المثل فقال : « أول من قاله النابغة الذبياني ؛ وكان سبب ذلك أن وفداً وفد إلى النعمان وفيهم رجل من بني عبس يقال له شقيق ، فمات عنده . فلما حبا النعمان الوفود بعث بحبائه إلى أهله فقال النابغة في ذلك :

أتى أهله منه حباء ونعمة ورب امرئ يسعى لآخر قاعد »[٣٢/٣]

وهنا ينهي القصة . فنلاحظ أنه لم يكتف باختصار القصة فحسب ، بل اقتصر على شعر واحد هو الذي فيه المثل المضروب .

---

(١) أورد النويري هذه القصة بتفصيلها في الجزء السادس من النهاية ص ١٨٣ نقلاً من كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة ، وفيها وفيما أورده الميداني اختلاف كبير . فبينما ذكر الميداني أن أبا هريرة كان هو وحده الذي ذهب إلى أم خالد يذكر ابن قتيبة أن أبا الدرداء أيضاً كان معه . ثم إن ابن قتيبة ذكر أن الحسن وحده طلب منه الوساطة له إليها وذكر الميداني أسماء ستة أشخاص .

قد يحذف القصة كلها

رأينا فيما سبق أن النويري عند نقله من الميداني يختصر القصة ويقتبس منها الشطر الذي يتعلق بالموضوع الذي يتناوله فقط . وهنالك أمثلة يحذف النويري فيها القصة أو الحديث كله ، ويكتفي بذكر موقع استعمال المثل ومعناه فقط . وذلك عند نقله المثل « عند جهينة الخبر اليقين » .

فبعد أن أورد الميداني هذا المثل ، نقل قصة طريفة رواية عن هشام بن الكلبي ، يذكر فيها أن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب ، ورجلاً من قبيلة جهينة يسمى الأخنس بن كعب خرجا يريدان قطع الطريق فسلبا رجلاً لقياه في الطريق . فقال الرجل : إن تركتماني وشأني دللتكما على رجل تحت شجرة معه مغنم كثير ، فخليا سبيله ، وأتيا الرجل وهو من لخم ، عند شجرة يستظل بها وأمامه طعامه وشرابه ، فحياهما وأشركهما طعامه ، فأكلا وشربا . ثم إن الأخنس ذهب لقضاء بعض حاجاته . فلما عاد رأى حصيناً قد قتل اللخمي واستولى على ماله . فجلسا يشربان ، وكل منهما يخفي في نفسه ريبة لصاحبه . وبعد قليل قال الحصين للأخنس : هل تعرف زجر الطير ؟ فقال الأخنس : ماذا ترى ؟ قال : أرى عقاباً كاسراً . وأشار إليه ومد عنقه إلى الجهة التي زعم أن العقاب فيها ، فاغتنم الأخنس هذه الفرصة وضرب عنقه بغتة ، ثم انطلق عائداً إلى بيته ، فإذا بامرأة حصين تفتقده ، فقال لها : إنه قتله . ولكنها لم تصدقه وقالت : كذبت ما مثلك يقتل مثله ، أمَا لو لم يكن الحي خلواً ما تكلمت بهذا . فمضى الأخنس وأتى قبيلته وصالحها وكان غاضباً منهم . ثم عاد إلى امرأة حصين وقبيلتها وأنشد حيث تسمع القبيلة :

وكم من ضيغم ورد هموس   أبي شبلين مسكنه العرين

إلى أن قال :

تسائل عن حصين كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين

قال : فسألوا جهينة فأخبرهم خبر القتيل . وقال بعضهم هو (حفينة) بالحاء المهملة . وقال الأصمعي وابن الأعرابي : هو (جفينة) بالفاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول وفيه يقول الشاعر :

تسائل عن أبيها كل ركب ... وعند جفينة الخبر اليقين

هذه هي القصة ومختلف الأقوال ، أوردها الميداني حول المثل ، وسردناها باختصار . إلا أن النويري لم يذكر من هذه التفاصيل شيئاً . بل اكتفى بإيراد معنى المثل وموقع ضربه . فقال « يضرب في معرفة الشيء حقيقة »[(١)] .

وكذلك الحال في المثل « على أهلها تجني براقش » فلقد أورد الميداني حول المثل ثلاث قصص مختلفة . تقول إحداها : إن براقش اسم كلبة . وأخرى إنها امرأة ملك . بينما تفيد القصة الثالثة أنها امرأة لقمان . وجميع هذه القصص يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف . فحذف النويري كل هذه القصص ، واكتفى بنقل القصة التي تفيد أن براقش هذه كلبة وبنباحها قتل القوم قبيلة براقش . والغريب في الأمر أن النويري نسي أن يذكر موقع استعمال هذا المثل ومعناه ، وهو أن المثل يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه[(٢)] .

من هذه النماذج التي سقتها لاختصار النويري للتفسيرات اللغوية والقصص والروايات المروية يتجلى أنه كان يتحاشى الإتيان بالرطب واليابس في كتابه ، وبالروايات والقصص التي لا يتأكد من صحتها ، أو التي تأتي في عيار النحل ، أو

---

(١) الميداني ٦٢٣/١ والنهاية ٣٩/٣

(٢) نهاية ٤٠/٣ والميداني ٤٠٣/١

في موضع الشك والشبهة ، لكي لا يلقي نفسه في إطناب مملّ من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكي يتمثل بمبدأ التمسك بالأهم من المهم . وثالثاً لكي لا يجعل من نفسه موضعاً للنقد بجمع كل ما وصلت إليه يداه ، دون إعمال الفكر والروية ، واختبار النبذ على محك علمي ، من شأنه أن يميز الصدق من الكذب ، والغش والوضع من الصحة والنص . ثم ليأتي بالقصص والمنقولات التي لها علاقة بالأدب مباشرة ولا تشوبها شبهة وشك(١) .

اتضح مما أسلفنا من القول ، أن النويري عند نقل الأمثال من الميداني لا يتبعه كمقلد أعمى أو ناقل خاتل ، بل يعمد إلى الأمثال والقصص والروايات المنسوجة حولها والأقوال المروية عنها ، فيهذبها تارة وينقحها تارة أخرى ، ويختصرها طوراً ويوجزها طوراً آخر ، آخذاً منها ما طاب منها وصفا تاركاً منها ما كدر وكسد . وعلى هذا المنوال أتى على جميع حروف المعجم من الهمزة إلى الياء ، وضمنها الجزء الثالث من كتابه النهاية .

وآخر مثل من أمثال النهاية في باب الياء قولهم « يعود على المرء ما يأتمر » ويروى (يعدو) ومعناه يعود على الرجل ما تأمره به نفسه ، فيأتمر أي يتمثله ظناً منه أنه رشد ، وربما كان هلاكه فيه . ومنه قول امرئ القيس :

أحـــــار بن عمرو كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

وهكذا نقل النويري من كتاب (مجمع الأمثال للميداني) في الجزء الأول من كتابه النهاية ١٢٧ مثلاً ، وفي الجزء الثاني منه ١٨٨ مثلاً ، وفي الجزء الثالث ٢٨٣ مثلاً . وهو الجزء الذي يحوي الأمثال على حروف المعجم .

وإن مجموع الأمثال التي أوردها النويري في كتابه نقلاً من الميداني يبلغ ٥٩٨

---

(١) راجع لتلخيص الأمثال الواردة في النهاية الباب الثاني من هذا الكتاب .

مثلاً ، من نيف وستة آلاف مثلٍ نقلها الميداني في كتابه الشهير مجمع الأمثال .

وهاكم تفاصيل الأمثال التي نقلها النويري مرتبة على حروف المعجم ، والأجزاء التي اشتملت عليها هذه الأمثال ، والأمثال الأخرى غيرها .

عدد أمثال النهاية بترتيب حروف المعجم

الحرف	عدد الأمثال	الحرف	عدد الأمثال
همزة	٥٣	ط	٢
ب	١٠	ظ	٤
ت	١١	ع	١٧
ث	٢	غ	٢
ج	١٥	ف	٤
ح	١٠	ق	١٤
خ	٧	ك	١٧
د	٢	ل	١٤
ذ	٥	م	٢١
ر	٩	ن	٥
ز	٤	هـ	٨
س	٧	و	٥
ش	٨	لا	١١
ص	٤	ي	٨
ض	٤		

مجموع الأمثال ٢٨٣ وقد وردت هذه الأمثال في الجزء الثالث من النهاية .

توزيع الأمثال وتعدادها بحسب ما وردت في مختلف أجزاء النهاية :

أجزاء النهاية	عدد الأمثال
الجزء الأول	١٢٧
الجزء الثاني	١٨٨
الجزء الثالث	٢٨٣

٥٩٨ مجموع الأمثال الواردة في الأجزاء الثلاثة علماً أن أمثال الميداني ٦٧٤٦ . والجدير بالذكر أن النويري لم يذكر أمثالاً في الأجزاء الأخرى من كتابه النهاية .

بين النويري والأصفهاني

اعتمد النويري على كتاب (الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني)[1] في نقل أخبار أحوال بعض الطوائف والطبقات من المجتمع الإسلامي ، الذي ظل في طور النمو والانتعاش زهاء قرن ونصف قرن من الزمن تقريباً ، ليبلغ أوج النضج والكمال إبان الدولة العباسية التي لعبت دوراً حاسماً ليس في تلوين حياة هذا المجتمع وصبغه بصبغة خاصة فقط ، بل تركت أثراً خالداً في العلوم والفنون والآداب ، حتى كادت أن تصبح مرآة صادقة تعكس ميول هذه الطبقات والطوائف وأفكارها وتجسد مظاهرها وأهدافها ومراميها أي تجسيد . وأعني بها طبقة المغنين والمطربين من الذكور والإناث وطائفة أصحاب المجون والنوادر والفكاهات ، ورهط الندمان والسقاة ، التي كانت تتشكل من المتحررين والمتماجنين من الموالي

(١) الأصفهاني هو أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي الأصفهاني . من نسل الأمويين . ولد سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م وتوفي سنة ٣٥٦ هـ/٩٦٧ م . راجع حياته وكتابه في
١ ـ (منهج أبي الفرج الأصفهاني) للدكتور داود سلوم ٢ ـ (دراسة الأغاني) لشفيق جبري بالإضافة إلى الكتب المتداولة في تراجم الأعلام .

والمولدين الأعاجم بصفة رئيسية . هذه الجماعة من أصحاب الدعارة والفسق والفجور التي جعلت الحياة العربية أشبه ما تكون بحياة الفرس والأعاجم من الأمم الأخرى التي دخلت في المجتمع الإسلامي أفواجاً وأسراباً ، فأبدعت في الحياة العربية والمجتمع الإسلامي أشياء لم يكن له عهد بها من قبل .

فاقتبس النويري نتفاً يسيرة من أحوالهم وأوضاعهم وأخبارهم منقولة من أجزاء مختلفة من الأغاني بصفة رئيسية ، رغم أنه استقى بعض معلوماته عنهم أيضاً من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وبعض الكتب لابن قتيبة أيضاً . وقد أشرنا إلى منقولاته من غير الأغاني في مكانه اللائق من رسالتنا هذه .

لقد أورد النويري معلومات عن هذه الطبقات في الأجزاء الآتية من كتابه :

الجزء الرابع :

الباب الثالث من القسم الثالث في :

المجون والنوادر والفكاهات والملح ، من ص ١ إلى ٧٤

الباب الخامس منه في :

الندمان والسقاة من ص ١٢٥ إلى ١٣١

الباب السادس منه في :

الغناء والسماع وما ورد في ذلك من الحظر والإباحة ، ومن سمع الغناء من الصحابة والتابعين والأئمة والعباد والزهاد ، ومن غنى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقواد والأكابر ، وأخبار المغنين ممن نقل الغناء من الفارسية إلى العربية . من ص ١٣٢ إلى ٣٣٣

الجزء الخامس :

الباب السابع :

فيما يحتاج إليه المغني ويضطر إلى معرفته ، وما قيل في الغناء وما وصفت به القيان وما وصفت به آلات الطرب . من ص ٣٧ إلى ١٢٢

ويروق لنا ونحن بصدد دراسة نهج النويري في النقل والاقتباس من كتاب الأغاني ، أن نختار لدراستنا هذه طبقة المغنين والمطربين الذين كان لهم القدح المعلى وعلو الكعب في دنيا الفن ، خلال تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي الزاخر .

وقد ذكر النويري منهم الأسماء التالية :

أ ـ المغنين الذين نقلوا الغناء من الفارسية إلى العربية :

١ ـ سعيد بن مسجح	منقولاً من الأغاني	٨٤/٣
٢ ـ سائب خاثر	منقولاً من الأغاني	١٨٨/٧
٣ ـ طويس	منقولاً من الأغاني	١٧٠/٢ و ٣٨/٤
٤ ـ عبد الله بن سريج	منقولاً من الأغاني	٧/١ و ٢٠/١١
٥ ـ معبد	منقولاً من الأغاني	١٩/١ و ١٦٨/٢[١]
٦ ـ الغريض	منقولاً من الأغاني	١٢٨/٢
٧ ـ محمد بن عائشة	منقولاً من الأغاني	٦٢/٢
٨ ـ ابن محرز	منقولاً من الأغاني	١٥٠/١
٩ ـ حنين	منقولاً من الأغاني	١٢٠/٢

ب ـ أساتذة الفن والمطربين المشهورين :

١ ـ إبراهيم الموصلي	منقولاً من الأغاني	٢/٥
٢ ـ إسحاق بن إبراهيم الموصلي	منقولاً من الأغاني	٥٢/٥

(١) أورد صاحب الأغاني بعض أخباره في الجزء ١٢ ، إلا أن النويري لم ينقل منه شيئاً .

٣ ـ علويه	منقولاً من الأغاني	١٢٠/١٠
٤ ـ فليح بن أبي العوراء	منقولاً من الأغاني	٩٨/٤
٥ ـ محمد الرف	منقولاً من الأغاني	١٩/١٣

جـ ـ القيان وأول من غنى من النساء :

١ ـ جميلة	منقولاً من الأغاني	١٢٤/٧
٢ ـ عزة الميلاء	منقولاً من الأغاني	١٣ /١٦
٣ ـ سلامة القس (الزرقاء)	منقولاً من الأغاني	١٢٧/١٣
٤ ـ حبابة	منقولاً من الأغاني	١٥٤/١٣
٥ ـ شارية جارية إبراهيم بن المهدي	منقولاً من الأغاني	١٠٩/١٤
٦ ـ ذات الخلخال	منقولاً من الأغاني	٧٩/١٥
٧ ـ دنانير البرمكية	منقولاً من الأغاني	١٣٦/١٦
٨ ـ عريب المأمونية	منقولاً من الأغاني	١٧٥/١٨

د ـ أولاد الخلفاء ممن كان يجيد الغناء أو يميل إليه :

١ ـ إبراهيم بن المهدي	منقولاً من الأغاني	٣٥/٩و٤٨
٢ ـ علية بنت المهدي	منقولاً من الأغاني	٨٣/٩
٣ ـ أبو عيسى	منقولاً من الأغاني	٩٥/٩و٩٦
٤ ـ ابن المعتز بالله	منقولاً من الأغاني	١٤٠/٩
٥ ـ عائشة بنت طلحة	منقولاً من الأغاني	٥٤/١٠

ومخافة التطويل نقتصر في هذه الدراسة على دراسة طريقة نقل النويري من (الأغاني) لذكر أربعة منهم فقط . وهم :

عبد الله بن سريج ، ومعبد ، وإبراهيم الموصلي ، وعلية بنت المهدي .

أخبار عبد الله بن سريج

أورد النويري أخبار عبد الله بن سريج المغني المكي الشهير في كتابه النهاية في الجزء الرابع الصفحة ٢٤٣ ، وقد نقلها من الأغاني للأصفهاني الجزء الأول الصفحة ٩٧ .

ذكر الأغاني أن اسمه (عبيد الله) ولكن النويري ذكر اسمه (عبد الله بن سريج) . ثم إن الأغاني أورد أنه مولى لبني ليث ومنزله بمكة أما النويري فإنه لم يذكر هذه التفاصيل . وكذلك حذف النويري الشعر الوارد في خبر (الحسن بن عتبة) وهو في بني عائذ الذين ينتمي إليهم عبد الله . وهذا مطلعه :

فإن تصلح فإنك عائذي وصلح العائذيّ إلى فساد

وفي خبر تعريف سريج حذف جملة « وصلع فكان يلبس جُمّة مركبة ، وكان أكثر ما يرى مقنعاً » . ووردت هذه الجملة في الأغاني بعد جملة « وبلغ خمساً وثمانين سنة » . وبعد أن حذف النويري قول الأغاني : « قال إسحاق وذكر الزبيري أن أم ابن سريج مولاة لآل المطلب يقال لها رائقة ، وقيل بل أمه هند أخت رائقة ، فمن ثم قيل إنه مولى بني المطلب بن حنطب . وكان ابن سريج بعد وفاة عبد الله بن جعفر قد انقطع إلى الحكم بن المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب أحد بني مخزوم وكان من سادة قريش ووجوهها » . وأصل نقله من الأغاني فقال : « وأخذ الغناء من سعيد بن مسجح » ثم حذف قول الأغاني عن المشتهرين في الغناء في مكة والمدينة ومن بين المكيين ابن سريج ، ليستأنف نقله من جملة « وأول من اشتهر بالغناء » أي ابن سريج . ثم حذف قول هشام بن المرية في غناء ابن سريج وحسن صوته لينقل قول معبد فيه وهو « أنا اليوم سريجي » . وبعد أن حذف النويري ما يقرب من صفحتين من الأغاني نقل قصة عطاء بن أبي رباح مع ابن سريج حين غنى له :

إن الـذين غـدوا بلبـك غـادروا   وشـلاً بعينـك لا يـزال معينـا
غيضن من عبراتهن وقلن لي   مـاذا لقيت من الهـوى ولقينـا

أما قصة حج ابن سريج مع عمر بن أبي ربيعة وذهابها بعده إلى كثيب من الأرض في طريق الشام والعراق ، وغناء ابن سريج أغنية سمعها يزيد بن عبد الملك وطلب منه أن يردد الصوت فردده ، فأعجب به فأعطاه خاتمه وكسوته ... الخ . فلقد وردت هذه القصة في الأغاني باختلاف كبير وزاد الأغاني فيها بعض الأشياء التي أهملها النويري . وهي غير التي رواها النويري في كتابه . وقد أتى الأغاني بعد هذه القصة بعدة قصص أخرى منها تحكيم ابن سريج ، ولكن النويري حذف جميع هذه القصص ، ونقل كتابة الوليد بن عبد الملك إلى عامله بمكة ، يأمره بإشخاص ابن سريج ، ليسمع منه قصيدة الأحوص التي منها :

وإني إذا حلت ببيش مقيمـة   وحـل بـوجّ جـالسـاً أو تتهّما

وشعر عدي بن الرقاع العاملي يمدح الوليد :

طـار الكرى وألّم الهم فـاكتنعـا   وحيـل بيني وبين النـوم فـامتنعـا

أورد الأغاني هذه القصة مع الشعر في الجزء الأول ص ١١٨ ونقلها النويري في كتابه الجزء الرابع ص ٢٥٢ إلا أن النويري نقل هذه القصة مع بعض الاختصار فيها وفي الشعر أيضاً . فقد حذف بيتين من شعر الأحوص وردا في الأغاني قبل البيت المذكور آنفاً . أما شعر عدي بن الرقاع فإنه نقله بتمامه كما ورد في الأغاني ، وكذلك شعر عدي بن الرقاع الذي مطلعه :

عرف الـديـار تـوهمـاً فـاعتـادهـا   من بعـد مـا شمـل البلى أبـلادهـا

فقد ذكر الأغاني ١٢ بيتاً . أما ما ورد في النهاية من الأشعار ، فإنها من مصححه ، عن مجلة (الآثار) السنة الثانية ص ٤٤٤ .

وبعد أن نقل النويري هذه النبذ من الأغاني الجزء الأول ، انتقل إلى الجزء الحادي عشر ، لينقل قصة عن نافع بن علقمة (عامل مكة) وتشديده على الغناء ، واجتماع فتية قريش في بطن محسّر ، وغناء ابن سريج لهم ، مع بعض الاختلاف .

أما الشعر :

بلغاني ديار هند وسعدى   وارجعاني فقد هويت الرجوعا

فإنه ليس في الأغاني ، وهذه زيادة من النويري نفسه . أما بقية القصة التي أوردها الأغاني في هذا الصدد ، فقد حذفها النويري ، وبدأ بيان واقعة موت ابن سريج فقال : « وكانت وفاة ابن سريج بالعلة التي أصابته من الجذام » . فهذه القصة نقلها من الأغاني الجزء الأول ، دون أن يشير إلى انتقاله إلى هذا الخبر في هذا الجزء . كما حذف من هذه القصة ما أورده الأغاني من أن إسحاق الموصلي راوي هذا الخبر عن أبيه هو « مولى آل عثمان » فلم يذكرها في كتابه .

أما قصة احتضاره وبكائه لبكاء ابنته ، وتزويجه إياها من سعيد بن مسعود الهذلي ، فإنها ليست في الأغاني ، لا في الجزء الأول منه ولا في الجزء ١١ . بل أخذها من مصدر آخر . وهنا تنتهي أخبار ابن سريج [٤ / ٢٦٢] .

أخبار معبد

أورد الأغاني أخبار معبد في الجزأين ، الأول والثاني عشر . إلا أن النويري نقل أخباره من الجزء الأول فقط ولم يقتبس شيئاً من الجزء ١٢ .

أمّا ما يتعلق بنسبه فإن النويري نقله بتمامه كما هو في الأغـاني . وفي الأغـاني كلام قبل جملة « ومات في أيـام الوليـد » لم ينقلـه النويري ، وكـذلـك لم يـذكر الاختلاف الوارد في الأغاني حول إدراكه دولة بني العباس . أما قصة موتـه وغنـاء سلامة جـاريـة الوليـد فـإنهـا منقولـة من الأغـاني الجزء الأول ص ١٩ ، مع بعض التعديل في تنسيق الرواية . أما الأشعـار التي أوردهـا النويري فهي الأشعـار التي ذكرها الأغاني نفسها . وأورد الأغاني بعـد هـذه الأشعـار قصـة أهملهـا النـويري ، ليواصل نقله من قصة إسحاق بن إبراهيم الموصلي . وبعد أن حذف عدة صفحـات من الأغاني ، تناول قصة اشتياق الوليد بن يزيد إلى معبد فقال الأغاني في سيـاق الخبر « ملئت بـالخمر والمـاء » أمـا النويري فيقول : « ملئت مـاء ورد وقـد خلـط بمسـك وزعفران » [٤ / ٢٦٣] ثم سرد القصـة كما وردت في الأغـاني ، مـع حـذف بعض الأشياء وزيادة البعض . ومنها « وقد قيل إنه أعطاه في ذلك المجلس خمسـة عشر ألف دينار » . أمـا قصـة معبـد وسفره إلى أهواز ، مع رجل اشترى جـاريـة تدعى (ظبية) خرّجها معبـد ، وغنـاء بعض جواريـه في السفينـة التي أقلتـه إلى هذه المدينة ، فأخطأت في اللحن ، فلم يتمالك معبد وصرخ بها ... الخ

والبيت الذي غنته الجارية وهو :

بـانت سعـاد وأمسى حبلهـا انصرمـا   واحتلت الغـور فـالأجراع مِن إضما

والأشعار التي غنتها الجارية بعد ذلك ومنها :

بـابنـةِ الأزديّ قلبي كئيب   مستهـام عنـدهـا مـا ينيب

وكذلك الشعر :

خليلي عـوجـا فـابكيـا سـاعـة معي   على الربـع نقضي حـاجـة ونـودّعِ

فإن النويري لم ينقل منها شيئاً ، بل اختصر الحكاية وحذف التفـاصيل وأوردهـا

بإيجاز مع اختلاف بسيط في الكلمات بعض الأحيان . وبها يُنهي أخبار معبد .

أخبار إبراهيم الموصلي

نقل النويري أخباره في الجزء الرابع ص ٣٦٢ ، من كتاب الأغاني الجزء الخامس ص ٢ .

استهل الأصفهاني أخباره بذكر نسبه واسم أبيه (ماهان) وكيف غيّره حتى جعله (ميمون) ثم كيف اشتهر بهذا الاسم فيما بعد . أما النويري فإنه حذف جميع هذه التفاصيل ، وبدأ نقله من الكتاب بذكر اسمه ومولده بحسب ما أورد الأغاني . وبعد أن هذب ما أورده الأغاني حول نسبه وتربيته ، أفاض في سرد ما كتبه الأصفهاني عن شخصيته وفنه وقصصه المختلفة مع مختلف الأمراء وكبار رجال الدولة وفيهم البرامكة . وفي قصته مع المهدي عندما ضربه على شرب النبيذ مع موسى وهارون ، ذكر الأغاني أنه ضربه ثلاث مئة سوط . ولكن النويري يقول : « فضربني ثلاث مئة سوط وستين سوطاً » ولقد كتب الأصفهاني هذه القصة بتفصيل وإسهاب ، إلا أن النويري التزم بما يتعلق بإبراهيم هذا فقط في هذه القصة ، تاركاً جميع ما ورد من حشو وزوائد . وكذلك حذف الأشعار التي غناها إبراهيم ، وهي لأبي العتاهية ومطلعها :

أيا ويح قلبي من نجيّ البلابل ويا ويح ساقي من قروح السلاسل

وقد قبل النويري قصة غضب الرشيد وحذف قصة أوردها الأصفهاني . أما قصة دخول إبراهيم على موسى الهادي وغنائه :

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

فإنه ذكرها بعد حذف حوالي أربع صفحات من الأغاني . ثم إنه أوردها بعد أن هذبها واختصرها على طريقته ، وبها ختم أخباره .

أخبار عليّة بنت المهدي

أورد الأصفهاني أخبارها في الجزء التاسع ص ٨٣ من كتابه ، وأدى حقها من سرد أخبارها بتفصيل وإسهاب في عدة صفحات .

أما النويري فإنه انتقى من هذه الصفحات ما خلاصته أن علية بنت المهدي من أشهر المغنيات وصانعات الأصوات ، حتى قيل « ما اجتمع في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة » وكانت بنت (مكنونة) الجارية الحسناء التي غلبت على المهدي أي غلبة . وكانت علية هذه من أجمل الناس وأظرفهم . تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة . وكان في جبينها سعة ، فاتخذت العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها . فهي أول من أحدث ذلك .

ومن أظرف ما حكي عنها أنها كانت تراسل أحد خدم الرشيد واسمه (طلّ) بالشعر . ولها فيه أشعار رواها كتاب الأغاني . فلما عرفه الرشيد « حلف عليها ألاّ تكلم (طلاً) ولا تسميه باسمه . فضمنت له ذلك . واستمع الرشيد إليها يوماً وهي تقرأ آخر سورة البقرة ، حتى بلغت قوله عز وجل ﴿ فإن لم يصبها وابل ﴾ [البقرة ٢٦٥/٢] فأرادت أن تقول ﴿ فطلّ ﴾ فقالت : فالذي نهى عنه أمير المؤمنين . فدخل الرشيد فقبّل رأسها وقال : قد وهبت لك طلاً ، ولا أمنعك بعدها من شيء تريدينه » [٢١٣/٤]

تلك هي لقطات قصيرة أوردناها لنستدل بها على طريقة النويري في النقل من الأغاني والكتب الأخرى المماثلة ، التي تسهب إسهاباً ملحوظاً في سرد الأخبار ونقل الوقائع . فالنويري لا ينقل من هذه الكتب كل ما ورد فيها من المعلومات ، بل يهذب المعلومات وينقّحها ثم يختصرها وينتقيها وبعد ذلك ينقلها في كتابه بحسب خطته ونهجه . فليس الأمر خبط عشواء ، وإنما أمر تدبر وتروٍّ وتهذيب وتنقيح ، ثم اختصار واختيار وأخيراً ينقلها إلى الكتاب في الجزء المناسب .

الباب الخامس

ديوان النهاية

قديماً قيل « الشعر ديوان العرب » أي هو صورة صادقة لحياتهم اليومية في بواديهم وحواضرهم ، وسجل حافل ، يتضمن وقائع تاريخهم المديد الزاخر ، لمختلف الأدوار والعصور ، ومرآة صافية تعكس مشاعرهم وأحاسيسهم وأفراحهم وأتراحهم ، وأناتهم وعاهاتهم ، في أوضح صورة ممكنة .

وحديثاً نقول « الشعر ديوان النهاية » لأنه يعطي صورة صادقة ، لما يحوي هذا الكتاب من موضوعات ومواد ، متزينة متجملة في حلة شعرية زاهية جذابة رائعة . فيقدم هذا الديوان نماذج رائعة للموضوعات التي تطرّق إليها النويري نثراً ، والعلوم والفنون التي تناولها في سفره الضخم ؛ فأصبح هذا الديوان ـ بحق ـ سجلاً ، يسجل كل ما فاضت به قرائح الشعراء في مختلف العصور والدهور ، من الآراء والنظريات والمشاعر والأحاسيس حول حياتهم المادية والروحية ، وحول مختلف الموضوعات والعلوم والفنون ، وكل ما يتعلق بالإنسان وحياته . وأتى بكل منجزات الشعراء العرب عبر القرون والأجيال .

فلم يترك النويري باباً إلا طرقه ، ابتغاء شعر يناسب كل فن من الفنون الخمسة المختلفة في كتابه . سواء أكان يتعلق بالإنسان وحبه وهواه ، ووصف أعضائه وجوارحه ، وبيان مشاعره وعواطفه ، إلى جانب وصف الأنهار والبحار والحصون والقلاع ، وإبراز أوصاف القيان والجواري المغنيات ، ونعت آلات الطرب والغناء ، ورسم صورة النبات ، وأشكال وهيئات وأحوال الحيوان والوحوش والسباع والبهائم ، البرية منها والبحرية ، حتى أشعار الألغاز

والأحاجي ، وما يتعلق بالجنس وما يتعلق بمخافي القلوب ومكامن الأفئدة من الريب والظنون . وملخص القول أنه أتى بشعر يتعلق بكل ما فوق ظهر الأرض وتحت أديم السماء .

فنراه قد أودع كتابه هذا أجمل الأشعار وأعذبها ، مما فاضت به قرائح الشعراء خلال العصور الزاخرة من تاريخ الأدب العربي ، من العصر الجاهلي إلى القرن السابع الهجري ، أي نتاج ثمانية قرون متتابعات حول الموضوعات المشار إليها سابقاً . كل ذلك بطريقة حسنة ونهج مقبول محمود . فأتى بأمتع النماذج : لجودة الألفاظ ورونقها ، وحسن السبك وطلاوته ، وغزارة المعاني وعمقها ، ودقة البيان وحلاوته ، ورصانة التركيب وأحكامه ، وروعة الوصف وإعجازه . من هذا الشعر الجزل الجيد المثالي ، الذي تتلذذ به الطبائع وتطرب له القلوب ، وتهتز له المشاعر وتترنح له العواطف . وهو يدل على ما أوتي النويري من حظٍ وافرٍ ، في حسن الاختيار ودقة الانتخاب ، وفي التمييز بين الغث السمين من الكلام . كما يلمح إلى معرفته الواسعة بدواوين الشعراء والكتب ، واستخلاص الدرر الغرر من هذا البحر الزاخر من الشعر العربي ، ثم تركيبها في مواقعها فتنتظم في سلك تتلألأ به حسناً وجمالاً .

فعل النويري كل ذلك أولاً لكي يجمع هذه الأشعار بحسب الموضوعات في كتابه ، وليسهل للباحث العثور عليها وقت الحاجة والرجوع إليها أنى اقتضت الضرورة ، ثم لكي لا يمل قارئ كتابه وهو يمر بأدق الفنون أو أصعب الموضوعات ، بل ينسى القارئ كل ما كابده من جهد وتعب أثناء قراءته لمثل هذه الفنون الدقيقة العسيرة الفهم والإدراك ، عندما يبلغ به المطاف هذا الجزء من الكتاب الذي ضمّنه النويري الأشعار المناسبة لهذا الفن . فيجد فيه متعة ولذة قلما تضاهيها متعة ولذة . كأنه وصل أرضاً ناعمة سهلة نضرة بعد طول سفر ومشقة قضاها في أرض وعرة المسالك قفرة .

منهج النويري في نقل الأشعار

أما منهج النويري في نقل الأشعار فهو أنه يأتي بباب أو فصل من كتابه ، فينقل فيه ما طاب له أن ينقله ، حول الموضوع أو المادة التي يبحث فيها هذا الباب أو الفصل لكبار العلماء الناثرين . وعندما ينتهي من نقل ما ورد فيه نثراً ، يعمد إلى دواوين الشعراء والكتب الأدبية الأخرى ، فيلتقط منها الأشعار التي تطابق ما أورده نثراً في الباب أو الفصل المنشود ، فيثبتها في محلها اللائق ، بكل دقة وحسن اختيار . وبذا يزيد من لذة القراءة والمطالعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى يضفي على كتابه (النهاية) صبغة أدبية تميزه من سائر الكتب الأدبية ، إلى جانب جعله مرجعاً زاخراً للأشعار حول الموضوعات التي يتضمنها كتابه .

وطريقته في نقل الأشعار أنه يحاول جهده أن يبدأ بنقلها من الجاهليين فالإسلاميين إلى المولدين والمحدثين . وقد يختلف هذا الترتيب في بعض أجزاء الكتاب ، لعدم تمكنه من الاستمرار على هذه الطريقة ؛ إما لضآلة الأشعار عند القدماء في فن معين أو موضوع خاص ، وإما لأنها ليست من الجودة بمكان عال ليثبتها النويري في كتابه أو يستدل بها عند الحاجة . فنجده مثلاً ، عند الاستشهاد لمعانٍ وموضوعاتٍ جديدة ، يلجأ إلى المولدين أو المحدثين ، لأنه لم يجد ضالته عند القدماء من الجاهليين أو الإسلاميين ، كالتشبيهات الرائعة التي فشت في عصر المولدين من الدولة العباسية ، أو وصف الرياحين والبساتين ، والقصور والقلاع ، والبرك والأسفار البحرية ، وتصوير مناظر الطبيعة الخلابة ، التي لا أثر لها في الشعر الجاهلي إلاّ قليلاً . ثم إن النويري لا يزيد عدد الأبيات مخافة الإطالة ، فيقتصر عادةً على بيتين أو ثلاثة أبيات تحتوي على بيت القصيد في الموضوع في معظم الأحيان . اللهم إلا في موضوع الغزل والنسيب ، وموضوع التمثّل بالأمثال ، فإنه أتى فيها ، بعض الأوقات ، بالقصيدة الكاملة .

وهنا يطيب لنا أن نقف وقفة قصيرة عند (الباب الثاني من القسم الأول من الفن الثاني)[1] لنرى منهج النويري في نقل الأشعار عياناً ؛ وذلك لأن هذا الباب خير مثال لطريقته . وهذا الباب يبحث « في وصف أعضاء الإنسان وتشبيهها ، وما وصف به طيب الريق والنكهة وحسن الحديث والنغمة ، واعتدال القدود ، ووصف مشي النساء » .

بدأ النويري هذا الباب بوصف شَعر الإنسان ، فنقل من فقه اللغة للثعالبي أسماء الشعور بمختلف أقسامها . فلما فرغ من أسمائها وتفاصيلها وضع فصلاً جمع فيه ما قالته الشعراء في الشعر عامة وفي شعور النساء خاصة . ومن أحسن ما أورد في وصف شَعر الرجال قول ابن الرومي : [١٨/٢]

وفاحم وارد يقبّل ممـ ... شاه إذا اختال مرسلاً غدَرَهْ
أقبل كالليل من مفارقه ... منحدراً لا يذم منحدره
حتى تناهى إلى مواطنه ... يلثم من كل موطئ عفره
كأنه عاشق دنا شغفاً ... حتى قضى من حبيبه وطره

وقول فتح الدين بن عبد الظاهر : [١٨/٢]

حل ثلاثاً يوم حمّامه ... ذوائبا يعبق منها الغوالْ
فقلت ، والقصد ذؤاباته ... يا سهري في ذي الليال الطوالْ

وقول آخر : [١٩/٢]

رأيت على قد الحبيب ذؤابة ... فعيني على تلك الذؤابة تهمع
يقول لي الواشون : مالك باكياً ... فقلت : بعيني شعرة فهي تدمع

ومن أحسن ما انتخبه في وصف شَعر النساء : قول بكر بن النطّاح : [١٩/٢]

---

(١) النهاية ١٦/٢ ـ ١٢٤

بيضـــاء تسحب من قيـــام فرعهـــا   وتغيب فيـــــه فهـــو جثـــل أسحم
فكأنهـــا فيـــه نهـــار ســـاطـــع   وكأنـــــه ليـــل عليهـــــا مظلم

وقول آخر : [١٩/٢]

نشرت عليّ ذوائبـــاً من شَعرهـــا   حـــذر الكـــواشـــح والعـــدوّ المحنـــقِ
فكأنني وكأنهـــــا وكأنـــــه   صبحـــان بـــاتـــا تحت ليـــل مطبـــق

وقول المتنبي : [٢٠/٢]

نشرت ثـــلاث ذوائب من شَعرهـــا   في ليلـــة فـــأرت ليـــالي أربعـــا
واستقبلت قمر السماء بـــوجههـــا   فـــأرتني القمرين في وقت معـــا

وقد ألمّ في ذلك بقول ابن المعتز حين يقول : [٢٠/٢]

سقتني في ليـــل شبيـــه بشعرهـــا   شبيهـــة خـــديهـــا بغير رقيب
فـأمسيت في ليلين بـالشعر والـــدجى   وشمسين من خمر وخـــــد حبيب

وقول ابن دريد الأزدي : [٢١/٢]

غراء لـــو جلت الخـــدود شعـــاعهـــا   للشمس عنـــد طلـــوعهـــا ، لم تشرقِ
غصن على دعص تـــألـــق فـــوقـــه   قمر تـــألـــق تحت ليـــل مطبـــق
لـو قيـل للحسن : احتكم لم يعـــدهـــا   أو قيـل : خـاطب غيرهـا ، لم ينطـق
فكأننـــا من فرعهـــا في مغرب   وكأننـــا من وجههـــا في مشرق

وفي الكتاب أبيات أخرى قيلت في شَعر النساء ، إلا أننا اخترنا منها أحسن ما وجدنا تعبيراً ووصفاً .

فلما فرغ من نقـل الأشعـار في الشَعر ، أتى بفصـل آخر ، بيّن فيـه بمنـاسبـة الشعـور « مـا قيـل في الشيب والخضـاب من المـدح والـذم » وأورد فيـه من النثر

ما كتب في الموضوع ، ليردفه بأشعار تذم الشيب والخضاب ، وأخرى تمدحه وترحب بمقدمه . ثم ذكر نظرة المرأة إلى الشيب وعوارضه ، ثم بدأ بأعضاء الإنسان من نظم ونثر فأجمل ما قيل في وجه المذكر قول الوجيهي : [٣١/٢]

مستقبَل بالذي يهوى وإن كثرت منه الإساءة ، معذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب ، وجيهاً حيثما شفعا

ومن أجمل ما قيل في وجه المؤنث قول ابن سكرة : [٣٤/٢]

في وجه إنسانة كلفتُ بها أربعة ما اجتمعن في أحد
فالخد ورد والصدغ غالية والريق خمر والثغر من بَرَد
لكل جزء من حسنها بِدَع تُودِع قلبي ودائع الكمد

ومن أجمل ما قيل في الحواجب قول الزاهي : [٤١/٢]

وأغيد مجدول القوام جبينه سنا القمر البدري في الغصُن الرطب
تنكّب قوس الحاجبين فسهمه لواحظه المرضى وبرجاسه قلبي

ومما قيل في العين ، بلفظ المذكر ، قول عبد الله بن المعتز : [٤٧/٢]

عليم بما تحت الصدور من الهوى سريع بكرّ اللحظ والقلب جازع
ويجرح أحشائي بعين مريضة كما لانَ مسّ السيف والسيف قاطع

ولقدْ أجاد جرير في وصف عين مريضة إذ قال : [٤٦/٢]

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وكذلك أورد النويري نخبة مختارة من الأشعار في الخصر والمشي واليدين وغير ذلك من الأعضاء ، فأبدع فيها وأجاد الاختيار .

ومن أحسن ما جاء به في وصف الخصر والردف ، قول المتنبي : [٩٨/٢]

وخصر تثبت الأبصـــار فيـــه كأن عليــه من حــدق نطــاقــا

وقول السريّ الرفّاء : [٩٨/٢]

أحــاطت عيــون النــاظرين بخصره فهن لـــه دون النطـــاق نطـــاقُ

وقول أبي نواس : [٩٨/٢]

ليّن القـــد لـــذيـــذ المعتنــق يشبــه البــدر إذا البــدرُ اتّسـق
مثقـــــل الردف إذا ولّى حكى مُــوثَقــاً في القيــد يمشي في زلـق
وإذا أقبـــــل كادت أعين نحــوه تجرح فيــه بــالحــدق

وقول آخر : [٩٨/٢]

أيـــا من نصفـــه غصن يميــل ونصفـــه كَفَــل
صفـــاتـــك في تبـــاينهـــا فمنفصـــل ومتصـــل
فنصفـــك مــوج عــاصفــة ونصفـــك شـــارب ثمـــل

ومن أحسن ما نقل عن الوجه قول ابن المعتز : [٢/ ٢٠]

فلمـــا أن قضت وطراً وهمت على عجــل بـــأخـــذِ للرداء
رأت شخص الرقيب على تـــدانِ فــأسبلت الظــلام على الضيـــاء
وغــاب الصبح منهــا تحت ليــل وظــل المــاء يقطر فــوق مــاء

ومن أحسن ماأورد في وصف العين قول العسكري : [٢ / ٤٨]

فـأرعى تحت حـاشيـة الـديـاجي شقـائـق وجنــة سقيت مــدامــا
إذا كرت لــواحـــظ مقلتيـــه حسبت قلـوبنـا مُطرت سهــامــا

وقول آخر : [٢ / ٤٩]

ومقلـــــة شـــــادن أودت بقلبي كأن السقم لي ولهـــــا لبـــــاس
يســـل اللحـــظُ منهـــا مشرفيّـــاً لقتلي ثم يغمـــــده النعـــــاس

وقد أجاد عبد الله بن المعتز حين قال : [٢ / ٧٧]

نُجْـل العيـون سـواحر اللحظـات هيّجن منـــك ســواكن الحركات
أقبلن يرمين الجمـــــــار تنسّكاً فجعلن قلبـــك مــوضـع الجمرات
فكأنهن غصـــون بـــان نـــاعم يحملن تفــاحـــاً على الـوجنـــات

وقول أبي فراس الحْمداني : [٢ / ٥٠]

وبيض بـــألحـــاظ العيـون كأنمـــا هــززن سيــوفــاً أو سللن خنـــاجرا
تصـدَّيْنَ لي يـومـــاً بمنعرج اللــوى فغـــادرن قلبي بـــالتصبّر غـــادرا
سفرن بـــــدوراً وانتقبن أهلــــــة ومِسْنَ غصـــونـــا والتفتن جـــآذرا
وأطلعن في الأجيـــاد للـــدر أنجما جُعلن لحبـــات القلــوب ضرائرا

وقال قيس بن الخطيم في الجيد : [٢ / ٩٣]

وجيدٍ كجيـد الريم صـافٍ يـزينــه تــوقُّـد يــاقــوت وفصــل زبرجـد
كأن الثريـــا فـوق ثغرة نحرهـــا تــوقُّــدُ في الظلمـــاء أيّ تــوقـــد

ومن أبلغ ماقيل في امتلاء العين من الدمع قول بعض الأعراب [٢/٢٥٥]

فظلت كأني من وراء زجـــاجـــة إلى الـدار من فرط الصبـابــة أنظرُ

وقد أجاد ابن الرومي في وصف رضاب المحبوب حين قال : [٢/٦٦]

كأني لم أبت أسقى رضـــــابـــــاً يمـوت بـــه ويحيـــا المستهـــامُ

تعلّلنيــــهِ واضحـــة الثنـــايـــا كأن لقـــاءهـــا حـــولاً لمـــامُ
تنفَّسُ كالشمـــــــول ضحىً شَمالٌ إذا مـــافُضّ عن فمهـــا الختـــام

وأضاف إليه الهذلي عندما قال : [٦١/٢]

ومـــا صهبـــاء صـــافيـــة شمـول كعين الـديـك منجـاب قـــذاهـــا
تشـج بمـــاء ســـاريـــة عريض على ظمأ بـــه رصف صفـــاهـــا
بـــأطيب نكهـــة من طعم فيهـــا إذا مـــاطـــار عن سنـــة كراهـــا

وعندما تنـاول النويري موضوع العشق والغزل والنسيب نقل أولاً مـاأتى بـه ابن الجوزي في كتـابـه (ذم الهوى) وقـد زاد متعـة هـذا الفصـل مـا جـاء بـه من الأشعار التي اقتطفها من حـدائق الشعراء المختلفين والتي تعـدّ في غـايـة الجودة من حيث رقة النسيب ودقة شرح اللوعة والحرقة(١) .

ومن أحسن الشعر في الرد على العذول قول الأرّجاني : [٢٤١/٢]

وجـدي بلـومـك يـاعــذول يـزيـد فـاستبـق سهمـك فـالرميّ بعيـد
بلـغ الهـوى من سر قلبي مـوقعـــا لا العـــذل يبلغـــه ولا التفنيـــد
وتم بـــــــالشجـــــو المكتّم عبرتي ومن الـــدمـــوع على الغرام شهـــود

هكذا كان دأب النويري في الأشعار المتعلقة بـالعشق والغرام ، وقـد انتخبنـا نماذجها باختصار شديد لكي لا يطول بنا المقام .

فبعد أن تناول نُبَـذاً في الخمر ومعـايبهـا ومحـاسنهـا أعقبهـا بروائع الشعر التي قالتهـا الشعراء في هـذا المعنى بلسـان المـدمنين والملوك الـذين كانوا يُحيون ليـالي حمراء بين غناء وقيان حسان ، حيث تُعقد محـافل اللهو والطرب والشرب ، يجتمع

(١) أوردنا في الصفحات ٢١٤ ـ ٢٢١ من هذا الكتاب ٢٥ مقطوعة غزلية مختارة فارجع إليها .

فيها الندمان ، وتسعى فيها الغلمان الملاح وتدور الراح فتملأ الجو نشوة وطرباً ، وينسون في حُمَيّاها قسوة الحياة ومتاعبها .

قال ديك الجن : [١١٨/٤]

تمتع من الدنيا فإنك فاني وإنك في أيدي الحوادث عاني

فمثل هذا الشخص لا يخاف لومة لائم . ويقول غيره : [١١٩/٤]

عاقر الراح ودع نعت الطلل واعص من لامك فيها وعذل
غادها واسع لها واغرَ بها وإذا قيل تصابى ، قل أجل
إنما دنياك فاعلم ساعة أنت فيها ، وسوى ذاك أمل

ثم أورد النويري نبذاً عن الندامى والقيان من النظم والنثر ، وأجاد الاختيار . وهكذا أتى بروائع الشعر من الأدب العربي في كل قسم من أقسام الكتاب وفنونه المختلفة ، حتى أصبح الكتاب ـ بحق ـ موسوعة شعرية أيضاً .

وكما قلنا فيما سبق، اعتمد النويري في انتخاب أشعاره على دواوين الشعراء إلى جانب بعض الكتب الهامة ، التي سنأتي بسرد لها في نهاية الباب .

وقد لاحظنا عند تصفح الشعر الذي أورده النويري ، أنه عند نقله الأشعار من الجامعين وكتبهم كان يقتصر على ماأورده الجامع ، وأحيلناً يضيف إليه بيتاً أو بيتين . وأحياناً أخرى نراه يترك كل ماأورده المصنف ويأتي بالشعر من انتخابه هو فيلائم الموضوع . وذلك أن النويري أديب يحظى بقسط وافر من حسن الذوق الشعري والأدبي ، وله ملكة حسنة في الاختيار . وحين يرى أن الجامع لم يحسن الاختيار والانتخاب من كلام الشعراء وفق الموضوع أو المناسبة يقوم هو نفسه بالبحث في الدواوين ومجموعات كلام الشعراء ، عن كلام يناسب الموضوع والمناسبة ، ثم ينتخب أحسنه ويثبته في محله . وخير مثال لهذا مانقله من الأشعار

في التمثّل بالأمثال التي اقتبسها من كتاب المنتحل للثعالبي في الباب العاشر (في الأمثال والحكم والآداب) ، حيث لم يقتصر فيه على ماأورده الثعالبي في هذا الصدد ، وإنما اختار بنفسه وأضاف إليه . وكان يأتي أحياناً بنبذة وجيزة عن حياة الشاعر أيضاً إذا دعت الحاجة إليها . ثم إن الثعالبي والجامعين الآخرين لم يلتزموا ترتيب عصور الشعراء وطبقاتهم ، بل خلطوا بينهم . مثلاً : قد نراهم يأتون بكلام لشاعر جاهلي ويعقبونه كلاماً لمولّد ثم مخضرم فإسلامي . أما النويري فقد اهتم اهتماماً بالغاً في ذكر الأشعار بحسب ترتيب طبقات الشعراء ، وذلك في باب التمثيل فقط . أما في بقية الأبواب والأقسام فلم يلتزم ترتيب الطبقات للشعراء . ولكننا إتماماً للفائدة رتبنا أسماء الشعراء الوارد كلامهم في نهاية الأرب ، ابتداء من الجزء الأول إلى الجزء الثاني عشر الذي هو مسك ختام الجزء الأدبي من النهاية خاتمة الفن الرابع ، لأن النويري لم ينقل الأشعار في الفن الخامس الذي يتناول التاريخ ويبدأ من الجزء الثالث عشر .

وبعد هذه الوقفة القصيرة عند المنقول من الشعر في النهاية يتضح لنا أنها تشتمل على نخبة مختارة رائعة من الشعر الجيد الجزل في جميع أصناف المعاني والموضوعات مما يتعذر وجوده في كتاب واحد . وهذه الصبغة تضفي على نهاية الأرب لوناً يجعله ـ بحق ـ موسوعة شعرية كما أسلفنا القول . فهي تحوي كلام الأوائل من شعرائنا المتقدمين والمتأخرين أيضاً في شتى المعاني والموضوعات والمواد ، بترتيب حسن ونظام منسق مقبول . فالباحث يستطيع أن يستخرج من هذا الكتاب أشعر بيت قالته العرب في أي معنى شاء دون جهد أو مشقة بالغة ، كما يستخرج لفظاً أو معنى كلمة في معجم عربي . وتلك مزية ينفرد بها هذا الكتاب بين سائر الموسوعات والكتب الأدبية . وفضلاً عن هذا وذاك فإن هذا الانتخاب الممتع الذي أورده النويري في كتابه يشير إلى أن النويري كانت له يد طولى في انتخاب الأشعار وإثباتها في مكانها اللائق ، وذلك بفضل هذا الذوق

الشعري الرفيع الـذي يتمتـع بـه . وإننـا نراه لم يـأت بشعر مهلهـل ركيـك في أي موضوع ، وإنما جاء بنخبةٍ كلُّها من الطراز الممتاز من جميع النواحي ؛ من ناحيـة جودة الألفـاظ وحسن سبكهـا وروعـة نظمهـا ، ومن نـاحيـة المعنى وأداء الغرض والمرمى الذي أورده لأجله . وهذا خير دليل على سعـة علم النويري بعلم القريض والشعر وأسراره ودقة نظره في خبايا هذا الفن واستخراجه وسعـة علمـه بـالمصـادر الشعرية والمراجع ، وعلى هذا الوَلَهِ الأدبي الذي حفزه أن يتعب نفسه ويبـذل كل جهوده في جمع هذه الأشتات المبعثرة في الكتب والدواوين المختلفـة الكثيرة ، حتى قدمها إلينا في صورة باقة جميلة تزينها أنواع وأشكال من الزهر والورد .

مسرد بحسب الطبقات
للشعراء الذين نقل النويري كلامهم في كتابه

طبقة الجاهلية

١ ـ امرؤ القيس
٢ ـ زهير بن أبي سلمى
٣ ـ النابغة الذبياني
٤ ـ طرفة بن العبد
٥ ـ أوس بن حجر
٦ ـ بشر بن أبي خازم
٧ ـ المتلمس جرير بن عبد المسيح
٨ ـ الأفوه الأودي
٩ ـ تميم بن أبي بن مقبل
١٠ ـ حميد بن ثور
١١ ـ عدي بن زيد
١٢ ـ الأسود بن يعفر
١٣ ـ علقمة بن عبدة
١٤ ـ عمرو بن كلثوم
١٥ ـ الحارث بن حلزة
١٦ ـ المرقش الأصغر
١٧ ـ حاتم الطائي
١٨ ـ النمر بن تولب
١٩ ـ مهلهل بن ربيعة (عدي)
٢٠ ـ طفيل الغنوي
٢١ ـ عروة بن الورد
٢٢ ـ الأعشى (ميمون بن قيس)
٢٣ ـ لقيط بن معبد
٢٤ ـ تأبط شراً
٢٥ ـ المثقب العبدي
٢٦ ـ الممزق العبدي
٢٧ ـ أفنون التغلبي
٢٨ ـ الأضبط بن قريع السعدي
٢٩ ـ سويد بن أبي كاهل

طبقة المخضرمين

١ ـ لبيد بن أبي ربيعة
٢ ـ كعب بن زهير
٣ ـ النابغة الجعدي
٤ ـ أمية بن أبي الصلت الثقفي
٥ ـ حسان بن ثابت الأنصاري
٦ ـ الحطيئة
٧ ـ متمم بن نويرة
٨ ـ أبو ذؤيب الهذلي
٩ ـ الخنساء (تماضر)

١٠ ـ عمرو بن معد يكرب
١١ ـ معن بن أوس
١٢ ـ زيادة بن زيد
١٣ ـ أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي

طبقة المتقدمين في صدر الإسلام

١ ـ القُطامي
٢ ـ الطرماح بن حكيم
٣ ـ الكميت بن زيد الأسدي
٤ ـ المساور بن هند
٥ ـ عدي بن الرقاع
٦ ـ الفرزدق
٧ ـ جرير
٨ ـ الأخطل
٩ ـ الصَّلَتان العبدي
١٠ ـ كثيّر عزة
١١ ـ جميل بن معمر
١٢ ـ عمر بن أبي ربيعة

طبقة المحدَثين

١ ـ إبراهيم بن هرمة
٢ ـ بشار بن برد
٣ ـ أبو العتاهية
٤ ـ سلم بن عمرو الخاسر
٥ ـ صالح بن عبد القدوس
٦ ـ أبو نواس الحسن بن هانئ
٧ ـ أبو عيينة المهلبي
٨ ـ عبد الله بن أبي عتبة المهلبي
٩ ـ العباس بن الأحنف
١٠ ـ مسلم بن الوليد
١١ ـ منصور النمري
١٢ ـ العتابي
١٣ ـ أشجع السلمي
١٤ ـ الجرهمي
١٥ ـ محمود الوراق
١٦ ـ محمود بن حازم الباهلي
١٧ ـ محمد بن أبي زرعة الدمشقي
١٨ ـ أبو الشيص
١٩ ـ علي بن جبلة بن عبد الله الأنباري
٢٠ ـ اللجلاج الحارثي
٢١ ـ عبد الصمد بن المعذل
٢٢ ـ الحمدوني
٢٣ ـ العتبي
٢٤ ـ أبو سعيد المخزومي
٢٥ ـ دعبل بن علي الخزاعي
٢٦ ـ إسحاق بن إبراهيم الموصلي
٢٧ ـ المؤمل بن أمية
٢٨ ـ إبراهيم بن العباس
٢٩ ـ أبو علي البصير
٣٠ ـ سعيد بن حميد
٣١ ـ علي بن الجهم
٣٢ ـ أحمد بن أبي فنن

٣٣ ـ يزيد بن محمد المهلبي
٣٤ ـ عمارة بن عقيل
٣٥ ـ أحمد بن أبي طاهر
٣٦ ـ أبو تمام حبيب بن أوس
٣٧ ـ أبو عبادة البحتري
٣٨ ـ ديك الجن
٣٩ ـ ابن الرومي
٤٠ ـ عبد الله بن المعتز
٤١ ـ عبيد بن عبد الله بن طاهر
٤٢ ـ ابن طبا طبا العلوي
٤٣ ـ منصور الفقيه المقري
٤٤ ـ ابن بسام
٤٥ ـ جحظة واسمه الكامل
أبو الحسن أحمد بن جعفر
٤٦ ـ الصنوبري
٤٧ ـ أبو الفتح كشاجم

طبقة المولّدين

١ ـ أبو فراس الحمْداني
٢ ـ أبو الطيب المتنبي
٣ ـ السريّ بن أحمد بن السريّ الموصلي
٤ ـ أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي
٥ ـ أبو عثمان سعيد بن هاشم
٦ ـ الخباز البلدي
٧ ـ أبو إسحاق الصابي
٨ ـ عبد العزيز بن عمر (ابن نباتة)
٩ ـ ابن لنكك البصري
١٠ ـ أبو الحسن عبد الله بن محمد السلامي
١١ ـ أبو الفرج الببغا
١٢ ـ ابن سكرة الهاشمي
١٣ ـ ابن حجّاج
١٤ ـ أبو الحسن الموسوي النقيب
١٥ ـ أبو طالب المأموني
١٦ ـ ابن العميد
١٧ ـ الصاحب بن عباد
١٨ ـ الحسن بن علي القاضي
١٩ ـ أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي
٢٠ ـ بديع الزمان الهمذاني
٢١ ـ إسماعيل النسائي
٢٢ ـ أبو الفتح علي بن محمد البستي
٢٣ ـ أبو الطيب الطاهري (؟)

مسرد الكتب
التي نقل منها النويري الأشعار في كتاب النهاية

١ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه
٢ ـ زهر الآداب للحصري القيرواني
٣ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
٤ ـ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري
٥ ـ كتاب المنتحل للثعالبي
٦ ـ كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط
٧ ـ ذم الهوى لابن الجوزي
٨ ـ يتيمة الدهر للثعالبي
٩ ـ البيان والتبيين للجاحظ
١٠ ـ كتاب الحيوان للجاحظ
١١ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
١٢ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّري
١٣ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل للحليمي الجرجاني

خاتمة المطاف

مميزات كتاب النهاية وأهميته

ألقينا نظرة ، بشيء من التفصيل ، على كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لصاحبه شهاب الدين أحمد النويري . وتصفحنا ، بشيء من التعمق ، منهج النويري في تأليف موسوعته هذه ، التي لها أكبر الفضل في حفظ قدر ملحوظ من تراثنا العلمي والفني القديم ، مما تركه لنا أسلافنا في القرون السبعة الأولى في التاريخ الإسلامي الحافل .

ولقد بلغ بنا الدرس والبحث إلى أن منهج النويري في كتابه هذا منهج قيّم لا غبار عليه ، يقوم على فكر ورؤية واضحين . وقد تم التأليف بطريقة تمكن الاستفادة منها استفادة تامة ، ما عدا سكوته عن ذكر المراجع ، وهذا ما يجعل الباحث والدارس لمراجعه يكابد مشقة العثور عليها والنبش عنها في مختلف الكتب كما أشرنا سابقاً . وإذا تعدينا هذا فإنه قد قسّم أجزاء الكتاب إلى فنون ، وهذه الفنون إلى أبواب وفصول ، وكل فصل مختص محدد بعلم خاص أو مادة معينة ، ليسهّل على الطالب مهمة البحث المضني ، إن لم يكن مدوناً بهذه الصورة ، ككتب الجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصفهاني ، التي هي أيضاً موسوعة جامعة . ولكن المرء يحار أمام هذه المجموعة غير المرتبة ترتيباً لائقاً ، إذ لا يبلغ مناه إلا بعد طول مشقة وكبير عناء . وذلك لأنها بنيت على الفوضى[1] كما أشرنا سابقاً .

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : القلقشندي وكتابه صبح الأعشى .

ثم يمتاز كتاب النهاية بعدم اختلاط موضوع بموضوع ، كالـذي تجـده مثلاً في كتاب الكامل للمبرد أو لسـان العرب لابن منظور وغيرهمـا . فـإنهم يتكلمون عن موضوع ويسهبون فيه إسهابـاً حتى يخيّل إلى القـارئ أنهم نسوا الموضوع الحقيقي . ثم يرجعون إلى الموضوع الأصلي بقولهم « رجع القول إلى ... » .

أما النويري فإنـه لا يعمـد إلى موضوعٍ ثـانٍ مـا لم ينتـه من الموضوع الأول الذي كان قد تناوله للكلام عليه . ولقـد بلغ النويري في تنزيـه كتـابـه عن هـذا النوع من (الخلط في المبحث) حداً جعله ، أثناء نقله من الكتب ، إذا وجد شيئاً عارضاً للموضوع الأصلي الذي يتناوله ، يحذفه بتمامه ويواصل نقله من الجزء الذي يتصل الكلام فيه بالكلام الحقيقي ، ومن أجل هـذا نراه يحـذف صفحـات كثيرة متتابعة من الكتب المنقول عنهـا أو نجـده ينقل من جزء إلى جزء آخر من الكتب ليواصل موضوعه الأصلي دون عارضٍ أو خلطٍ في المبحث كما أشرنا في باب (منهج النويري) بـالتفصيل . ونجـد هـذه الظـاهرة واضحـة عنـد نقلـه أخبـار (المغنين والمغنيات) من الأغـاني ؛ فـإن كتـاب الأغـاني يسهب في بعض الأوقـات في سرد أخبار لا تتعلق بالشخصيـة التي كان يتكلم عنهـا ، وإنمـا هي عوارض عرضت لـه أثناء الكلام ، وقد أشرنا إلى ذلك في بـاب (بين النويري والميـداني) . وكما رأينـا في الباب المشار إليه كان النويري يحذف مثل هـذه الزوائـد والحشو ويقتصر على الموضوع الذي يتناوله . وعند نقله الأمثال من الميداني وعنـد نقلـه المعلومـات من العقـد الفريـد لابن عبـد ربـه كان يلتزم الموضوع الأصلي ولا يبغي عنـه حِوَلاً . ولذلك جاءت موسوعتـه (النهـايـة) أكمل من جميع الموسوعـات وأفضل حتى من (مسالـك الأبصـار في ممـالـك الأمصـار) لفضل الله العمري ، « التي تعـد صورة دقيقـة من النويري ، وإن كانت موسوعـة هـذا الأخير أشمل وأكمـل وأكثر إلمـامـاً بالمعارف الإنسانية المعروفة في زمانه »[١] .

---

(١) المصدر السابق .

فهل الأمر خبط عشواء ، والعمل عمل حاطب الليل ؟

لا ، بل إننا بعد الدراسة والتعمق في هذا السفر الضخم بلغنا النتيجة التالية :

١ ـ أن النويري كان في كتابه هذا منطقياً موضوعياً إلى درجة قصوى في توزيع كتابه وتبويبه وتقسيمه وجمع المعلومات فيه بحسب خطة معينة ومنهج منسّق . وذلك أنه لاحظ أن الإنسان لما فتح عينيه على هذا الكون بادئ ذي بدء وجد نفسه مستقراً على أديم من أرض ، يظلله من فوقه سقف من سماء . وكانت تلك هي بداية العبد في هذه المعمورة وأول شعور ومساسٍ بشيء يغاير نفسه وبنيته وصورته وشكله فتحيّر ، ومن يدري لعله توحّش من هذا الوضع الشاذ ، فراح يلتفت يميناً وشمالاً ، فرأى هذا الأديم وقد غطته خضرة نضرة تتخللها أشجار باسقات وغابات كثيفة ، وقد اكتنفها جبال راسيات شامخات ، تمتد أمامها وديان وبقاع ومراتع ، تنساب فيها أنهار ، وتتموج فيها بحيرات ، وتترقرق فيها برك وغدران ، فتفيض وتفور لتتخطى أكنافها وتتجاوز شواطئها ، ولتتدفق منسابة في سبيلٍ منعرجٍ ملتوٍ ، إلى أن ترتاح في أحضان هذه البحار الهائلة ، التي يجدها دنيا أخرى مملوءة معمورة مسكونة ، لها أوضاعها وأطوارها ، وتغاير كلياً تلك التي واجهها على الأرض التي أقلته وهذه السماء التي أظلته .

رفع الإنسان بصره أول مرة بعد وجوده في هذا الكون نحو هذا السقف الأزرق الذي يظلله ، فوجده قد ملئ أجراماً وكواكب وسيارات ونجوماً ، وكل في فلك يسبحون . فليل دامس ونهار ساطع ، كل مساء وكل صباح . فتساءل عن كنه هذه الموجودات كلها والأشياء الكثيرة التي لا تماثُل بينها وبينه ولا تشابه ، بل هي تخالفه من جميع الاعتبارات .

هنالك يندفع النويري ليجيب عن سؤاله هذا ويزيل حيرته ، ويبدل

وحشته سكوناً وأنساً وأمناً ، وذلك بشرح حقيقة الكون والأرض والسماء والأجرام السماوية والأنهار والبحار والبرك والغدران والجبال والوديان ، وما بها من طرائق وسبل تهديه إلى مرماه ومضربه في الأرض . وكل ذلك في الفن الأول من كتابه (في الأرض والمعالم السفلية والسماء والآثار العلوية) .

٢ ـ ثم لما نظر الإنسان إلى نفسه لتدبر حقيقة أمره تساءل مرة أخرى عن كنهه وهويته ومن هو ؟ ومن أين أتى ؟ وما مآله ومعاده ؟

وهنا أيضاً يتقدم النويري ليحل مشكلة الإنسان ، ويجيب عن أسئلته هذه ، وذلك ببيان أصل كلمة (الإنسان) التي نعت بها هذا المخلوق المأخوذة من نسيان أبيه آدم ، أو من كلمة (الأنس) التي تعدّ دعامة لإرساء أساس متين للهيكل الاجتماعي الذي يتميز به الإنسان بين المخلوقات الأخرى التي تسكن هذه المعمورة . فالإنسان ، سواء كان اسمه من (النسيان) أو (الأنسيان) أو (الأنس) ، هو من صلب آدم ، وآدم من تراب . ومنه مبدأ الخلق الذي توسع في أنساب ، والأنساب في قبائل وعشائر وأمم وأقوام . يحيا أفرادها حياتهم الخاصة في أقطار وبلدان وعوالم ومجتمعات ، لها عادات معينة وميول خاصة وأذواق معلومة ، وطبائع متفردة . وبفضل ما يمتاز به هؤلاء الأفراد من الجنس البشري ، من عقل وذهن ، وقوة ابتكار وملكة إبداع نَعِموا بها من أول يوم خلقهم ، عمدوا إلى إبداع فنون ، واكتشاف أسرار ، وفتح بلدان ، وتسخير أقوام . وهكذا يحيون حياتهم المكتوبة المقدرة لهم ، ليموتوا ويفنوا ويعودوا إلى هذه الأرض التي أقلتهم يوماً ، ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه ٢٠/٥٥] .

وذلك في الفن الثاني : (في الإنسان وما يتعلق به) .

٣ ـ والإنسان بعد أن عرف كنهه وحقيقته ، وأخذ يمارس الحياة على هذه المعمورة ، احتاج إلى مساعدين له في حمل أثقال هذه الحياة والتخفيف من

متاعبها ومصاعبها ، فكان له مؤازرون ومساندون من أبناء جلدته . ولكن أنى لهم ذلك ؛ فقد كان الأمر فوق طاقاتهم ، وخاصة في أمر الفلاحة والحرث الذي كان قوام حياته في أيامه الخالية ، فرنا ببصره إلى مؤازر ومساعد آخر ، فوجده في غاباته وصحاريه ؛ في حيوانات ووحوش وبهائم ومخلوقات شتى ، في أنواع منها كانت تصلح لهذه المهمة . فما كان منه إلا أن قبض على بعضها وضمّها إليه وربّاها ، واستخدمها مطية له وحمولة . ولكنه لم يكن يعرف طبائعها وأمزجتها وكيفية عيشها وطريق حياتها الخاصة ، ليستخدمها في هدي من علمه بها علماً تاماً ، مبنياً على التجربة والخبرة والممارسة .

فتقدم النويري ليسد هذا الفراغ من علم الإنسان ، فجمع كل شيء عن هذه المخلوقات ، وأودعه الفن الثالث من كتابه وهو (في الحيوان الصامت وما يتعلق به) .

٤ ـ كانت هذه الحيوانات تعيش على العشب الأخضر والنبات ، والإنسان نفسه كان يستعمل هذه النباتات في أغراض شتى من حياته اليومية ، فصار لزاماً عليه أن يعرف عنها أيضاً إلى المدى الذي ينفعه في حياته وفي معالجته لها على هذه الأرض .

فأسعفه النويري أيضاً ، فجمع أشتات المعلومات عن النبات وأنواعه وخواصه ومواضع نبته وكيفية نموه ونشوئه ، ثم كيفية استعماله في مختلف مرافق الحياة ، في صورة الأغذية والأطعمة والأدوية ، وقدمها في الفن الرابع من كتابه بعنوان (في النبات) .

٥ ـ وهكذا أفصح النويري بكل لباقة وحسن بيان عن كل شيء يتعلق بالإنسان وما في متناول يده ، ليحيا هذا الإنسان على أديم هذه الأرض حياته الحافلة الزاخرة ، حياة راضية ، مبتهجاً مسروراً بما أنعم الله عليه من نعم ، وبما

صنعه هو لنفسه من أسباب الراحة والمتعة ، ليخلد ذكره على هذه المعمورة في المنجزات التي تركها على وجهها ، من الآثار والأخبار والقصص والحكايات ، التي أودعها التاريخ والسيرة .

فأتى النويري بذلك كله في الفن الخامس الأخير وهو (في التاريخ) من كتابه (النهاية) .

وهكذا جعل النويري فنون كتابه الخمسة مرتبطة بحياة الإنسان وأعماله وأهدافه وميوله وأهوائه ومآله ومعاده ، ليكون كتابه منطقياً وموضوعياً بمعنى الكلمة ، ومتفرداً بين الكتب الجامعة بصورة عملية . وتلك مزية يتفرد بها كتابه النهاية ، فلا يضاهيه فيها أيٌّ مؤلَّف أو كتاب ولا أيّ عصر ومصر طوال هذه الحقبة المديدة من تاريخنا العلمي والأدبي الحافل .

النهاية على المحك

لم يكن نقل النويري من الكتب من نوع (النقل الذي ليس له عقل) أو (النقل دون عقل) ؛ فقد حاول أثناء نقله العِينات من الكتب ، بعض الأحيان ، تسديد الخطأ الذي وقع فيه بعض المؤلفين . فمثلاً روى الثعالبي الشعر التالي :

وما ينهض البازي بغير جناحه ... ولا يحمل الماشين إلا الحواملُ
إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليماً أو أصابك جاهل

ثم قال : « إنه لعبيد بن الأبرص »[1] إلا أن النويري نسبه لأوس بن حجر . ولقد تصفحنا ديوان عبيد بن الأبرص ، فلم نجد فيه هذا الشعر . وهو في ديوان أوس ص ٩٩

---

(١) المنتحل للثعالبي ١٧١

ثم إن النويري لا ينغمس في المسائل المختلف فيها كمسألة سماع الغناء ، أو مزاولة الأذكار والأدعية وخاصيتها التي يعتقد بها الصوفية ، والمسائل الأخرى المماثلة[١] ، فإنه في هذه المسائل يقتصر على نقل آراء الجانبين دون أن ينحاز إلى هذا الرأي أو ذاك ، فيرجح هذا أو يسفه ذاك ، أو يميل إلى هذه النظرية ويتغاضى عن تلك ، بل يترك القارئ يتصرف فيها ـ بعد معرفة رأي الجانبين في الموضوع ـ كيفما شاء بالطريقة التي يفضلها على غيرها . ومن أوضح أمثلة الاختلافات السياسية بيعة علي لأبي بكر .

وإلى جانب هذه المزايا التي تمتاز بها موسوعته (نهاية الأرب) ، هناك أغلاط لم يسلم النويري منها . ولكنها أغلاط لا يُؤبه لها مقارنةً بعمله هذا الذي أداه . مثلاً ذكر النويري اسم (السموءل بن عاديا) بين الشعراء المحدثين ، والحقيقة أنه من شعراء الجاهلية دون اختلاف[٢] . والغريب في الأمر أن مصححي الكتاب أيضاً لم ينتبهوا إلى هذا الخطأ عند طبع الكتاب .

ثم إن النويري سمّى خصيّ معاوية (رفيق) في قصة تزويج معاوية يزيد ، وقد نقل هذه القصة من (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة ، إلا أن ابن قتيبة ذكر اسمه (رقيق) وذلك هو الصحيح ، كما ورد في جميع النسخ المطبوعة في مختلف المطابع . وكذلك سمّى محبوبة يزيد (زينب بنت إسحاق) ، والواقع أن اسمها الصحيح هو (أرينب بنت إسحاق) . وقد تكلمنا عن ذلك في الباب الثالث من كتابنا بالتفصيل .

كان دأب العصر الذي نشأ فيه النويري التزام السجع في الكتابة ، وقد اتبع النويري هذه الطريقة في كتابه أيضاً ، إلا أنه نزه نفسه عن الانغماس في التزام

---

(١) راجع الباب الثالث من كتابنا للتفصيل في هذه المسائل .

(٢) راجع طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ص ٢٣٥ والكتب الأخرى في الأعلام .

السجع والقافية إلى حد الركاكة ، ومع هذا فإنه وقع في غلطة نحوية بسبب اتباعه السجع والالتزام به فقال :

« .... وقد تقدمني من بالغ في هذا وأطنب ، ووجد المقال فبسط القول وأسهب ، وحاز المعاني فما ترك لسواه مذهب[1] » .

فمقتضى اللغة الفصحى أن يقف على هذا اللفظ بالألف ، فيقول : (مذهبا) كما هي قاعدة الوقف على المنصوب المنوّن ، إلا أن المؤلف لما التزم السجع في هذا الكلام اضطره ذلك إلى أن يقف عليه بالسكون ، وهي لغة ربيعة . فإنهم يقفون على المنوّن بحذف تنوينه وسكون آخره مطلقاً ، أي سواءً أكان مرفوعاً أم منصوباً أم مجروراً[2] .

وهناك خطأ عجيب وقع فيه النويري ولم أدر كيف ؟ وهو استعمال كلمة (السجأ) بدل كلمة (الجسأ) بمعنى « أن يعسر على الإنسان فتح عينيه » ؛ إذ أن كلمة (السجأ) ليست في القواميس وليس لها أي مدلول أو معنى[3] .

ويبدو لي أن هذه الأغلاط وقعت من الناسخ لأننا نستبعد من النويري ، مع غزارة علمه وسعة اطلاعه على الأمور اللغوية والنحوية ، أن يرتكب هذه الأغلاط .

والعيب الوحيد الذي يأخذه الباحث عليه هو أنه لا يذكر المرجع عادة ، وخاصة في العلوم الأدبية واللغوية ، وعدم ذكره يجعل الباحث في حيرة من أمره ، بالإضافة إلى ما يضيع من وقته في البحث والتنقيب عن المصدر ، فكثيراً

---

(١) نهاية ٢٢٥/٩

(٢) شرح الأشموني ١٧١/٤

(٣) راجع لهذه الكلمة (أقرب الموارد) للشرتوني و(تاج العروس) للمرتضى الزبيدي (فصل الجيم من باب الهمزة) .

ما تستغرق نبذةً قصيرة للبحث عن مصدرها ساعاتٍ أو أياماً في بعض الأوقات ، كما حدث لنا عند البحث عن نص أخذه من (الذخيرة لابن بسام) ؛ فقد استغرق البحث عن ذاك النص حوالي ثمانية أيام . ثم إنه عندما يضيف شيئاً إلى ما ينقله من كتاب آخر لا يشير إليه ، مما يوهم الباحث أنه أيضاً من أصل الكتاب ، والواقع أنه من عنده ، كما حصل عندما جعل شروط الإمامة ثمانية شروط بدل سبعة شروط كما أوردها الماوردي .

ومهما يكن من شيء فلا شك أن منهج النويري في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) منهج يضاهي أحسن مناهج عصرنا الحديث ، الذي تقدمت فيه صناعة التأليف أي تقدم . ولمنهجه الواضح المفيد ، ولما يحوي الكتاب من موضوعاتٍ غزيرة المعاني والمطالب ، وعلومٍ وفنون متنوعة مختلفة ، « يعدّ أحد الكتب الجامعة الهامّة ، ذات المواد العامة ، وهو عمدة بين الكتب كذلك ؛ اعتمد عليه كثير من المؤرخين والأدباء ، قديماً وحديثاً »[1] .

---

(١) (عصر سلاطين المماليك) لمحمود رزق سليم ١٢٥/٣

المراجع

أ ـ المراجع المخطوطة

مخطوطات دار الكتب المصرية

١ ـ أصول الأحساب وفصول الأنساب للجواني أسعد بن علي
رقم ١٩ م ، منقول ٢٠١٥ تاريخ
٢ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
رقم ٢٣٤٨ أدب
٣ ـ ذم الهوى لابن الجوزي [ثم طبع ببيروت]
رقم ٢٨٦ أدب تيمور ، في مجلدين
٤ ـ المقتضب من جمهرة النسب لياقوت الحموي
رقم ٧٥٣٥ عمومية ، ١٠٥ م تاريخ

مخطوطات جامعة الدول العربية

١ ـ أمثال العرب لعامر بن عمران الضبي ، نسخ سنة ١٢٩٥ هـ
١٨ ق ، رقم ٣ مجاميع ش أدب
٢ ـ الحب والمحبة لمجهول ، نسخ بخط مغربي سنة ١٠١٥ هـ
رقم ٢٠٩ (٧) ، عن دار الكتب ٩٢٥٢ أدب
٣ ـ حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والأمثال والحكم والنوادر والحكايات لمجهول ، نسخ سنة ١٠١٢ هـ .
١٦٢ ق ، رقم ٢٧٨ (١١٠)
٤ ـ خلع العذار في وصف العذار لمحمد بن الحسن المصري ، نسخ في القرن ١٢ هـ
٣٢ ق ، رقم ف ٤٨ (٨١) ٢٠٢ أدب
٥ ـ لوامع أنوار القلوب في جمع أسرار المحب والمحبوب لعزيزي بن عبد الملك الجيلي سنة ٤٩٤ هـ ، نسخ في القرن ٩ هـ
رقم ف ٤٨٤ (٢٦٦) ٧٢ أدب

٦ ـ المختار من كتاب الحدائق في البلاغة ومنثور الحكم من كلام الفضلاء ونوادر البلغاء
رقم ف ٤٤٣ (٥٩٥) عن دار الكتب ٨٥٠٣ أدب ضمن مجموعة ٢
٧ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وعجائب الأخبار ومحاسن الأشعار وعيون الآثار ج ١
لمحمد بن صالح العصامي ، نسخ حوالي القرن ٩
٢٨٩ ق ، رقم ف ٢٠٤ (١٨٢)

مخطوطات جامعة القاهرة

١ ـ الإمامة لمجهول ولعله إسماعيل بن عباد سنة ٣٨٥ هـ ، نسخ سنة ٦٥٦ هـ
٢ ـ رسالة في علم الخط لابن مقلة
٢٣ ق ، رقم ف ١٠٦٥
٣ ـ اللمعة النورانية للبوني أحمد بن علي بن يوسف
٢٨ ق ، رقم ف ٣١١ (٢٧١) بلدية الإسكندرية ٥٢٠٧ ج
٤ ـ المنهاج للحليمي الجرجاني ، ومنه نسخة في دار الكتب

ب ـ المراجع المطبوعة[1]

١ ـ الآثار لإبراهيم بن محمد الشيباني
٢ ـ أبو الفرج الأصبهاني (قطوف) كرم البستاني
٣ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي
٤ ـ الأحكام السلطانية للماوردي ، مط الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ
٥ ـ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم
٦ ـ إحياء علوم الدين للغزالي
٧ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي
٨ ـ أدب الدين والدنيا للماوردي

---

(١) في آخر الباب الثالث من هذا الكتاب قائمة بأهم الكتب التي لخصها أو اختصرها النويري .

٩ ـ أدب الكتاب للصولي
١٠ ـ الأدب الصغير لابن المقفع
١١ ـ الأدب الكبير لابن المقفع
١٢ ـ الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى
١٣ ـ الأذكار للنووي
١٤ ـ إرشاد الساري للقسطلاني
١٥ ـ أساس البلاغة للزمخشري
١٦ ـ إعجاز القرآن للباقلاني
١٧ ـ الأعلام للزركلي
١٨ ـ الأغاني للأصبهاني ـ بولاق
١٩ ـ أقرب الموارد لسعيد الشرتوني
٢٠ ـ أمالي ابن الشجري
٢١ ـ أمالي القالي
٢٢ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ـ مط النيل ١٩٠٤ م
٢٣ ـ الأمثال للثعالبي (المسمى بالفرائد والقلائد أو العقد النفيس ..)
٢٤ ـ الأنساب للسمعاني
٢٥ ـ الأوائل للعسكري تحقيق محمد السيد الوكيل
٢٦ ـ أيام العرب في الجاهلية لإبراهيم والبجاوي
٢٧ ـ أيام العرب في الإسلام لإبراهيم والبجاوي
٢٨ ـ البخلاء للجاحظ
٢٩ ـ البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ج ١٤
٣٠ ـ بلاغات النساء لطيفور
٣١ ـ البيان والتبيين للجاحظ
٣٢ ـ التاج في أخلاق الملوك للجاحظ
٣٣ ـ تاج العروس للزبيدي الهندي
٣٤ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان

٣٥ ـ تاريخ ابن الأثير (الكامل)
٣٦ ـ تاريخ أبي الفداء
٣٧ ـ تاريخ الأدب العربي للزيات
٣٨ ـ تاريخ الطبري
٣٩ ـ التربيع والتدوير للجاحظ
٤٠ ـ تفسير البيضاوي
٤١ ـ تفسير الطبري
٤٢ ـ تفسير القرطبي
٤٣ ـ التفسير الكبير لفخر الدين ابن الخطيب الرازي
٤٤ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر
٤٥ ـ التوجيه الأدبي لطه حسين وزملائه
٤٦ ـ الجامع الصغير
٤٧ ـ الجديد في الأدب العربي وتاريخه لحنّا فاخوري
٤٨ ـ الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني
٤٩ ـ جمهرة أشعار العرب للقرشي
٥٠ ـ جمهرة الأمثال للعسكري
٥١ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم تحقيق بروفنسال
٥٢ ـ جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت
٥٣ ـ حديث الأربعاء لطه حسين
٥٤ ـ الحركة الفكرية بين العصرين الأيوبي والمملوكي . د. عبد اللطيف حمزة
٥٥ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل لمحمود الحلبي ، مط الوهبية بمصر ١٨٨١ م
٥٦ ـ حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة للسيوطي
٥٧ ـ الحيوان للجاحظ ـ تحقيق هارون ـ البابي الحلبي
٥٨ ـ خزانة الأدب لابن حجة
٥٩ ـ خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)
٦٠ ـ خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال للخزرجي

٦١ ـ دائرة المعارف الإسلامية (بالإنكليزية) ج ٣ ق ٢ ـ وج ٤ ق ١
٦٢ ـ دراسة الأغاني لشفيق جبري ـ مط الجامعة السورية ١٩٥١ م
٦٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة للعسقلاني
٦٤ ـ دلائل الإعجاز للجرجاني
٦٥ ـ ديوان المعاني للعسكري
٦٦ ـ ديوان المتنبي ـ دار صادر
٦٧ ـ رسائل أبي حيان التوحيدي (الحياة ـ السقيفة ـ الكيمياء) تحقيق د. إبراهيم كيلاني ، دمشق ١٩٥١
٦٨ ـ رسائل بديع الزمان الهمذاني
٦٩ ـ رسائل البلغاء لمحمد كرد علي
٧٠ ـ رسائل الجاحظ (كتاب المغنين)
٧١ ـ زهر الآداب للحصري
٧٢ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة
٧٣ ـ سنن الترمذي
٧٤ ـ سيرة ابن هشام
٧٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج ٦ حوادث ٧٠١ ـ ٨٠٠ هـ
٧٦ ـ شرح الأشموني ، مط الأميرية بمصر
٧٧ ـ شرح ديوان أبي تمام للتبريزي
٧٨ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد
٧٩ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة
٨٠ ـ الشفا للقاضي عياض
٨١ ـ صبح الأعشى للقلقشندي
٨٢ ـ صحاح الجوهري
٨٣ ـ صحيح البخاري
٨٤ ـ صحيح مسلم
٨٥ ـ الصناعتين للعسكري

٨٦ ـ الطالع السعيد للأدفوي ، طبع ١٩١٤ م
٨٧ ـ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي
٨٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي
٨٩ ـ طبقات فحول الشعراء للجمحي
٩٠ ـ طوق الحمامة لابن حزم
٩١ ـ ظهر الإسلام لأحمد أمين ج ٤
٩٢ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي
٩٣ ـ عرائس المجالس في قصص القرآن للثعلبي
٩٤ ـ العرب قبل الإسلام لزيدان
٩٥ ـ عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ، مط النموذجية بمصر
٩٦ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني
٩٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ طبعة قديمة
٩٨ ـ العمدة لابن رشيق
٩٩ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة
١٠٠ ـ فتح الباري لابن حجر
١٠١ ـ فجر الإسلام لأحمد أمين
١٠٢ ـ فقه اللغة للثعلبي
١٠٣ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ شوقي ضيف
١٠٤ ـ فهرست ابن النديم
١٠٥ ـ فوات الوفيات لابن شاكر ج ١
١٠٦ ـ الفوائد المجموعة للشوكاني
١٠٧ ـ القاموس المحيط للفيروزابادي
١٠٨ ـ القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، د. عبد اللطيف حمزة ، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٢
١٠٩ ـ قوانين الوزارة للماوردي
١١٠ ـ الكامل للمبرد
١١١ ـ الكشاف للزمخشري

١١٢ ـ كشف الظنون لخليفة ، مط العالم بمصر ١٣١٠ هـ
١١٣ ـ لسان العرب لابن منظور
١١٤ ـ المثل السائر لابن الأثير
١١٥ ـ مجمع الأمثال للميداني
١١٦ ـ المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ
١١٧ ـ محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني
١١٨ ـ محاضرة الأبرار لابن عربي
١١٩ ـ المخصص لابن سيدة
١٢٠ ـ مرآة الجنان لليافعي
١٢١ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ج ٤
١٢٢ ـ مروج الذهب للمسعودي
١٢٣ ـ المستطرف للأبشيهي
١٢٤ ـ المشتبه في أسماء الرجال للذهبي
١٢٥ ـ المصاحف لابن أبي داود
١٢٦ ـ مصارع العشاق لجعفر بن أحمد السرّاج القاري
١٢٧ ـ المصباح المنير للفيومي
١٢٨ ـ المعارف لابن قتيبة
١٢٩ ـ معاهد التنصيص للعباسي
١٣٠ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي
١٣١ ـ معجم المؤلفين لعمر كحالة
١٣٢ ـ المعلقات السبع للشنقيطي
١٣٣ ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني
١٣٤ ـ المفصل في تاريخ الأدب العربي لأحمد الاسكندري وزملائه
١٣٥ ـ الملل والنحل للشهرستاني
١٣٦ ـ المنتحل للثعالبي
١٣٧ ـ منهج أبي الفرج الأصبهاني ، د. داود سلوم ، بغداد ١٩٦٩ م

١٣٨ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي
١٣٩ ـ الموشحات ، د. جميل سلطان ، دمشق ١٩٥٣ م
١٤٠ ـ الموشحات الأندلسية لخليل تقي الدين (المكشوف عدد ٢٢٧)
١٤١ ـ الميسر والقداح لابن قتيبة
١٤٢ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، دار الكتب ١٩٤٢ م
١٤٣ ـ نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق للإدريسي
١٤٤ ـ النساء للجاحظ
١٤٥ ـ نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، د. حسين نصار
١٤٦ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر
١٤٧ ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير
١٤٨ ـ النوادر في اللغة لأبي زيد
١٤٩ ـ الهمز لأبي زيد الأنصاري
١٥٠ ـ الوسيط في الأدب العربي لأحمد الإسكندري وزملائه
١٥١ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان
١٥٢ ـ يتيمة الدهر للثعلبي
ـ يواقيت البيان في قصص القرآن أو قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، للثعلبي

وعلاوة على هذه الكتب رجعنا إلى دواوين شعراء من الجاهلية إلى العصر العباسي ، وعددها ٨ دواوين

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

(نهاية الأرب) مقسّم على ١٤٣ باباً موزعة على خمسة فنون واسعة هي :

١ ـ السماء والأرض ومافيهما ، من كواكب ونيازك ، وسحب وما إليهما ، وتقسيمات الزمن ، وجبال وأنهار وبحار وجزر ، والسكان وأخلاقهم ومبانيهم .

٢ ـ الإنسان وما يتعلق به ، من تنقّل وطباع وأعضاء وأنساب ، وأمثال وآداب وأشعار وملاهٍ ونوادر ، وحكّام وجيوش وقضاة وأموال .

٣ ـ الحيوان وأصنافه ، من سباع وظباء وضخام الوحوش ، ثم من الخيل والبقر وما إليهما ، ثم من السوامّ ، ثم من الطيور والحشرات ، والأسماك وصيد البر والبحر .

٤ ـ النبات وأصنافه والزراعة والأشجار والثمار والأزهار والطيوب والأدوية .

والطريف في هذه الفنون الأربعة أن النويري ضمّنها أجمل ما قيل في مضامينها .

٥ ـ تاريخ الأديان والشعوب منذ آدم حتى زمن المؤلف .

والجدير بالذكر هنا أن هذه الدراسة تناولت الفنون الأربعة الأولى منه وثلث الفن الخامس تقريباً ، إذ كان هو المطبوع من نهاية الأرب ، كما أسلفنا . ونعتقد أن مابقي من النهاية غير مطبوع لايؤثر إطلاقاً في تكوين صورة واضحة صادقة لنهاية الأرب ، لأن مالم يطبع بعد مسرودات تاريخية متوافرة المراجع في المكتبات ولهذا السبب أقدمنا على نشر هذه الدراسة مطمئنين إليها .

منهج النويري
140
ل.س
9 780000 006097